# حول الشرق العربي

## وأثره في تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى

للدكتور توفيق برو



هذه نظرة عاجلة الى الماضي الاستعماري القريب في الشرق يلقيها استاذ التاريخ الدكتور توفيق برو . ان الامتداد الاستعماري خطة مركزة ممددة ، طويلة النفس . لكي نعرف حاضرها ، يجب ان نعرف ماضيها ..!!

لاجدل في ان وضع الدول العربية ، خلال نصف قرن مضى ، قد حددت معالمه حوادث الحرب العالمية الاولى ، وأن انطلاق كل من فرنسا وانكلترا في غزوهما المحموم لهذه البلاد اثناء تلك الحرب قد جاء ردا على الاطماع الالمانية فيها ، بالاضافة الى ما كان لهما من اطماع خاصة ومن رغبة في الحفاظ على حقوق مزعومة لهما عليها .

بدأت المانيا بعد حرب السبعين تسير في نهضة شاملة، وأخذت صناعتها وتجارتها تنمو نمواً هائلاً ، وزاد انتاجها من الاسلحة والآلات والمنسوجات وشتى المصنوعات المعدنية زيادة كبيرة فاضت كثيراً عن حاجة الاستهلاك المحلي ، ووجب عليها ان تفتش عن اسواق تصريف لها. ومن جهة ثانية زادعدد نفوس ابنائها زيادة عظيمة بلغت اكثر من نصف مليون نسمة سنوياًمنذنشوب حرب السبعين ، وتكدست رؤوس الاموال، وتضخمت تضخماً اوجب البحث عن وسائل لتوظيفها خارج الاراضي الالمانية .

لذلك بدأت افكار ساستها تتجه نحو ارض جديدة علها تجد فيها ما يساعدها على حل هذه المعضلة ، ولم يكن امامها سوى التطلع الى الاستعمار باعتباره انجع وسيلة للتغلب عليها . لكنها عندما ولجت هذا الباب وجدت ان الدول الاستعمارية العريقة ، وفي مقدمتها انكلترا وفرنسا، قد سبقتها الى احتكار جميع الممتلكات الصالحة للاستعمار ، ولم يبق الا الاناضول ، ومايليه الى الجنوب من اراضي الشرق العربي ، المكان الوحيد الذي لم تسيطر عليه دولة من الدول الكبرى ، مع قابليته للاستعمار والاستثمار. « فاذا لم تضع المانيا فرصة الاستيلاء عليه قبل ان تمتد اليه أيدي القازاق فانها تكون قد نالت اكبر نصيب في قسمة الدنيا »(١) كما قال الدكتور سبرنغر Sprenger الالماني عام ١٨٨٦ . هذا هو الذي دعا المانيا الى انتوجه انظارها نحو تركيا علها تستطيع ان تفرض سيطرتها عليها فتستفيد مباشرة او بصورة غير مباشرة، اقتصادياً ومعنوياً ، من ممتلكاتها ومن فرض نفوذها وسيطرتها عليها .



---

(١) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى في الشرق الادنى ، ص ٩١ .

لقد اتبع الامبراطور الالماني ، في سلوكه مع تركيا ، خطة جديدة في بسط نفوذه الاستعماري ميزتها انها لاتستدعي منه تكاليف حملة مسلحة ، وفي الوقت نفسه لاتلقى معارضة حادة ومكشوفة من قبل اية دولة اوروبية اخرى . ذلك ان المانيا ، لما رأت استحالة القيام بحملة عسكرية ، فضلت عليها سياسة التغلغل السلمي المأمون النتائج . وقد كان هناك اكثر من سبب يدعو السلطان العثماني ـ عبد الحميد الثاني ـ الى الميل نحو الالمان الذين لم يظهروا نحوه من العداء ما اظهره الانكليز والدول الغربية الاخرى في مشاكل الدولة العثمانية مع الاقليات الطائفية المتنازعة مع السلطنة ، وكان اهمها قضيتا الارمن ومكدونيا . ولم يكن تصرف انكلترا تجاهه في مؤتمر برلين ( ١٨٧٨ ) ليلقى امتناناً منه حينما اضطرته الى التنازل لها عن جزيرة قبرص لقاء ما ادعته من دفاعها عن دولته في المؤتمر ، وتعهدها بحمايتها فيما بعد .

غير ان الطريق لم يكن ممهداً امام الالمان قيام التمهيد لبسط نفوذهم الاقتصادي والثقافي ـ وهذا جل ما كانوا يطمحون اليه في بادىء الامر كمقدمة لبسط نفوذهم السياسي والعسكري ـ فلم يكن تقدمهم في المنطقة ليخلو من عقبات تعترض سبيلهم ، ذلك ان كلاً من الدولتين الافرنسية والانكليزية قد سبقتهم الى التغلغل فيها ، واتخذت كل منها حقلا معيناً لنشاطها الاقتصادي والثقافي .

★ ★ ★

**النفوذ الافرنسي :**

لعبت فرنسا دوراً هاماً في تركيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فقد خولتها صداقتها التقليدية للباب العالي ، والحماية التي كانت

تدعي الحق في توفيرها للمسيحيين ، مركزاً سياسياً ممتازاً كان من علائمه البينة ما تمتع به ممثلوها الدبلوماسيون من أفضلية على ممثلي الدول الأخرى في البلاط العثماني ، وما خص به رعاياها من امتيازات خاصة في أراضي السلطنة . وكانت اللغة الافرنسية لغة يتكلم بها المسلمون والمسيحيون على السواء في كثير من الحواضر . والفضل في انتشارها يعود الى الارساليات الدينية والعلمانية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في القرن التاسع عشر ، لاسيما النصف الأخير منـــه وبخاصة في بلاد الشام . فلقد كانت المؤسسات الافرنسية من مدارس وكليات واديرة ومستشفيات ومياتم ومستوصفات منتشرة على نطاق واسع ، وقداعتقد الافرنسيون أن الشرق إنما ينهض على أكتاف فرنسا .

لقد رافق هذه الأولية الأدبية أولية مادية كالقروض الدولية والعمليات المالية والقضايا الصناعية والتجارية بشكل بلغت فيه منافع فرنسا المادية في تركيا بالنسبة للدول الاخرى مجتمعة ما يقارب (٦٥٪) . فالبنوك والسكك الحديدية والمرافىء كانت معظمها في أيد افرنسية ، بالاضافة الى مشاريع أخرى كالمناجم والمياه والغاز والتبغ والطرق والاستثمارات الزراعية والشركات العقارية [١] . وقد احتكرت فرنسا معظم الاعمال الانشائية في السلطنة العثمانية ، لاسيما في بلاد الشام ، اذ تعهدت إنشاء أغلب الخطوط الحديدية في الاناضول وسورية ، كما تحقق نفوذها في السلطنة عن طريق بناء المرافىء ، واحتلت الدور الأول في هذا المضمار . فعليها وقع عبء انشاء مرافىء وارصفة أربع من أهم مدن تركيا الساحلية : الاستانة ، ازمير ، بيروت وسلانيك ، عدا عن المرافىء الاخرى

---

(1) Comte de Gontant - Biron : Comment la France s'est installée en Syrie, pp. 1 - 2

الصغيرة على الساحل السوري ، وعدا عن اصلاح وتوسيع غيرها من المرافىء كما اضطلعت بتعهدات ارواء المدن في بلاد الشام بمياه الشرب من المناطق المجاورة وتزويدها بمصانع الكهرباء ، وبانشاء بعض البنوك وأهمها « البنك العثماني » .

وهكذا ارتفعت مبالغ رؤوس الأموال الافرنسية ، التي وظفت في سورية قبل الحرب العالمية الاولى ، الى ما يقارب ( ٣٠٠ ) مليون فرنك ، موزعة بين مختلف المشاريع الاقتصادية والمالية السالفة الذكر ، كما أن ثلث الصادرات السورية كان يذهب الى فرنسا ، بينما لم يكن لانكلترا بالمقابل سوى ٩٫٥ ٪ ولالمانيا ٢ ٪ وللنمسا ـ المجر ١٫٥ ٪ (١) .

اعتبرت فرنسا بلاد الشام حكراً لنفوذها الاقتصادي والثقافي ، وسماها بعض الكتاب الافرنسيين « الالزاس الثانية » تشبيهاً لها بالالزاس التي انتزعتها من الالمان ، وقد حلم الافرنسيون بانتزاع سورية من الدولة العثمانية كما فعلوا بتلك (٢) .

كانت فرنسا تنظر بعين الشك والريبة الى كل نفوذ آخر يتراءى ظله في المنطقة ، مدعية أن لها حقوقاً تقليدية عريقة فيها ترجع الى عهد الحروب الصليبية كان النفوذ الثقافي الافرنسي يتجلى في السلطنة العثمانية بكثرة المدارس الافرنسية وقد أثرت المدنية والثقافة الافرنسية على الحياة التركية بواسطتها ، كما تأثر احرار الترك بالافكار الحرة الواردة من فرنسا بعد ثورتها الكبرى بفعل الاختلاط بينهم وبين الافرنسيين ، وبفعل تشربهم بالمدنية الافرنسية ، وتعشقهم لنظم الادارة والحكم الافرنسية . لقد بلغ بها الأمر أن زعمت أن نفوذها الادبي في

---

(١) الدكتور نور الدين حاطوم ـ من محاضرة عن العرب والدولة العثمانية واوروبا في الحرب العالمية الاولى .

(٢) G. de Gautherot ; La France en Syrie et en Cilicie . p . 16

بلاد الشام يخولها المبادرة الى التدخل في شؤون المنطقة الداخلية لدى كل حادث جلل ( كحوادث ١٨٦٠ في لبنان ، والخلاف الروسي - الافرنسي على الاماكن المقدسة في القدس (١٨٥٦) ، والاضطرابات التي نشبت بعـد ثورة ١٩٠٨ الدستورية والحشية من مذابح جديدة ضد الأرمن والمسيحيين ) ، وذلك لحماية ماتدعيه من مصالح مادية ومن مكانة أدبية ، ولتحقيق مطامعها الاستعمارية التقليدية في الاستيلاء على سورية التي اعطت لنفسها الحق بأن تطلق عليها اسم « فرنسا الشرق » ، والتمتع بمواردها الاقتصادية والحصول على حصة من بترول الشرق الاوسط ، والسيطرة على موقع استراتيجي هام يساعدها - في الوقت نفسه - على حماية وجودها في المغرب العربي ، ذلك الذي عبر عنه مقيمها العام في تونس « بضرورة حماية نفوذ فرنسا الأدبي والسياسي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط كدعامة للسلام الافرنسي في تونس وبقية انحاء المغرب العربي ، ذلك السلام الذي لايمكن أن توطد اركانه الا اذا بسطت فرنسا سيطرتها على سورية » (١) .



## النفوذ الانكليزي :

لكن فرنسا لم تكن لتنعم بالهدوء وراحة البال باستمرار ، وبالاطمئنان على نصيبها المرتقب في هذه المنطقة ، ذلك ان الانكليز كانوا يعكرون عليها الماء كلما سنحت لهم فرصة مناسبة ، فيرسلون الدعاة والعملاء الى بلاد الشام ، ويحاولون التغلغل اقتصادياً باطلاق تجارهم في المدن السورية ،

(1) G. de Gautherot : ibid . p. 62

وينافسون الافرنسيين بالحصول على تعهدات بانشاء المرافىء والطرق وباقامة الشركات المختلفة فيها .

لقد احتلت انكلترا دوراً مرموقاً في تجارتها مع الشرق وبخاصة مع سورية ولبنان ، ويعود الفضل في ذلك الى الاصناف الجيدة من نسيج القطن التي كانت تعرضها باسعار رخيصة ، وكان لها غرفة تجارة في الاستانة وملحق تجاري الى جانب سفيرها في العاصمة العثمانية . كما كان في مصانع أهم مدنها مثل لندن ومانشستر تجار سوريون وأرمن يلبون طلبات مواطنيهم في الحال ويشيرون على المصانع بالاستجابة الى رغبات واذواق ابناء بلادهم ، ويسهلون في الوقت نفسه تصريف الصوف والقطن والحبوب والمعادن الواردة من بلاد الشام في انكلترا . وكان الاسطول البريطاني اكبر معين لانكلترا في ترويج نفوذها التجاري في الشرق .

كانت انكلترا تصدر الى الشرق ـ الى جانب الاقمشة ـ مصنوعاتها المعدنية والشاي والادوية واكياس الخيش والخيوط بانواعها بما فيها الصوفية والأدوات المنزلية والحرائر والأجواخ والأدوات البلورية والصيدلية ، كما كان اسطول انكلترا التجاري يزور جميع موانىء الشرق العربي .

لقد بلغ التنافس أشده بين الافرنسيين والانكليز في القرن التاسع عشر حول سواحل البحر الأحمر ومضيق باب المندب وعمان والمواقع الاخرى على المحيط الهندي وخليج البصرة وحتى حول سورية . فاذا كانت السويس بنظر الانكليز طريقاً مجرباً هاماً فان العراق طريق بري ممتاز وحصن حصين ، أما سورية فانها « عقدة المواصلات الجوية بين العروق البيضاء الأوروبية والعروق البيضاء والصفراء الآسيوية » ، ومن هنا جاءت أهميتها » . قال الجنرال

N iox الانكليزي عام ١٨٨٧ « ان كانت مصر هي مفتاح الطرق البحرية الى الهند فان سورية مفتاح الطرق البرية اليها » (١) .

لم تكن انكلترا تترك فرصة الا وتقتنصها للسيطرة على منطقة الشرق العربي ، فقد كانت على بينة من جشع روسيا ورغبتها في التبسط نحو البحر الابيض المتوسط وقلب القارة الآسيوية ، والأمل بالوصول الى الهند من خلال الطرق المؤدية الى جنوب بحر الخزر ، والوصول الى خليج البصرة والمحيط الهندي ، اذ كانت سياسة القياصرة ترمي الى ثلاثة اهداف رئيسية :

١ ـ تمزيق الامبراطورية العثمانية للاستيلاء على ارث البيزنطيين .

٢ ـ النزول الى خليج البصرة والمحيط الهندي .

٣ ـ تحويل تجارة ايران والهند وآسيا الوسطى الى روسيا .

فلم يكن الروس يرغبون في النفوذ الى البحر الأبيض المتوسط عن طريق المضائق فحسب بل وعن طريق الأناضول وما يليه جنوباً من الأرض العربية ، وقد منحتهم معاهدة « أيا ستيفانوس » مناطق أردهان وقارص وبايزيد من ولاية أرضروم ولو تم لهم ذلك بالفعل لبسطوا سيطرتهم على أرمينيـــة ولأصبح في إمكانهم التقدم عن طريق ملاطية وديار بكر حتى الاسكندرونة . غير ان يقظة انكلترا ، وقلقها من عواقب هذه المعاهدة ، دفعها الى دعوة الدول الكبرى الى عقد مؤتمر برلين واستبدالها بمعاهدة « برلين » وعقد اتفاقية ١٨٧٨/٦/٤ مع تركيا أخذت بموجبها قبرص (٢) فأصبح بامكانها - بالاستيلاء على هذه الجزيرة -



---

(١) J. Lichon . Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale p. XIV , et 1

(٢) عندما تمركز الانكليز في قبرص فكروا في بناء خط حديدي يصل بين الاسكندرونة والخليج العربي أو بين طرابلس الشام وبغداد ماراً بحمص – حلب – اورفــه – نصيبين – الموصل . لكنهم عدلوا عن هذه المشاريع عندما تم لهم السيطرة على قناة السويس بعد احتلالهم لمصر ( ١٨٨٢ ) .

جعل طريق الفرات تحت ترصدها والتحكم في طريق الاسكندرونة وقفل طريق فلسطين في وجه روسيا . ثم أسرعت في جعل خليج البصرة بحيرة انكليزية حتى استطاعت في أواخر القرن التاسع عشر ان تبسط عليه نفوذها السياسي وسيطرتها العسكرية .

ظل التنافس بين فرنسا وانكلترا وروسيا على احتدامه الى ان أخذت السياسة الألمانية تنذر بشرها المستطير يوماً بعد يوم ، فساد القلق حكومتي لندن وباريس في آن واحد وساقهما الى إدراك الخطر المحيق بمصالحهما الاستعمارية والى وجوب تسوية كل خلاف بينهما في أي مكان ، فلجأتا الى عقد ما سمي بالاتفاق الودي ( ١٩٠٤ ) وبه اقتسمتا مناطق النفوذ في مصر والمغرب الأقصى . إلا ان سورية بقيت عقدة من عقد الخلاف المستتر لم تكتم فرنسا مخاوفها من نتائجه في كثير من الأحيان .



واذا كانت فرنسا قد ضاق صدرها عن كتم مخاوفها من منافسة انكلترا لها في هذه البلاد ، قبل الحرب العالمية الأولى ، فلقد كان لهذا ما يبرر هذه المخاوف ، ذلك ان الحكومة البريطانية التي حفزها على العمل ما لمسته من امتداد الخطر الألماني نحو الشرق العربي بما كاد يهدد نفوذها فيه ـ لاسيما في العراق ـ قد عملت في اتجاهين : أولاً الوقوف في وجه الامتداد الالماني في العراق ، وثانياً في بسط سيطرتها ـ اذا أمكن ـ على المناطق الغربية من العالم العربي ، حتى ولو كلفها الأمر تجاهل مصالح فرنسا فيها ، كجزء من العمل لتعزيز اتجاهها الأول . ان بوانكاره رئيس الوزارة الافرنسية لم يكن واهماً عندما أطلق تصريحه عام ١٩١٢ في مجلس الشيوخ الافرنسي قائلا : « ولا أرى لزوماً لأن أذكر مجلس الشيوخ ان لنا في لبنان وسورية حقوقاً تاريخية تقليدية

ونحن نريد دائماً ان تراعى مصالحنا وحقوقنا فيهما ... »[1] ، ثم تابع حديثه مطمئناً مجلس الشيوخ بأن انكلترا قد أكدت لحكومته ان ليس لها في المنطقة أية أهداف او مطامع أو رغبة في العمل . ذلك ان حقيقة الواقع هي ان هذا التصريح لم يكن سوى تحذير لانكلترا ، وفي نفس الوقت بمثابة توثيق لحق فرنسا في سورية . فقد جاء الدليل المبرر لمخاوف رئيس الوزارة الافرنسي في ما أثبتته محاضر مجلس العموم البريطاني فيما بعد – من تذمر النائب البريطاني السير « مارك سايكس » حينما وقف ينتقد التصريحات المطمئنة التي أعطيت لفرنسا فيما يتعلق بالموضوع الذي أثاره خطاب « بوانكاره » في مجلس الشيوخ ، فأجابه اللورد غراي وزير الخارجية الانكليزي بأن الأمر لم يكن سوى عبارة عن تهدئة لروع الافرنسيين فيما يختص بالمسائل الاقتصادية فقط ، وان تلك التصريحات المطمئنة لا تمس مسألة اقتسام مناطق النفوذ في الشرق العربي[2] .



على ان المناطق التي اعتبرتها انكلترا حكراً لنفوذها هي العراق ومنطقة الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ومصر لما لها من أثر كبير على سلامة طريقها الى الهند « درة التاج البريطاني » ، وهذا مادفعها الى الاستيلاء على النقاط الحساسة فيها لتستخدمها محطات على طول طريقها البحري الموصل الى الهند . وبينما سهل على بريطانيا تنفيذ مآربها في جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي ، لما لمسته من وهن الروابط التي تربطها بالدولة العثمانية وضعف سيطرة هذه عليها ، واجهت بعض الصعوبات في مصر والعراق . واذا كانت الظروف قد واتتها في اقتناص الفرصة الملائمة لاحتلال مصر عام ١٨٨٢ فان وضع العراق وقربه من

(1) Rev. Correspondance d'Orient ( Pris ) . 1 - 1 - 1913 · pp . 1 - 2

(2) J· Pichon : ibid · p · 217

مركز الدولة العثمانية قد وفرت عليها فرصة الاستيلاء عليه حتى نشوب الحرب العالمية الاولى .

غير ان القول بأن انكلترا لم تكن مهتمة بأمر السيطرة على العراق من زمن بعيد لايخلو من الخطأ ، ذلك انها قد ظلت تعمل لتوطيد نفوذها فيه منذ الربع الاول من القرن التاسع عشر بواسطة شركة الهند الشرقية البريطانية التي تهيأ لهـا الدعم القوي من قبل الحكومة الانكليزية . ففي حوالي عام ١٨٣٤ عزمت هذه الشركة ـ رغبة منها في ايجاد طريق قصير للمواصلات بين الشرق والغرب يمر اما بمصر او بوادي الرافدين ، ويكون متمماً لطريق رأس الرجاء الصالح ـ على اجراء دراسة مقارنة بين الطريقين المذكورين في اختصاره لتكاليف النقل ومدة السفر ، بواسطة سفن تجارية صغيرة ، فحملت حكومتها على تكليف ضابط انكليزي بسبر اعماق نهر الفرات من اعاليه الى خليج البصرة واجراء التجربة ، بعد ان استصدرت من السلطان فرماناً يسمح لها بذلك . غير ان النتيجة لم تكن مرضية بالرغم من العمل الذي استمر ثلاث سنوات فتخلى الضابط البريطاني عن المشروع لأحد معاونيه «هنري بلوش لنش»(١)



تابع «لنش» على عمل سلفه ولكن في نهر «دجلة» بواسطة احدى البواخر التي تركها له ، ثم ألف شركة للملاحة في النهر وأسس بيتاً تجارياً في بغداد وازداد عدد البواخر التي تعمل لحساب شركته «اتسعت اعمالها اتساعاً كبيراً ، مالاً ونفوذاً ، واتخذت في عام ١٨٦١ اسماً رسمياً جديداً «شركة الملاحة التجارية في دجلة والفرات» ، وكانت الحكومة البريطانية من ورائها

(١) راجع تفصيلات وافية عن ذلك في كتابي «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني» (١٩٠٨ – ١٩١٤) .

تدعمها وتقويها ، كما كانت الشركة بدورها تعمل على تقوية النفوذ البريطاني في وادي الرافدين ، وظل الولاة العثمانيون عاجزين عن الحد من نفوذ الشركة ، ومن سعة انتشار النفوذ البريطاني في المنطقة،حتى تفاقم وآذن بامتداد خطره على مكانة الدولة العثمانية في العراق ، وكان في عام ١٩٠٩ السبب في نشوب ازمة حادة في مجلس المبعوثان العثماني حينما عمدت حكومة الاتحاديين الى اعادة النظر في وضع الشركة ؛ لكن هذه تمكنت من ان تعقد مع الحكومة اتفاقية تقر بوجودها بالرغم من الحملة الشديدة التي شنها نواب العرب والمعارضة على الحكومة بسبب السماح للشركة بمتابعة العمل في العراق مع علمها بمقدار ماتشكله من خطر على البلاد . وكان عمل الحكومة هذا من جملة الاسباب التي اوهنت الروابط التي تشد العرب الى الترك ، لأن حكومة الاتحاديين برهنت عن تفريطها في حقوق الولايات العربية ومصالحها الاساسية .

كان موقف بريطانيا يزداد رسوخاً وقوة في العراق بمرور الزمن ، ولا سيما عندما فاحت رائحة البترول ، واثبتت التحريات عن وجوده فيه ، فازداد لهذا السبب اهتمامها به ، كما ازدادت رغبتها في الاستيلاء عليه ، فكان من الطبيعي ان تضطرب لكل تقارب بين المانيا والسلطان العثماني ، لاسيما اذا كان فيه مايمس موقف انكلترا ونفوذها في العراق .

## النفوذ الالماني :

لقد أثرت — في الواقع — السياسة التي رسمتها المانيا لبسط سيطرتها على السلطنة العثمانية وممتلكاتها ، ذلك ان نفوذ الالمان قد انتشر في السلطنة بسرعة عظيمة . وقد ساعده الوهم الذي تكوّن لدى الترك بأن برلين لا تسعى لمنفعة خاصة ، بينما قابل هذا الزهد المزعوم حرص كل من فرنسا وانكلترا على ابتلاع

مصر وتونس ، فاستغل الالمان هذه البادرة وبدأت بعثات التدريب والاسلحة تفد من المانيا الى تركيا (١) لاسيما بعد الزيارة التي قام بها الامبراطور غليوم الثاني في أواخر القرن التاسع عشر للسلطان العثماني ولكل من الشام والقدس ، اذ اعقبها تفاهم الماني - تركي أسفر عن وعد من السلطان باعطاء الالمان امتياز مد الخط الحديدي « برلين - بغداد - الخليج العربي » . وهكذا أخذ مبدأ « الى الشرق » الذي قامت عليه فكرة التبسط الجرماني يجد مجال نشاط فسيح ، وبدأ الالمان يستعدون للجولات فيه بما اوتوا من قوة وعزم ، واحالة آسيا العربية الى « امبراطورية ألمانية » شبيهة بامبراطورية الهند الانكليزية ، بل أفضل منها لسكنى المهاجرين الالمان ، ولانشاء مستعمرات زراعية لهم فيها ، فضلاً عن جعلها بؤرة للثقافة الالمانية وسوقاً للمصنوعات الجرمانية ومجالاً لانشاء شبكة واسعة من الخطوط الحديدية تخترق الاناضول وتنتهي من جهة بشواطىء البحر الابيض المتوسط ، ومن جهة أخرى بالخليج العربي . هذا وقد خطا برنامج التبسط الالماني في فجر القرن العشرين خطوات واسعة في سبيل التحقيق ، من انشاء خطوط حديدية ومرافىء ومن حصول المانيا على حق الملاحة النهرية والتنقيب عن المعادن واستثمار المناجم واقامة المستودعات في البصرة وبغداد وحق الافضلية في الحصول على امتياز مد السكك الحديدية التي تمد في المستقبل

---

(١) بدأ النفوذ الالماني يتغلغل في الاستانة منذ عهد فريد بك الثاني في أواخر القرن الثامن عشر ، لكنه لم يصبح حقيقة واقعة الا منذ أن طلب السلطان محمود الثاني من المانيا في فترة نزاعه ( ١٨٣١ - ١٨٣٩ ) مع والي مصر محمد علي ارسال بعثة من الضباط لتدريب جيشه فارسلت له الضابط الشهير « فون مولتكه » الذي اشرف على تدريب الجيوش العثمانية ونظم الخرائط واكتشف مجرى نهر الفرات . وقد وضع فون مولتكه الفكرة القائلة بان على « بروسية » ان تحتل فلسطين .

من سكتها الرئيسية لتصل الى البحر بين مرسين وطرابلس الشام ، وهذا ما يهيء لها فرصة السيطرة والنفوذ في منطقة الاسكندرونة واللاذقية ، ويضر بالنفوذ الافرنسي في الشرق العربي ، كما يجعل باستطاعة المانيا انشاء مرافىء في بغداد والبصرة والخليج العربي فيضر بمصالح انكلترا في العراق والخليج .

اعطي امتياز خط حديد بغداد نهائياً عام ١٩٠٣، فوقفت انكلترا من هذا الحدث الهام موقفاً سلبياً ـ وجارتها في ذلك كل من فرنسا وروسيا ـ اذ خشيت من سيطرة الالمان على وادي الرافدين والخليج العربي ، ومن القضاء على نفوذها العريق في هذه المنطقة ، وخافت أن يفلت من يديها زمام طريق الهند . وقد عبر اللورد « لانزدون » ( Landsdowne ) وزير خارجية انكلترا عن هذه المخاوف بقوله : « أقول بدون تردد باننا نعتبر ان اقامة قاعدة أو مرفأ محصن في خليج البصرة ، من قبل دولة أخرى ، يشكل تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية وسوف نقاومه ـ دون شك ـ بكل ماتملك من وسائل » (١) .

لذلك بادرت انكلترا الى العمل بكل همـــة ونشاط ، فاذا لم يكن بامكانها احباط المشروع من اساسه فلا أقل من الحيلولة دون امتداد السكة الحديدية حتى الخليج العربي . وهكذا اسرعت الى عقد معاهدات مـع شيوخ ساحل الخليج تؤمن لها عدم التعاقد والتعامل الا معها .

على ان الأزمة التي نشبت من اصرار الحكومة العثمانية ، ومن ورائها

(1) J. Pichon : ibid. p. 153

المانيا ، على مد السكة الحديدية حتى الخليج ، ومعارضة انكلترا في ذلك ، ووقوف أمير الكويت أمام تنفيذ هذا المشروع ، قد ادت الى توتر العلاقات بين الامير مبارك الصباح والدولة العثمانية التي ارسلت قوة عسكرية لاحتلال الموقع الذي رفض الأمير بيعه لممثل المانيا، فبادرت انكلترا الى التهديد بصدهذه القوة . وتكررت المحاولة مراراً ، لكن الانكليز كانوا لها بالمرصاد فأحبطوها بعد أن عززوا اسطولهم في الخليج ، فما كان من السلطان إلا الرضوخ للأمر الواقع والكف عن محاولاته .

وقد نشبت مثل هذه الأزمة ايضاً عندما أقدم السلطان العثماني على إنشاء سكة حديد الحجاز التي رأى الانكليز شبح الأخطبوط الألماني يتراءى لهم من ورائها ، لاسيا عندما تجرأ السلطان عام ١٩٠٦ على احتلال موقع « طابا » المصري ، على خليج العقبة ليكون منتهى خط فرعي يصل اليه من معان كي يستقبل حجاج مصر وشمالي افريقيا والمغرب العربي ، فثارت ثائرة الممثل البريطاني في مصر ، وبادر الى العمل للحيلولة دون التوسع الذي رغبت الدولة العثمانية ان تقوم به في سيناء ، مدعية أن شبه الجزيرة هي من أراضيها ، وتبغي استردادها من أيدي الانكليز الجاثمين على قلب مصر . ولم يكن الالمان منزهين عن التدخل في هذه الأزمة ، إذ كانوا يلعبون من وراء الستار ، ويعملون على إذكاء الصراع بين الجانبين ، ولم تستطع انكلترا إرجاع السلطان الى حدوده إلا بعد ان حشدت قطعات من اسطولها في مياه العقبة لمنع العثمانيين من التوسع، وهدد اسطولها الذي اقتحم الدردنيل بقصف الاستانة (١) .

(١) راجع ص ٣٨ - ٤٤ من كتابي « العرب والترك ... » وفيه تفصيلات وافية عن أزمتي « الكويت » و « طابا » .

في الواقع لم تكن المطامع الالمانية في البلاد العربية لتخفي نفسها ، ولم يكن سعي المانيا للتوسع الاقتصادي في آسيا الصغرى والشرق العربي ، وتظاهرها بدعم المسلمين ، وتحببها اليهم ، واهتمامها بامورهم — مهما تستر بالمظهر البريء — الا لينم عن هذه المطامع التي أفصح عنها الكتاب الالمان بكل وضوح .

فقد كتب البروفسور « هلفريخ » وزير الخارجية الالماني ، في بداية الحرب العالمية الأولى ، كتابا عن « منشأ الحرب العامة » جاء فيه صراحة أن اسباب هذه الحرب « رغبة التفوق في الشرق ، وتحقيق السيطرة على العالم الاسلامي ، ثم الرغبة في تحطيم كل قوة تمانع دولة تحكم قسما كبيراً منه ( ويقصد بذلك تركيا ) في ان تبسط سيطرتها على جميع أقسامه الباقية (١) » . ومعنى ذلك ان المانيا لم تكن لتكتفي ببسط نفوذها على اراضي السلطنة العثمانية بشكلها القائم — وفقاً لما نشره المستشرق « سپرنجر » عام ١٨٨٦ من أن آسيا الصغرى « تمثل أخصب حقل للاستعمار » بالنسبة لالمانيا — بل هي تريد مساعدتها في الاستيلاء على جميع البلاد الاسلامية لتجعلها مطية للاستعمار الالماني لهذه البلاد بأجمعها .

لقد جاء في مقال لاستاذ الماني ، كتبه بعد نشوب الحرب ، قوله : « ان هدف المانيا يمكن ان يلخص ببضع كلمات يجمعها قولنا : البحر الشمالي — الاستانة — بغداد — الأوقيانوس الهندي ( العربي ) (٢) » . على ان الامبراطور الالماني نفسه قد عرف مقاصد المانيا بقوله : « اسفين الماني يمتد من هامبورغ الى خليج فارس » . لذلك وضع القائمون على « البنك الالماني » ايديهم على سكك

---

(١) مجلة تورك يوردي » التركية ، عدد ١٨ — ٦ — ١٩١٦ من نص كتاب البروفسور هلفريخ

(٢) مطبعة المقتطف : تاريخ الحرب العظمى ، ج٥ ، ص ٤٨٤ ، عن المستر ولسن .

حديد تركيا - أوروبا ، وفي الرأي على ان تكون سكة حديد بغداد أهم الوسائل في بسط السيطرة الالمانية على الشرق الاوسط .

لقد بدأت المانيا اهتمامها الفعلي بقضايا الشرق منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨) . ذلك انها أصبحت ، خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، بلداً صناعياً كبيراً ، فوجب عليها ان تعنى بايجاد منافذ تصريف لمنتجاتها الصناعية - كما أسلفت - لذلك فانه سرعان ما اتجهت فعالية الرأسماليين ، واطماع الصناعيين الالمان نحو الشرق (الأناضول ، سورية ، العراق ) ، « هذه البلاد التي تتمتع بالغنى العظيم غير المحدود[1] » وهكذا أخذت المانيا تتطلع نحو السيطرة عليها ، وشرعت بعض جرائدها وبعض كتابها يتكلمون عن تشكيل ما سموه بـ « الهند الجرمانية » في بلاد الشرق . كتبت مجلة « داي بوست Die poste » في ١٧/١١/١٩١٢ « ان سورية وبلاد الرافدين تخصان المانيا ، فاذا كانت فرنسا تريدهما فما عليها الا ان تستولي عليهما بالقوة[2] » . وحدد الكاتب « هانز دلبروك Hanz Delbruck » في كتابه المسمى « منح بسمرك Les legs de Bismark » هذه الهند الجرمانية بأنها آسيا الصغرى وما بين النهرين . أما الكاتب « ماكس هوشيللر Ma Hoschiller » فيقول في مقال نشرته جريدة La Cote de la Bourse et de la Banque « اذا كانت المانيا ترمي الى الاستيلاء على الاستانة فلتضمن بالدرجة الاولى توطيد اركان سكة حديد هامبورغ - بغداد » ويعترف « فون كيردوف Von Kirdoff رئيس نقابة الفحم ورئيس شركة مناجم وصناعة « جلسنكيرتشين Gelsenkircheen » بأن « الحاق أراضي الشرق ضرورة حتمية لالمانيا . لأن مصالح الامبراطورية الحيوية تقضي بانشاء مناطق جديدة للاستعمار الزراعي ، ولتنمية الموارد الزراعية » .

(1) Nadra Moutran :La Syrie de Demain, p. 50

(2) Atala: La Syrie, Les Aspects Actuel، de la Question Syrienne p. 32

الى أن يصبح بامكانها ان تكفي نفسها بنفسها ...» . وفي محاضرة القيت بحضور «غليوم الثاني» ابرز «فون غوينر Von Gwinner» مدير البنك الالماني الفوائد العظيمة التي تنجم عن استصلاح واستثمار سهول الاناضول وما بين النهرين التي تصلح لزراعة الحبوب والقطن بشكل عجيب . ويلاحظ «ماكس هوشيلر» بأن «الهند الجرمانية» قد اكتشفها الانكليز ، مشيراً بذلك الى الكتاب الذي وضعه المهندس الانكليزي الشهير «وليم ويلكوكس W. Willcoks» بعنوان «ري العراق Irrigation of Mesopotamia» (نشر في القاهرة ١٩٠٩) ، وعثر فيه على الفكرة الجريئة التي تبنتها المانيا . وصرح البرنس «بولوف De Bulow» بأن «مشروع خط بغداد تنعشه المشاريع الالمانية الهادفة الى السيطرة على المناطق الواقعة بين البحر الابيض المتوسط والخليج الفارسي وعلى حوضي الدجلة والفرات ، حيث توجد ممتلكات لا مثيل لها في الخصب ، واذا جاز القول فان في العراق آفاقاً لا نهاية لها» (١) .

ويظهر أن المانيا قد جندت امكانياتها المختلفة لهذه الغاية ، اذ كان لضباطها الوافدين الى تركيا مهمة أخرى غير التي أوفدوا من أجلها ، فالى جانب عملهم العسكري كانوا ينتحلون مهنة الصحافة ، ويبذلون منتهى الجهد للحصول على الرسوم والخرائط المفصلة ، والمعلومات الدقيقة الضافية عن كل قطر من الاقطار العربية . كان كل واحد من هؤلاء اذا اختبرته وجدته يلم بالتفاصيل الدقيقة وكأنه من الاختصاصيين المتعمقين في هذه الدراسات : يعرف نزعات زعماء القبائل العربية وأحوال قبائلها وآراء مفكريها . باختصار انه يعرف معرفة دقيقة احوالها الجغرافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية (٢) .

---

(1) Nadra Moutran : ibid . pp . VII . VIII

(٢) اسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص ٥٣

وهكذا فان شركات المانيـة قوية مدعومة من حكومتها من جهة ، ومتضامنة مع بعضها في مجال التنافس الاقتصادي من جهة أخرى ، رفعت لواء التوسع الاقتصادي ، مثـــل « البنك الالماني » و « بنك درسدن » وبنك « La Diskonto Gesellschaft » ، وانشىء قبيل الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات « البنك الفلسطيني الالماني La Deutsche Palestina Bank » ، ولم يلبث أن فتحت له فروع في القدس وحيفا ويافا ... ، وذلك تطبيقاً لمبـــدأ الماليين الالمان بان المصارف يجب أن تتقدم التجارة وتهيىء لها الاعتمادات اللازمة والدعم المالي الـكافي (١) .

ثم لم يلبث هـذا الفتح الاقتصادي أن برز بشكل آخر : بالخطوط الملاحية . فحوالي سنة ١٩٠٤ لم يكن ثمة سوى شركة ملاحية المانية واحدة : « الخط الشرقي الالماني La Deutsche Levante Vinie » التي كانت بواخرها تجوب البحر المتوسط الشرقي . ولكن من سنة ١٩٠٤ الى ١٩١٤ انشئت ثلاث شركات ملاحية في اقل من عشر سنوات واصبحت بواخر المانيا تجوب البحر الابيض المتوسط منافسة في ذلك الخطوط الافرنسية والانكليزية والايطالية والروسية والنمساوية ، مشكلة شبكة من الخطوط غايتها « ايلاف مرافىء الشرق رؤية الوان العلم الالماني اكثر من جني المنافع الآنية » (٢) .

نتيجة لكل ذلك لوحظ نمو التجارة الالمانية نمواً كبيراً في أواخر القرن التاسع عشر . فالى عهد قريب كانت السلع الالمانية تأتي الى بلاد الشرق في سفن ترفع العلم النمساوي والانكليزي او البلجيكي والهولندي . غير ان

(1) René Pinon : L'Europe et l'Empire Ottoman . p . 322

(2) Atala : Ibid . p . 38

المانيا اصبحت بعدئذ ذات نفوذ تجاري هام ، حيث ان الدبلوماسية الالمانية بدأت تلعب دورهـــا في بلاط السلطان ، وبدأت الصحف الالمانية تدعو حكومتها لتخوض ميدان التنافس التجاري مع انكلترا وفرنسا ، فبدأت الشركات التجارية الالمانية نشاطها وبخاصة منها « شركة برلين للتجارة » ذات الرأسمال الضخم ، وكان لها برنامج واسع يرمي الى استبدال المواد الصناعية الالمانية بالمواد الاولية رأساً من البلاد المنتجة لها ، والقيام بمشاريع عامة او خاصة مثل انشاء الترع والجسور والسكك الحديدية والحافلات الكهربائية والسدود وتجفيف المستنقعات والانارة وتقديم السفن التجارية والماكنات وادوات البرق والهاتف وتقديم العمال لمختلف الاعمال الصناعية واعطاء قروض للحكومات والبلديات ... الخ . وقد اتخذت ميداناً لعملها في الشرق مدن يافا وبيروت وغيرها ، وكانت غايتها احتكار تجارة الشرق. وتنفيذاً لهدفها ،سرعان ما انشأت مصرفاً لعب دوراً كبيراً في بسط النفوذ الالماني في الشرق « بنك برلين الالماني للتصدير La Deutsche Export Bank of Berlin » ، وكانت مهمته تهيئة انجع السبل لتنشيط التجـــارة الخارجية الالمانية ، وذلك بتسهيل علاقات المقاولات التجارية الالمانية مع الاسواق الاجنبية . وكان من نتيجة النفوذ الالماني في الشرق ان تأسست بيوت تجارية المانية ومخازن في حلب ودمشق وبيروت وحيفا ويافا ، كما تألفت غرفة تجارة المانية في الآستانة .

وقد استعملت المانيا اساليب ناجعة في الدعاية بارسالها رسلاً تجاريين الى سورية وفلسطين يعرضون نماذج من بضائعهم ، ويأخذون من البلاد نماذج من الانسجة الوطنية ويرسلونها الى المانيا حيث تصنع اقمشة مطابقة لها ، ثم ترسل الى البلاد لتباع بأثمان ارخص فتضارب المنسوجات الاخرى فيها. ومن الاساليب

التي اتبعتها المانيا تسهيلاً للتعامل التجاري ، واظهارها لروح التسامح ، بحيث كانت تمهل زبائنها خمسة او ستة اشهر ، بدلاً من نصف شهر ، وهي المهلة التي كانت تمنحها بقية الدول الاوروبية لتسديد قيمة المشتريات . من ذلك ايضاً تسليم البضاعة في الثغور السورية ، او الفلسطينية او حتى في القدس وحلب ، بدلاً من تسليمها في المرافىء الاوروبية ، كما كانت تفعل بقية الدول (1).

ولما كانت هذه الامور تجري تحت بصر الانكليز وسمعهم فقد أقض مضجعهم هـذا الخطر الاستعماري الدائم في منطقة يعتقدون ان من حقهم السيطرة عليها ، فلم يفتأ اللورد كتشنر - المعتمد البريطاني في مصر قبل الحرب ، والذي عرف بعميق خبرته في الامور الشرقية ، نظراً للمدة الطويلة التي قضاها في الهند والسودان قائداً عاماً للجيش يتابع بقلق شديد نمو النفوذ الالماني في هـذه المنطقة ، فاختمرت في ذهنه فكرة اقتطاع جزء من الدولة العثمانية ، يؤلف منه دولة عربية مستقلة ، توضع تحت الحماية البريطانية ، او تشجيع الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية ومساعدتها في الحصول على استقلالها وتكوين دولة واحدة او مجموعة من الدول مستقلة استقلالاً داخلياً ، ترتبط بانكلترا بوباط الصداقة ، وتشكل حزاماً انكليزياً - عربياً يمتد من شواطىء البحر الابيض المتوسط غرباً حتى حدود ايران شرقاً ، ويقف سداً منيعاً امام المد التركي - الالماني وخطره على قناة السويس والخليج العربي وعلى الطريق البرية المؤدية من سواحل البحر الابيض المتوسط الى ساحل الخليج العربي وحقول البترول في العراق وايران .

---

(1) Verney et Dambmann : Les Puissances Etrangères dans le Levant en Syrie et en Palestine.

من هذا المنعطف انطلقت فكرة التفاوض مع امير مكة الشريف حسين اثر نشوب الحرب العالمية الاولى وأدت الى الاتفاقات المعروفة بـ «رسائل الحسين - مكماهون» التي لعبت الدبلوماسية الانكليزيـــة في عقدها دورها الماكر المخادع فتعمدت فيها الغموض الشديد والالتواء لتصبح تكأة لاتفاقية لاحقة وغادرة عقدت سراً بين فرنسا وانكلترا، و اتفاقية سايكس بيكو» التي اقتسمت الدولتان بها المناطق العربية. وبانتصار الحلفاء على المانيا وتركيا طويت صفحة هامة من صفحات التنافس الدولي على هـــذا الشرق العربي دام قرابة نصف قرن من الزمان، واقتسم المنتصرون «اصدقاء الامس» في سني مابعد الحرب، وفقاً لما أسموه «نظام الانتدابات»، مناطق الشرق العربي، بعد ان ألقوا اقنعة الحمـــلان، واسفروا عن وجوههم الحقيقية.

# القضايا المعاصرة

# للاقتصاد الاشتراكي

للاقتصادي البولوني اوسكار لانجه
Oskar Lange

الترجمة للدكتور هشام متولي

انهـــا المرة الثالثة التي احاضر فيها في معهد Gramsci في ايطاليا (١). ولا أكتمكم أن في ذلك دليلا على متانة الرابطة التي تصلني بهذا المعهد سواء بسبب ماشعرت به تجاهه من خلال زياراتي السابقة أو ،بل وخصوصاً ، بسبب الروح المسيطرة عليه . لهذا أشعر بالسعادة بالتوجه بالكلام الى هذا الحفل الكريم .

سأحدثكم عن القضايا المعاصرة للاقتصاد الاشتراكي وهو موضوع واسع جدا ،بل واسع لدرجة سأضطر معها الى اختيار بعض هذه القضايا . وهكذا سأقصر كلامي عن القضايا الجديدة التي يواجهها اقتصاد البلدان الاشتراكية .

---

(١) Problémes actuels de l'economie Socialiste ألقى المؤلف هذه المحاضرة في المعهد المذكور في روما ، ونشرها في فارصوفيا مع محاضرات أخرى عام ١٩٦٤ .

ان عدد الدول الاشتراكية أصبح مرتفعاً اليوم ، كذلك فان المعسكر الاشتراكي يتضمن بلداناً على درجة كبيرة من الاختلاف من حيث مستوى تقدمها الاقتصادي والاجتماعي ومن حيث شروطها التاريخية بشكل أصبح معه من الصعوبة بمكان الحديث عن القضايا المعاصرة للاقتصاد الاشتراكي بوجه عام . سأقتصر في الكلام اذن على قضايا الاقتصاد الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي وبلدان الديمقراطيات الشعبية في اوربا . أما قضايا الاقتصاد الاشتراكي في الصين الشعبية، كوريا ، فيتنام فلها صفاتها الخاصة والمتميزة . لذلك سيكون من الصعب معالجة كل هذه القضايا في هذه المحاضرة .

على أنه حتى لو حصرنا الموضوع ، يبقى هناك تنوع كبير في الشروط والقضايا المطروحة. فاذا كان الأمر كما يبدو لي من ان القضايا الأساسية لهذه المجموعة من البلدان الاشتراكية هي ذاتها من حيث المبدأ ، فان الاشكال والشروط الخاصة التي تتمثل بها تكون مختلفة . سأتحدث بشكل عام اذن عن قضية الاقتصاد الاشتراكي لمجموعة البلدان التي سميتها ، ولكني سأختار بولونيا لاعطاء الأمثلة العملية . من الواضح أن كثيراً من هذه القضايا لايطرح فقط في بولونيا ، بل يكون عاما ، ولكن شكل عرضها ، كذلك الحلول الموضوعة لها ، تكون مختلفة .



ان القضية الرئيسية للاقتصاد الاشتراكي اليوم تنحصر في هذا الواقع التاريخي : ان الاقتصاد الاشتراكي يمر بمرحلة جديدة من مراحل تطوره . فالاقتصاد الاشتراكي تعرض لسير عملية النمو في البدء في بلدان متخلفة نسبيا من الناحية الاقتصادية ، كالاتحاد السوفيتي وبلدان اوربا الشرقية . وقد فرض هذا الوضع في البدء صفة خاصة لتطور الاقتصاد الاشتراكي في هذه البلدان، فالقضية الأولى التي طرحت عليها كانت تتعلق بتطوير واغناء القوى أو الطاقات الانتاجية ، وخاصة تصنيع البلد وتحديث زراعته . فتطور الاقتصاد الاشتراكي كان واقعاً تحت هيمنة هذه القضية الرئيسية : تأمين معدل مرتفع من التنمية الاقتصادية لتلافي التأخر عن البلدان الرأسمالية المتطورة، وخاصة باتباع طريق التراكم . فالتراكم كان يمثل اذن المهمة الرئيسية في اقتصاد تلك الفترة بحيث أن وسائل التخطيط والادارة الاقتصاد القومي كان لابد لها من التناسق معه .

ولكن التنمية الاقتصادية دخلت مرحلة جديدة في مجموعة البلدان التي ذكرتها . فهذه البلدان التي كانت متأخرة قد تصنعت بشكل معتبر ( اصبح الاتحاد السوفيتي المركز الصناعي الثاني في العالم ) ، كما ان المستوى العام للحياة الاقتصادية قد ارتفع . ويمكن القول على هذا الاساس ان اقتصاد البلدان الاشتراكية قد « نضج » . كف عن ان يكون اقتصادا متخلفا ، واصبح اقتصادا صناعيـــا حديثا . وهذه الظاهرة الرئيسية تطرح قضايا جديدة على السياسة الاقتصادية وطرق توجيه التنمية الاقتصادية . وكان من اولى نتائج تطور او نمو القوى

الانتاجية في البلدان الاشتراكية زيادة مستوى الحياة الاقتصادية . وفي الوقت ذاته ، زيادة تنوع وتعقد اقتصاد البلدان الاشتراكية . وهذا التعقيد المتزايد يطرح قضايا جديدة على توجيه الحياة الاقتصادية .

والى جانب ظاهرة تعقد الحياة الاقتصادية ، هناك ظاهرة اخرى : دخول مرحلة ذات شروط جديدة من التنمية الاقتصادية . ففي المرحلة السابقة تحققت التنمية الاقتصادية بموجب طريقة سأدعوها بالطريقة الممتدة : ففي كافة هذه البلدان كانت تتوفر احتياطيات هامة غير مستخدمة من اليد العاملة ، وغير مستثمرة من الثروات الطبيعية . اما الاحتياطيات من اليد العاملة فكانت تتمثل بشكل رئيسي بفرط السكان في الزراعة ، وبشكل جزئي بالافراد العاطلين عن العمل في المراكز الحضرية . فكيف يمكن تشغيل واستثمار هذه الاحتياطات من اليد العاملة والثروات الطبيعية ان يكن بطريق التشمير ؟ فالوسيلتان اللتان امننا تحقيق التنمية الاقتصادية كانتا اذن التراكم والتشمير . فقد شيدت المصانع ، وحفرت المناجم ، واستخدم افراد المجتمع ، وكانت النتيجة نصرا لاشك فيه : ازدياد الانتاج .

والان فقد بلغ الاقتصاد الاشتراكي ، وخاصة اقتصاد بلدان الديمقراطيات الشعبية في اوربا ، مرحلة اخذت تنضب فيها هذه الاحتياطات شيئا فشيئا . وللمحافظة على سير التطور الاقتصادي ، لابد من استبدال الوسائل الممتدة بالوسائل الكثيفة ، واقصد بالوسائل الكثيفة : زيادة انتاجية العمل ، زيادة الآثار الخلاقة لتنظيم الاقتصاد القومي والتقدم التقني ( التكنيكي ) . اذ لا يكفي القول : سأتبع عملية التراكم ، وبهذا سأحصل على الوسائل الكفيلة بتحقيق المشاريع التشميرية . او القول : لدي يد عاملة ، ولدي الثروات الطبيعية : فالانتاج يتحقق اذن بصورة آلية او تلقائية . اذ تطرح القضية بشكل آخر : يتطلب الوضع الان زيادة الانتاجية والآثار الخلاقة للوسائل التي بين ايدينا . وهكذا فان العاملين : التعقد المتزايد للاقتصاد الاشتراكي ، والانتقال من المرحلة الممتدة الى المرحلة الكثيفة في التنمية الاقتصادية ، يطرحان قضايا جديدة . انهما يطرحان القضايا المتعلقة بـ :

١ — منهجية التخطيط .

٢ — تنظيم وادارة الاقتصاد القومي .

٣ — الوسائل المراد استخدامها لتأمين زيادة الانتاجية وتنشيط الحركة الاقتصادية .

فمنذ عام ١٩٥٦ تقريبا لوحظ اتجاه نحو تغيير طرق التخطيط ، وتنظيم وادارة الاقتصاد القومي في جميع البلدان الاشتراكية المذكورة . ودارت مناقشات علميــة حادة حول هذه التغيرات والقضايا التي اشرت اليها .

ان المسألة المطروحة على مختلف الدول الاشتراكية تتكر ذاتها من حيث المبدأ . فأولاً هناك منهجية التخطيط وقضية تأمين تحقق آثار خلاقة لهذا التخطيط على نطاق اوسع ، وخاصة تنسيق افضل الخطط فيا بينها . فالتخطيط في طور الانتقال من مرحلة التنسيق الداخلي فيا بين الخطط باتباع طريقة الميزانية الى المرحلة التي يخضع فيها اكثر فاكثر للاختبارات .

وتتعلق بهذه التطورات المناقشات المعروفة عن منهجية التخطيط وخاصة صبغ هذه المنهجية بطابع رياضي ، وامكانيات تحسينها . وقد تجلى نفع الآلات الالكترونية كادوات تستخدم لتأمين دقة أكبر في الشؤون التخطيطية ، تخطيط يعطي في لوقت نفسه افضل النتائج من وجهة نظر الحدود القصوى Optimation التي لم يكن من الممكن تحقيقها بالطرق التقليدية .

اما القضية الثانية المتعلقة بتنظيم وادارة الاقتصاد القومي ، فتطرح ايضا في مختلف بلدان الاقتصاد الاشتراكي . والنقطة الاساسية فيها تحديد درجة المركزية واللامركزية في ادارة هذا الاقتصاد .

كان التخطيط يحتوي في الماضي على الكثير من التفاصيل ، وبالتالي فان ادارة الاقتصاد التي هي وضع الخطط موضع التنفيذ تكون على درجة كبيرة من المركزية . واذا كانت هذه المركزية ممكنة فلأن الاقتصاد كان بسيطاً ، بل أكاد أقول بدائياً . وهذا يعني ان مركزاً واحداً موجهاً قادر عملياً على توجيهه حتى في جزئياته الصغيرة . بالاضافة الى ذلك كان يبدو هذا التمركز وكأنه ضرورة ، وذلك لان القرارات الرئيسية المتعلقة بتصنيع البلاد وتحديث زراعتها كانت في الوقت ذاته عبارة عن قرارات تتضمن تغيرات ثورية في البنيان الاقتصادي والاجتماعي ، وهذا يعني انه لا يمكن اتخاذها الا عن طريق السلطة المركزية ، كما ان تنفيذها ، حتى في جزئياته ، لا يتحقق الا على يد سلطة مركزية — اي بعد تجهيز وتمركز جميع الموارد ، لما يهدف الى تغيير البنيان الاقتصادي والاجتماعي اولا ثم الى تصنيع البلاد وتحديث زراعتها — والا لما تمت المجازفة بهذا العمل لرؤية الجهود الضائعة بسبب افتقاد التنسيق وتبعثر الجهود والتوجيهات نحو اتجاهات مختلفة .

اما الآن ، بعد ان اصبح الاقتصاد الاشتراكي اكثر شمولا وتعقيدا ، فان القضايا تطرح بطريقة مختلفة . ففي الاتحاد السوفييتي ، ومنذ سنوات ، كان يوجد ٢٠٠٠٠٠ مؤسسة صناعية و ١٠٠٠٠٠ مركز بناء ، الامر الذي يعطي ٣٠٠٠٠٠ وحدة . ولا بد ان يكون هذا الرقم اكثر ارتفاعا بكثير اليوم . فمن الواضح انه لا يمكن ادارة جهاز كهذا بالطريقة ذاتها التي كانت متبعة منذ عشرين عاما ، اي عندما كان عدد الوحدات لا يجاوز عشراً ، او جزءاً من عشرين مما هو عليه الان . وألخص ما قلت اذن فيان قضية تخفيف مركزية الادارة قد طرحت في جميع البلدان .

حاول الاتحاد السوفييتي ان يوجد حلا لهذه المشكلة باتباع طريقة معرونة تحدثت عنها الصحافة العالمية وهي تقسيم الوطن الى مناطق او وحدات ارضية Organistion Territoriale وقام الاتحاد السوفييتي بتجارب متنوعة . وذهب بعيدا مع تطبيق مبدأ تخفيف المركزية على مئات الوحدات الارضية التي اطلق عليها اسم « مجالس الاقتصاد القومي » . ومنذ وقت قريب لجأت السلطات هناك الى اسلوب الدمج وانقصت عدد الوحدات المذكورة حتى الربع ، ولكن مع المحافظة على التنظيم المناطقي ( نسبة الى كلمة منطقة او وحدة ارضية ) في ادارة الاقتصاد القومي . والفكرة الرئيسية هي دوما التخطيط المركزي ، ولكن ضمن اطـار ادارة — اي تنفيذ الخطط — اكثر او اقل مركزية .

كذلك فعلت ، مبدئيا ، بولونيا ، مع الملاحظة ان اساس التنظيم الجديد لم يكن قائماً على مبدأ التقسيم الى وحدات ارضية . واذا كان الاتحاد السوفييتي قد اتبع الطريقة المذكورة ، فاعتقد ان ذلك يعود الى سعة امتداده الجغرافي . ولكن المشكلة لا تطرح بالشكل نفسه في بولونيا . فبلدنا ليس بذي امتداد جغرافي واسع . وعلى هذا فقد طبق مبدأ التخفيف من المركزية بزيادة استقلال المؤسسات والادارات الصناعية ، كصناعة الفحم ، وصناعات الكيمياء وغيرها من الصناعات الخاصة . وقد اتبعت مبدئيا طريقة مشابهة في تشيكوسلوفاكيا ، اي ان النزوع نحو اللامركزية طبق تبعا للمؤسسات الصناعية وليس على اساس جغرافي . ومع ذلك فقد كان هناك فارق : وهو انه لم يكن المشروع الفردي اساس النزوع نحو اللامركزية ، بل بالاحرى تجميع بعض المؤسسات التابعة للصناعة ذاتها . وقد اتبعت في البلدان الاخرى طرائق مختلفة في تفاصيلها ، ولكن الفكرة الاساسية هي ذاتها .

أما في بولونيا ، لاعطاء مثال علمي ، فقد زيد من استقلال المؤسسات بأن ترك لها شأن التقرير في اختيار الانتاج والقيام ببعض التثميرات المستقلة . وللوقوف عند هذا المثل عن بولونيا ، نقول ان التثميرات الرئيسية للمؤسسة أو المشروع تكون محددة في الخطة المركزية ، أما وضعها المالي فيكون تحت شكل هبة من خزينة الدولة الى المشروع . ويملك المشروع امواله الخاصة التي يمكن له استعمالها لتمويل التثميرات الاضافية التي لا يكون فيها إذن مسبق ، كما انه يتمكن من تحقيق تثميرات يجري تمويلها من قروض مصرفية . على كل فان الفكرة الاساسية تقتضي تحقيق التثميرات الرئيسية — لنقل ٧٠ ٪ حتى ٨٠ ٪ من مجموع حجم التثمير — الوارد تحديدها وحصرها في الخطة المركزية ، وبقدر كافي لتحديد توجيه تنمية الاقتصاد القومي . ومن ثم يعمد الى تنفيذ باقي التثميرات تحت شكل تثميرات مستقلة تقوم بها المؤسسات ذاتها ، الأمر الذي يؤمن مرونة في النظام الاقتصادي المتبع .

وقد لاقى هذا التنظيم صعوبة لدى التطبيق العملي . واذا كان التنفيذ قد اتسم بصفات مغايرة فان المبدأ المذكور هو الذي تم اتباعه .

أما القضية الثانية المتعلقة بالانتقال من مرحلة من مراحل النمو الاقتصادي الى اخرى ، فهي القضية المتمثلة بوسائل تنفيذ الخطط .

ويميز المختصون في بولونيا ، وبصورة عامة ، بين نموذجين من الوسائل : الادارية والاقتصادية . ونعني بالوسائل الادارية التوزيع المباشر المادي للتثميرات ، وللمواد الاولية ، ولمختلف المهام المتعلقة بالانتاج ، أما بالوسائل الاقتصادية فنقصد استخدام الدوافع الاقتصادية المراد بها ضمان كون المؤسسات او بقية وحدات الاقتصاد القومي تعمل طبقاً للطريقة المطلوبة في الخطة .

ونوقش كثيراً في بولونيا وبقية الدول الاشتراكية موضوع اعطاء الافضلية للوسائل الادارية أم الوسائل الاقتصادية . وكادت الوسائل الادارية ان تكون المهيمنة في الفترة الماضية . وبغاية المعارضة ، اقترح البعض الاستغناء التام عن الوسائل الادارية في ادارة الاقتصاد القومي .

واتفق في نهاية الامر على ان قضية اولوية الوسائل تتعلق بالظروف والشروط القائمة ، وانه يجب الاخذ بهذه الوسائل او تلك ، تبعاً للضرورات . فالقضية الاساسية في تسيير الاقتصاد الاشتراكي تقتضي اذن تنسيق طريقة الأخذ بهذه الوسائل وتلك ، وتجنب الحالات — حالات لابد من وجودها — التي تجعل المؤسسات ، عندما تأخذ بالوسائل والدوافع الاقتصادية ، تعمل بصورة مغايرة للتوجيهات الادارية التي اتخذتها الادارة المركزية . وجملة القول ، لعل القضايا المتعلقة بالوسائل الاقتصادية وبتنسيق الدوافع الاقتصادية مع الاوامر الادارية والمهمات المطلوب تنفيذها بموجب الخطة ، تبقى القضايا الرئيسية اليوم في مجال تسيير وادارة الاقتصاد الاشتراكي .

وتمثل مسألة تحديد الاسعار في الاقتصاد الاشتراكي أحد وجوه القضايا المذكورة . ويجري النقاش أكثر فأكثر حول هذه المسألة في سائر البلدان الاشتراكية التي اتحدث عنها هنا . بل يمكن القول أن مسألة تحديد الاسعار هذه تحتل لب المناقشات الاقتصادية ، فما هي الاسس التي يمكن الأخذ بها لكي يجري تحديد الاسعار في الاقتصاد الاشتراكي ؟ وكيف يجب تحديدها لكي تلعب فعلا دور الدافع او الحافز في مجال التنمية الاقتصادية ؟ لن اتعرض هنا الى مناقشة هذا الموضوع ، ولكن أكتفي بالاشارة الى ان المساجلات حوله كثيرة .

وهناك وجه آخر للقضايا المذكورة ، ويتمثل بضوابط فعالية ونشاط المشروع أو المؤسسة الاشتراكية . فهل يمكن الأخذ بمؤشر واحد ، أي الربح ، للدلالة على نشاط المنشأة الاشتراكية ،

أم يجب الأخذ بضوابط ومؤشرات اخرى ذات طبيعة مادية ( كحجم الانتاج أو عدد العمال الذين يجب استخدامهم . الخ ) وجرت مناقشات طويلة حول هذا الموضوع أيضاً ، ولكن دون التوصل الى رأي مقبول بشكل عام . وترتبط هذه المسألة ارتباطاً وثيقاً بقضية تحديد الاسعار. إذ ان هؤلاء الذين يرفضون اعتبار عامل الربح كمؤشر وحيد للدلالة على نشاط المنشأة أو المشروع الاشتراكي ، يقولون ان هذا المؤشر يقود المشروع المذكور الى انتاج سلع بشكل مختلف عما تتطلبه الخطة . ولكن ماينحقق هو مايلي : إذا ماتوفر نظام ملائم للاسعار ، أمكن التأكيد أن المنتجات المطلوبة بصورة اولوية في الخطة تكون المنتجات الافضل بالنسبة للمشروع . وهكذا نرى كيف أن مسألة اعتبار عامل الربح كمؤشر لقياس نشاط المؤسسة او المشروع ترتبط جذرياً بمسألة نظام الاسعار .

وبصدد الحديث عن التغيير في طرق التخطيط وادارة وتسيير الاقتصاد الاشتراكي ، لابد من أن اضيف باختصار ان البلدان الاشتراكية لم تتعرض فقط لتحولات في بنيانها الاجتماعي . ففي البداية كانت بلداناً اكثرية سكانها من الفلاحين . ولكن التصنيع زاد عدد اعضاء الطبقة العاملة . على ان هذه الطبقة ، بسبب كون أصل أعضائها من الفلاحين ، حافظت على كثير من العادات الاجتماعية والنفسانية بل وحتى السياسية التي يتميز بها الفلاحون . ثم أخذت هذه الطبقة تنضج وتندمج اكثر فأكثر في الحياة الصناعية للمجتمع . الأمر الذي أدى الى طرح قضايا اجتماعية جديدة في مجال ادارة الاقتصاد الاشتراكي ، بحيث كانت القضية الأساسية هي المتعلقة بمساهمة العمال في ادارة المشروع ، وبالتسيير الذاتي او الادارة الديمقراطية العمالية في القطاع الصناعي .

وتجلت هذه المشكلة بشكل جلي في بلد كبولونيا عام ١٩٥٦ . وقطع الاتحاد السوفييتي شوطاً بعيداً حالياً في هذا المجال . يبدو لي ان هذه المشكلة تطرح في بدء التنمية ، وذلك لان نضج الطبقة العاملة وتبلورها وشعورها بوجودها ستؤثر تأثيراً كبيراً على تطور ادارة مختلف نماذج الاقتصاد الاشتراكي .

وخلال هذه المرحلة ظهر عامل مهيمن وهو نمو طبقة مفكرة اشتراكية جديدة Intelligenzia تتألف من : المهندسين ، والمدراء ، والمدرسين ، والمختصين في البحوث العلمية . وهذا من شأنه أيضاً أن يؤثر على تطور طرق ادارة وتسيير الاقتصاد الاشتراكي .

وجملة القول أنه بالقدر الذي تتدرج فيه الطبقة العاملة نحو زيادة الشعور بوجودها ومسؤوليتها وبدورها ، يتحقق نزوع نحو ديمقراطية الادارة بمساهمة متزايدة فيها من قبل العمال . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الفئة المثقفة أو المفكرة تصبح رائدة فعالية الاقتصاد الاشتراكي واستخدام الطرق القائمة على التطورات العلمية الحديثة : كجعل التخطيط يعتمد على المعادلات الرياضية ، وتنظيم الادارة وفق أحدث الوسائل التقنية .

ولا زال الوقت مبكرا للتحدث عن كيف يمكن لهذين العاملين الاجتماعيين اللذين عرضتهما بشكل مبسط أن يؤثرا على سير نمو الاقتصاد الاشتراكي .

ولنلاحظ أخيراً أن نمو الاقتصاد الاشتراكي يطرح أكثر فأكثر قضية التعاون الاقتصادي بين الدول الاشتراكية . كذلك فان التصنيع يطرح أكثر فأكثر اليوم ، وفي أغلب البلدان الاشتراكية ، قضية التجارة الخارجية بوجهيها الاستيراد والتصدير . ولا بد من الملاحظة ان هناك فروقاً في هذا المجال بين الاتحاد السوفييتي وبلدان الديمقراطيات الشعبية في اوربا . فالاتحاد السوفييتي رقعة جغرافية شديدة الاتساع ،غنية بمواردها الطبيعية المتنوعة ، بحيث أن قضية التجارة الخارجية لاتشكل بالنسبة له معضلة عويصة بالدرجة التي تكون عليها بالنسبة لبلدان الديمقراطيات الشعبية التي هي أصغر حجما بكثير ، والتي لاتملك تنوعا في ثرواتها ، كما أنها ترتبط أكثر فأكثر بحاجاتها الاستيرادية . فبولونيا تنفق ٣٠٪ من دخلها القومي على الاستيراد ، وتنفق كل من تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا أكثر من ذلك . وهذا من شأنه أن يطرح مسألتين : مسألة العلاقات الاقتصادية بين البلدان الاشتراكية ، ومسألة العلاقات بين هذه البلدان والعالم الرأسمالي. سأقتصر هنا على معالجة المسألة الأولى فقط . فقضية التعاون بين البلدان الاشتراكية تتمثل في تنسيق خطط التنمية فيها . فمنذ حوالي أربع سنوات كان تنسيق الخطط القومية الانمائية بين مختلف البلدان الاشتراكية يجري بطريقة غير مباشرة ، بالاتفاقات التجارية ذات الأمد الطويل . وكانت توقع اتفاقات خماسية ( خمس سنوات ) تستخدم كأساس للتخطيط ، ذلك لأنه يجب أن يعتبر جزءاً من التخطيط انتاج السلع التي تم الاتفاق على تصديرها ، كذلك بالنسبة للمستوردات التي ينتظر الحصول عليها من بقية البلدان الاشتراكية .

ولكن هذه الطريقة في التنسيق غير المباشر لم تعد كافية اليوم . انها لاتتلاءم مع درجة النمو الذي بلغته اقتصاديات البلدان الاشتراكية .

لذلك اصبح من الضروري اليوم الانتقال الى مرحلة من التنسيق المباشر بين الخطط :اي تنسيق السياسات التثميرية بالدرجة الاولى . ايجب ان تنتج بولونيا السيارات اذا كانت تنتجها تشيكوسلوفاكيا ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، ماهو النموذج الذي ستقتصر تشيكوسلوفاكيا على انتاجه ؟. وهكذا فقد توصلت البلدان الاشتراكية مؤخرا ، ضمن اطار مجلس التعاون الاقتصادي المتقابل ( الكومكون ) ، الى تنسيق سياساتها الانمائية بحيث صيغت خطط انمائية تمتد زمنيا عشرين عاما ، حتى عام ١٩٨٠ ، كما انه تم تنسيق هذه الخطط على اساس من الاتفاقات المتقابلة باشراف هيئات مختلطة بالنسبة لمختلف عناصر التنمية الاقتصادية — توليد الطاقة الحرارية ، صناعة الآلات ، الصناعات الكياوية ... الخ — ولبعض القضايا العامة ،

وذلك بهدف السير خطوات واسعة في مجال تقسيم العمل بين البلدان الاشتراكية الاعضاء في ( الكومكون ) . وبالاضافة الى الاتفاقات العامة حول التعاون بين البلدان الاعضاء ، ستوقع ايضا اتفاقات بين بلدين او اكثر ضمن اطار مجلس الاتفاقات الخاصة في مجال التعاون . والهدف من ذلك بصورة خاصة تطوير صناعة الآلات والمعدات ، ومن ثم الصناعات الكيماوية . وطرحت فكرة تنظيم تعاون كهذا بين بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية . وتبعا للظروف ، يمكن ايضا توقيع اتفاقيات خاصة مختلفة .

ان الهدف من هذا التخصص هو بالدرجة الاولى زيادة الانتاجية ، وتخفيض كلف الانتاج . ويلاحظ اتجاه لاقامة مشاريع مشتركة بين بلدين اشتراكيين او اكثر ، ولكن هذا الاتجاه مازال في خطواته الاولى . وكمثال على مثل هذه المشاريع هناك انابيب النفط الذاهبة من الاتحاد السوفييتي عبر بولونيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا لتبلغ المانيا الديمقراطية . ولكنه ليس بالمشروع المشترك بالمعنى الدقيق للكلمة لان التشييرات في كل بلد يقوم بها البلد نفسه . فالعملية لاتخرج عن كونها تنسيقاً لعمليات تشييرية تبعا لبرنامج مشترك . اما المشروع المشترك فعلا فيتمثل بالمصرف الذي هو قيد الانشاء ، والذي سيقوم بتمويل المشاريع المشتركة بين مختلف البلدان الاشتراكية .

ان زيادة التعاون بين البلدان الاشتراكية لا تعني اتباع سياسة حماية ضمن اطار البلدان الاشتراكية . ولعله من الجدير الاشارة الى نقطتين تفصيليتين هنا : فالمصرف المذكور سيمنح ايضا قروضا للدول الاعضاء في الكومكون من اجل زيادة العلاقات التجارية مع البلدان غير الاشتراكية بايجاد صندوق مشترك للعملات الاجنبية . وهناك مشروع للتعاون في المجال الصناعي الخاص بانتاج الآلات والتجهيزات بين بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية . والهدف الرئيسي من هذا المشروع تخفيض كلفة الانتاج ، ذلك لان كل بلد سيتمكن من الانتقال من انتاج عدد كبير من النماذج المختلفة للآلات الى انتاج اكثر تخصصا ولكن على نطاق اوسع . وتخفيض التكاليف يتجاوب مع اسباب داخلية حالية ، ولكنه يمتاز ايضا بكونه يسهل عملية تصدير التجهيزات والآلات الى الدول غير الاشتراكية .

يستدل من النقطتين المذكورتين ان تنمية التعاون بين البلدان الاشتراكية لا يقصد منه خلق جو من الحماية داخل اطار الدول الاشتراكية . بل القصد منه زيادة الانتاج والدخل القومي ورفاه الشعوب الاشتراكية . ولا تخرج زيادة العلاقات الاقتصادية مع البلدان غير الاشتراكية عن الاهداف المذكورة ، اذ ان التعاون الدولي هو ـ وسيظل دوما ـ عامل اساسي ومهيمن في مجال تطور الاقتصاد الاشتراكي .

# في العلوم الحديثة

للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (*)



قال اميل بوترو بحق عام ١٩٠٧ ، وقد احس بما تنطوي عليه الفيزياء الحديثة من نتائج لا تقدر ! « يظهر ان العقل يسير من الكلي الى الجزئي » . فلم يكن لهذا الكلام اي صدى لانه سابق لاوانه . لكن العلم يغـــذ السير . فاذا بنتائجه اليوم تسوق الى هذا السؤال : « ايهما هو موضوع المعرفة : الكلي ام الجزئي ، العام ام الخاص ؟ » .

ان هذا السؤال يفجع بدون شك رجال الفلسفة التصورية القديمة التي تؤكد الا علم الا

(*) استاذ الفلسفة بجامعة بيروت العربية

للكلي ، للقانون ، للعام ، واما الخاص واما الجزئي فلا اهمية له ولا وزن. فالمعلوم منذ عهد ارسطو ان الوقائع الجزئية لا قيمة منطقية لها الا بمقدار ما تنضوي تحت تصور عام وقانون كلي تجتمع فيه خصائصها المشتركة كلها .

لا جرم ان هذا الرأي التقليدي لا يخلو من فائدة . فهو خير معوان لنا على تصنيف المعلومات وتوحيد المعارف ، ولكن ذلك يكلف غالياً ، لان فيه تضحية بالاحوال العينية للواقعة واغفالاً لما يجعلها هي هي ويحققها في الزمان والمكان .

لقد كانت الحماسة لتقنين الظواهر الطبيعية كبيرة جداً ، وتسلح العلم بالرياضة فاكتسح شيئاً فشيئاً جميع ميادين الفيزياء والكيمياء ، واتجه صوب العالم الحي يعني النفس باخضاعه لهذه الحتمية الصارمة ، بل لقد امتد الى سلوك الانسان يريد غزوه لهذه الحتمية .



ويستوي في ذلك جميع الفلاسفة تقريباً ، من عهد اليونان حتى العصور الحديثة ، من ارسطو حتى ديكارت واسبينوزا وكنط وهيغل واوغست كومت واصحاب المنطق الرمزي ، وكان العلماء احرص من الفلاسفة على توكيد هذه المسألة . فالجزئي في نظرهم انما هو حدث عارض ومرحلة من مراحل وضع القانون لان القانون وحده يمكنه ان يعبر عن الحتمية التي يقال ان العلم لا يتحقق الا بها . وهكذا شطبت الحتمية اسم الجزئي من سجل الوجود مع انه لا وجود الا به .

ولكن هذه الحال لم تـــدم طويلاً ، فلقد وقعت ازمة في بعض العلوم ادخلت الشك في صحة المبادىء العقلية ذاتها واعادت الاعتبار الى الوجود العيني للاشياء ، اي وجودها الجزئي المتحقق في الزمان والمكان .

وجاءت اشارة الخطر الاولى من النظرية الحركية للغازات . فلقد ظهر ان القانون بمعناه الحقيقي المطلق لا ينطبق انطباقاً تاماً على ضغط الغازات : فمن الصعب

ضبط النظام في عالم لا تعرف اجزاؤه النظام . ومع هذا فقد ظن التزمتون ان الشذوذ محصور في النازات وان من الممكن التغلب يوما ما على هذا « اللامعقول » (على لغة مارسون) .

وجاءت الضربة الثانية من العالم على صعيده الادنى ، عالم ما تحت الذرات . فالظواهر في ذلك العالم تتمرد على القانون وتأبى الخضوع للنظام . واذا كان هذا التمرد لا يمكن الشعور به في العالم على صعيده الأعلى ، اي عالمنا نحن ، عالم الحواس ، فهي مع ذلك تدخل نوعاً من الشذوذ والاختلال في هذا العالم ، وهذا ما حدا بأميل بورال وغيره من اقطاب الرياضة والفيزياء الى القول بان القانون الطبيعي ليس له غير درجة عالية من الاحتمال ، وان وجود فرق طفيف بين ما رسمه وما هو واقع بالفعل شيء لا بد منه كأنه ضربة لازب وكذلك فقد نظر الى القانون على انه ظاهرة احصائية ، على انه مسألة معدلات ومتوسطات ، ونتيجة لوقائع فردية لا حصر لها ، وانه لا يحكم الظواهر بل ان الظواهر شرط له .



ويأتي هيزنبيرغ عام ١٩٢٥ فيثبت أن مسار الإلكترون لا يمكن اخضاعه للملاحظة . فمن المستحيل أن نحدد في وقت واحد معاً حالته الديناميكية وموضعه في المكان : فاما أن نحدد هذا أو تلك ، فتحديد كل واحد منهما يكون على حساب الآخر . وهذا يؤذن من جديد بانهيار الحتمية التي لا تقيم وزناً للفرد أو الجزء ، والتي تقوم على امكانية التنبؤ بظواهر الطبيعة وتزعم أن التنبؤ مسألة حسابية محضة فالفرد أو الجزء هنا قد أفلت من عقال الحتمية ولا يمكن حشره في اطار القانون. هذا ، ولا يرجع عدم امكان تحديد الأمرين معاً (الحالة الديناميكية ، للالكترون وموضعه في المكان) الى عجز الأجهزة العلمية عن القيام بذلك ، بل هو نتيجة حتمية لطبيعة الأشياء . ذلك بأن « الاضاءة » التي تمكن من تحديد موقع الالكترون

اما أن تكون طاقة فوتوناتها قوية فتبلبل الحركة الديناميكية للالكترون ، واما أن تكون طاقتها ضعيفة فيستحيل تعيين موضعه . فكل كسب في الدقة في الحالة الديناميكية للالكترون يتم على حساب تحديد موقعه في المكان والعكس صحيح أيضاً .

فكل هذه الوقائع وكثير غيرها تظهر لنا أهمية الجزء أو الموجود العيني التي تزداد يوماً عن يوم وترينا كيف كان العلم الحتمي يعمل في عالم المجردات وكيف أن الجزء ، أي الوجود الحقيقي ، لم يكن له من وزن ، مع أنه لا وجود إلا له .

واذا كان ذلك شأن القانون في ميدان الفيزياء وكان الجزء يصعب ضبطه فيه ، فمن الطبيعي أن يكون ذلك أشد صعوبة في ميدان علم الحياة . فشخصية الجزء هنا أشد ظهوراً منها في الفيزياء ، وعلم العام أكثر تقلصاً .

ويمكننا ان نوغل في هذا المعنى ونؤكد اهمية الكائن العيني الحقيقي من زاوية اخرى . فالمعلوم ان الحتمية تعتمد على العلية ( السببية ) الخارجية . ومؤداها ان ظاهرة ما تكون علة لاخرى اذا سبقتها في الزمان . فهي مظنة ان تنقل الى المعلول قوة خفية من شأنها ان تحدث فيه تغييراً . ان عملية النقل هذه لا يزال امرها مستغلقاً حتى في ابسط الامور : ظاهرة التصادم . فالعلماء يجهلون مثلاً كيف ان حركة الجسم الصادم تنقلب الى حركة الجسم المصدوم ، ومع هذا فيؤكدون ان الاولى علة للثانية .

ولقد اقترح الفيلسوف البولندي جاكو بزياك ( ١٨٨٤ — ١٩٤٥ ) ان يستعاض عن التصور البراني للعلية تصور جواني ، مؤداه ان سبب الحركة وسبب كل تغير في اي جسم كان انما يجب البحث عنه ليس خارج هذا الجسم وانما في باطنه ، في طبيعته الخاصة . فالجسم نفسه ينطوي في تضاعيفه على جميع علل

وجوده وكل اسباب حركته . فكل علة انما تنبع من باطن الجزء . فلا نتكلم بعد اليوم عن الحتمية الصارمة التي تنكر الحرية وتضيع فيها الخصائص الفردية ، ولا عن اللاحتمية الفوضوية ، بل عن الحتمية الذاتية التي تنبع من صميم الجزء و تلح على تفرده وخصوصيته .

ولئن كان هذا التصور الجديد للعلية يرتطم ببعض الصعوبات في العالم الفيزيائي فهو بادي الظهور في العالم الحي . فالخلية الحية أكثر تعقيداً من الذرة ، والخلاف بينهما في الدرجة لا في النوع .

فاذا كانت غاية العلماء معرفة الواقع الحقيقي ، فيجب ان يتخلوا عن الحكمة القديمة القائلة بألا علم الا للكلي ، الا للعام . فالعام يصدق بالجملة ، ولكنه عاجز عن تفسير الخاص تفسيراً أميناً .

نحن لا ننكر اهمية معرفة العام في جميع الميادين ، ولكننا ننكر ان يستأثر وحده بتفسير الحقيقة . فالعام والخاص لا بد من تعاونهما معاً ، على الا يكون العام سيداً بل يجب ان يظل مسوداً ، فالعام لما كان طابعه التجريد ، فهو بطبيعته وبحكم تعريفه عاجز عن إقتناص الجزئي من حيث هو جزئي وتفسيره . فهـــو يمكنه توجيه الابحاث وتقديم نظرات عامة ، ولكن ما يقوّم الجزئي ويجعله هو هو لا يقع في قبضته ابداً ، مع ان هذا الجزء هو وحده الحقيقي وهو وحده الذي يتمتع بالوجود .

# لغة العلوم

نشرت ( المعرفة ) في العدد ٤٧ بحثاً قيماً للطبيب الدكتور بشير العظمة حول لغة تدريس العلوم في الجامعات العربية . وقد أثار البحث عدة نقاط هي موضـوع أخذ ورد بين المثقفين . وقد طرحت (المعرفة) هذا الموضوع للحوار الفكري. فجاءها من الطبيب الدكتور أحمد شوكت الشطي الاستـــاذ في كلية الطب ، تعليق على الموضوع ، كما أثار بعض وجهات النظر حوله، الطبيب الدكتور سلمان قطاية ، الزائر في المغرب حالياً . ونحن إذ ننشر رأيي الدكتور الشطي ، والدكتور قطاية ، نرجو أن يبقى الباب مفتوحاً لآراء المثقفين العرب، حول اللغة العربية والعلوم الحديثة .

## الدكتور احمد شوكت الشطي – دمشق

نشرت المعرفة الغراء مقالاً ممتازاً للزميل الدكتور بشير العظمة عن اللغة العلمية في جامعات البلاد العربية وعلقت عليه داعية الى تبادل الآراء في هذا الموضوع الخطير فرأينا من الواجب الاستجابة الى هذه الدعوة ومعالجة بعض نواحي قضية اللغة الرسمية في جامعات البلاد العربية والتساؤل عن بعض مشاكلها والاجابة عنها حسب مايتراءى لنا .

أولاً – هل يجوز أن نأخذ بما قررته لجنة الخبراء الاجانب التي أوصت على مايقال بصراحة تامة وباجماع الآراء على ضرورة تعليم الطب في حلب باللغة الانكليزية ؟

الجواب – كلا . وانا نرى في ذلك ازراء باللغة العربية لاتستحقه آتياً من غريب ونستغرب أن نجده أو يقول به مواطن أريب . إنها لاتستحقه من غريب لأن على هذا يوم استشير أن يرجع الى تاريخ هذه اللغة وسعة انتشارها في عهد ازدهار الحضارة العربية ، وتفضيلها من قبل روادها من غير العرب على لغات بلادهم ، وترجيحهم الكتابة بها والتأليف فيها على الكتابة والتأليف بلغتهم الاصلية ، ولقد كان من واجب هذا الغريب أيضاً أن يتذكر ماشعته الحضارة العربية من أنوار أضاءت بها العالم كله حيناً من الدهر وأن يتذكر أيضاً أن الحضارة الحديثة في كثير من نواحيها نبت الحضارة العربية وبنتها ، اقتبسها الغربيون من الجامعات العربية ومن أساتذتها العرب دون أن يخطر في بال واحد منهم أن يحل العربية ، محل لغة البلاد الأصلية مع ضيقها وبعدها عن محاكاة الروح العلمية في ذلك الحين ، كما أن تجربة التدريس باللغة العربية في كلية الطب الدمشقية في عصرنا

الحاضر آتت ثمارها بتوزع متخرجيها في جميع البلاد العربية ، وإشغالهم فيها مناصب علمية سامية وثبوت موازاتهم متخرجي الجامعات الأجنبية ، ان لم نقل افضليتهم على كثير منهم ، وتصنيف بعضهم في بلاد غربية ماسكة بكسب السبق في العلم، فئة مختارة من نوعية ممتازة ، جديرة بتلقي الدراسات العليا للابحاث ، قادرة على تحمل العمل المرهق الواسع المسؤوليات من أجل بلوغ هذا الهدف . يضاف الى هذا كله ان اللغة العربية لغة رسمية في بلاد شاسعة عظيمة، تشغل أرجاء واسعة في قارتين عظيمتين وانها موضع احترام وتقدير واعجاب لدى شعوب تعدُّ مئات الملايين . وهكذا يبدو لنا ان تاريخ اللغة العربية لينبذ هذا التفكير ، وان ماضي الحضارة العربية ليأنف من هذا الاتجاه ، وان عمل كلية الطب الرائد في دمشق ليدحض الادعاء بعجز اللغة العربية عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة ،وان انتشارها الواسع وتقدير مقامها الرفيع في كرتنا الأرضية ليحتم علينا الاستفادة من قيمتها التي لا تحلم بها لغات تنافسها في الذيوع والانتشار ، ولكن ليس لها من الأصالة ما للغة العربية الشريفة .

ثانياً — هل من مواطنين في سورية يقولون بتدريس العلوم ومنها الطب بلغة أجنبية ؟

الجواب — لاشك أن هذه الفئة موجودة ولكن أفرادها قليلون جداً في سورية. وهم فريقان فريق صاحب رأي يكابر فيه . وفريق مؤلف من أناس لا تعادل خبرتهم اللغوية معارف مجاز بكفاءة او مجتاز شهادة ابتدائية ، ولو كلف هؤلاء انفسهم بعض العناء في التعرف على لغة بلادهم لتذوقوها وعادوا من انصارها وانصار التدريس بها .

ثالثاً — ما هو موقف العلماء المواطنين من هذه القضية في البلاد العربية الاخرى ؟

الواقع ان الامر يختلف في سورية عما هو عليه في بلاد عربية اخرى ، فلقد وُجدت في بعضها كليات فرض التدريس فيها بلغة انكليزية فنتج من ذلك وجود هيئة مُدرّسة أَلِفت التدريس بتلك اللغة واخذ فريق منها يلقن نفسه تلقائيا عدم استطاعة اللغة العربية لمسايرة الركب العلمي فأصبح خصماً للتدريس بها عاجزاً عن الافلات من الاغلال التي قيدتها نفسه ، انها خصومة غريبة وأمرها عجيب ، لانها ليست وليدة سوء نية او انحراف قصد ، انها خصومة لا شعورية ترتد الى خوف من التجربة او الى جهل باللغة او الى انانية مفرطة حالت دون تضحية الخصم بالوقت اللازم لسد نقائصه في معرفة لغة بلاده ، او التوسع فيها ونبش كنوزها او الى تقززه اعتراه من التمادي في المزاودة والمناقصة بهذا الموضوع وفقدان التنسيق فيه ، على أن فريقاً آخر يضم الاكثرية جرب فنجح وعاد من انصار التدريس باللغة العربية او وقف ينتظر عملاً حاسماً تقوم به جهات مسئولة عربية تضع الامور في نصابها وتزيل البلبلة التي لحقت بالمصطلحات ، واختلاف الآراء في صلاحها وتفضيل بعضها على بعض .

رابعاً — هل الأجنبي من مصلحة في عزوف العرب عن التدريس بلغة بلادهم ؟

انني لا اشك في ذلك مطلقاً ودليلي المقاومة العنيفة التي لقيتها اللغة العربية يوم تسلط الاجنبي على مصر ، فلقد كانت العربية لغة التدريس في مدرسة ابي

زعبل — قصر العيني فيما بعد — اول كلية طب وجدت في مصر فأتقن اساتذتها الاجانب اللغة العربية وألفوا فيها وتحمسوا لها ، وكانت مصر في تلك الفترة سيدة نفسها وما ان تبدل الحال وتسلط الاجنبي عليها حتى رأى في دعم اللغة العربية ما يهدد كيانه فاحكم الخطة للقضاء على اللغة وسط مقاومة عنيفة انتصر فيها للغة الرجال والنساء بينهن مي زيادة فكانت لهم اقوال رائعة تميّز من بينها قصيدتان احداهما لشاعر النيل حافظ ابراهيم والثانية لخليل مطران بنعيان فيها حظ العربية من اهلها وكان السبب في ذلك ان الاجنبي استعان ببعض المواطنين لتنفيذ مآربه فسبقوا الاجنبي فيما يتطلع اليه وتفننوا في اساليب التملق له فتنكروا للغة العربية تنكرا تُظهر بعض الأبيات صوره ، من ذلك قول حافظ ابراهيم على لسان اللغة .

انا البحر في احشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة ... وكم عز اقوام بعز لغــــات

وقول خليل مطران :

سمعت الضاد قـــائلة أأنعى ... وهذا موطني والأهل أهلي
بنيـــات الحمى ، بيّن اني ... عزيزة أمتي لم ينس فضلي
ويا فتيـــانه هبوا لنصري ... عقوق مساءة وعقوق جهل

وما أن تولى زمام ادارة الكلية الطبية في مصر مدراء أجانب حتى جعلوها بريطانية انكليزية أكثر مما هي عربية مصرية فساد التدريس باللغة الانكليزية مبدأ قنع به بعض الأطباء المصريين حتى عهد قريب . ولقد انقلبت الآية الآن وسوف لاتمضي سوى سنوات معدودة حتى تصبح لغة التدريس العالي في مصر عربية

وكذلك الأمر في العراق . وأما بلاد المغرب العربي فانها تتمخض لاحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية .

خامساً — ماهي أزمة المصطلحات العلمية العربية ولا سيما الطبية منها وما هي قضيتها ؟

صاحبت قصة المصطلحات العربية في الطب والصيدلة اليقظة الفكرية في البلاد العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، والغريب في الأمر انها بدت بسيطة ثم أخذت تتعقد حينا بعد حين حتى جعلها كثرة البحث فيها محاطة بالأشواك لا يعد لها الباحث يده دون أن يجد مايخزه منها، مع أن تبسيطها يسير، اذا صحت النية وحسن التخطيط وابتعد عن التفاصح وأبعدت اللجان العديدة وعهد بالأمر الى أيد محدودة.

قلت انها بدت بسيطة ، لأن مدرسة قصر العيني استطاعت بعدد محدود جداً من المترجمين ، ونخبة ممتازة من رجال اللغة الذين أحسن اختيارهم ليكونوا مصححين أو مراجعين فاخلصوا النية وعقدوا العزيمة فساهموا في تهذيب اللغة في عدد من الكتب بالآلاف ، تعد في زمانها اذا ماقورنت بمثيلاتها من الكتب الغربية معادلة لها اتقاناً في الطبع وحسنا في الايضاح وبساطة في اللغة مع فصاحة حقيقية.



وكان جهد أساتذة الكلية الأميركية الأول في بيروت أيضاً موفقاً في انتقاء المصطلحات العربية ، فقد كان لفان دبك ولا بنه ورتبات معرفة بدخائل اللغة العربية وتعمق فيها وولع بها يحاكي ولع اللغويين من أبنائها الذين عاشروهم وصادقوهم وتتلمذوا عليهم لا بل عايشوهم معايشة كاملة . وهكذا وضع هؤلاء الأساتذة كتبا باللغة العربية زودوها بالمصطلحات اللازمة .

ثم جاءت بعدئذ كلية الطب بدمشق فاحتضنت اللغة العربية العلمية وأنحت باللائمة على الجاحدين بها وكأنها خاطبتهم بقولها: « نسبوا اليك العجز عن الابداء والتقصير عن الافهام وما أنت العاجزة القاصرة وانما هم العاجزون القاصرون، ليتهم أحبوك عشر ما أحبك البيروني الفارسي الأصل الذي يؤثر عنه قوله: «انه لأحب الي أن أهجى بالعربية من أن أمدح بالفارسية» .

لقد نمت اللغة العربية فيا مضى من الزمن، بالاشتقاق والمجاز والتعريب والنحت والتركيب أفليس من الممكن أن تنمو اليوم بعد تطور العلوم بهذه الوسائل نفسها؟

ولقد خدمت المجامع العلمية اللغوية في بلاد العرب اللغة العلميـة خدمة تذكر على أن نقاد هذه المجامع من اعضائها وغيرهم يرون ان خدمتها للغة العلمية ومنها الطبية لا تتناسب مع كفاءة العاملين فيها وما خصص لها من موازنات مالية واسعة، وما تستطيع ان تعمله لو وضعت تخطيطا تباشره وتنفذه. واننا على ضوء اختباراتنا في كلية الطب بدمشق، وبحوثنا الشخصية نسمح لانفسنا بالقول ان اكثر ما وضع من الالفاظ صالح لاغبار عليه وقد فرضه استمرار استعماله. ولا يعني ذلك عدم جواز تبديله اذا وجد ما هو اصلح منه، فان بين الالفاظ الموضوعة ما لا بد من تبديله، كما ان هنالك اعدادا ضخمة من التعابير الحديثة والالفاظ الجديدة، تحتم اللجوء الى التعريب والتركيب لوضع ما يقابلها على ان يكون التعريب منسجما مع الذوق العربي، وان تكون نتيجة التركيب غير نابية على الاسماع، لا تبتعد الكلمة المركبة عن اصلها او اصولها، فان لم يتحقق ذلك جاءت عبثا جديدا على النشء واللغة.

ويبدو لي ان تنفيذ الاقتراحات الآتية يساعد على حل ازمة المصطلحات وشطط التفاصح فيها .

آ — تأليف لجنة من عدد محدود من المشتغلين بالمصطلحات الطبيـــة وتوحيدها على ان ترتبط بجامعة الدول العربية .

ب — تعتمد هـذه اللجنة المعاجم الطبيـة التي سبق وجودها في البلاد العربية .

ج — يطلب من المؤلفين في العلوم الطبية في البلاد العربية التقيد بما جاء فيها من الفاظ عدا المركبة منها ، التي اشتط فيها شططا ابعدها عن الذوق العربي وجعلها في نظرنا عبثا على اللغة العلمية . ولا نقصد بذلك اغلاق الباب دون استعمال المؤلفين كلمات افضل مما جاءت في المعاجم الموجودة لان عددا من الكلمات الواردة فيها جديرة بالنقد وفي اللغة ماهو اصلح منها .

د — لابد للجنة في نظرنا من اقرار الاستعانة بالتنقيط او بالاشارات لتيسير لفظ بعض الكلمات التي شاع استعمالها وذاعت معرفتها بين جميع النـاس بحيث لايمكن لكلمة اخرى ان تحل محلها ونقصد بالتنقيط والاشارات اضافة نقطتين على حرف ( ف ) لضمان النطق بحرف (V) الافرنجي واضافة نقطتين على حرف ( ب ) لضمان النطق بحرف (P) الافرنجي وزيادة خط على حرف ( ك ) لضمان النطق بحرف (G) الافرنجي في بعض تراكيبه . ان الاجماع على تنفيذ اقتراح من هذا القبيل يسمح لنا بتعريب كلمات عالية ذائعة الشهرة مثل كلمة

الفيتامين (١) واللفظ بها كما يجب ، تلك الكلمة التي لن يعدلها مااقترح لها من ترجمة ، سواء اكانت الكلمة المقترحة محرضات ام حافزات ام كلمة حيمينات التي لم تصحح الخطأ مع بعدها عما اصبح ذائعا ومألوفا واعني بذلك كلمة الفيتامين التي عاد حتى الباعة المتجولين ينادون بها اثناء بيعهم بعض الخضيات ، مرددين قولهم : غني بالفيتامين يا كريفون ( غراب فروت ، كراب فروت ) .

وقس على هذه الكلمة عدد كبير من الكلمات العالمية التي يُنقذنا استعمالها من البحث عن بديل لها لا يمكن ان يعدلها بوجه من الوجوه .

ﻫ ـ تضع اللجنة معجما جديدا للمصطلحات تجدد طبعه حينا بعد حين وتُثْبت في كل طبعة جديدة جميع المصطلحات الحديثة كما تبدل فيه الكلمات التي ثبت وجود ماهو افضل منها ، وتُضمِّنه الكلمات التي ولجت باب العلم من جديد واقتُرحت لها مصطلحات مناسبة .

و ـ على جميع المؤلفين في الطب والصيدلة في البلاد العربية أن يتقيدوا بما يجيء في المعجم المعتمد الجديد وأن يُلحقوا بكتبهم الطبية الجديدة معجماً بين الكلمات التي يرون تبديلها مذيلة بشروح تبين أفضليتها لتستطيع لجنة عليا للمصطلحات دراستها فتقرر رفضها أو قبولها فاثباتها في طبعات المعجم المقبلة .

ز ـ تؤلف لجان فرعية في كل بلد عربية تساعد اللجنة العليا بعملها وتجمع لها عناصر المواضيع التي تبحثها في مؤتمرات سنوية .

---

(١) لايخفى ان الفيتامينات ركبت من كلمتين فيتاس ومعناه الحياة واسيد آمينه ومعناها الحوامض الآمينية مع انه تبين خطأ هذه التسمية فنا لأن الفيتامينات لاصلة لها بالحوامض الآمينية لتسمى باسم مركب يمزج بين الحياة والحوامض الآمينية كما هو الحيمينات .

ح ـ تعقد مؤتمرات سنوية باشراف اللجنة العليا يحضرها مندوبون عن كل لجنة فرعية .

ط ـ يوسع نطاق الجامعة العربية الثقافي فتؤلف فيها لجان المصطلحات العلمية تسير في عملها على هدى لجنة المصطلحات الطبية وتوحيدها ، اما أن يترك الحبل على الغارب ليتصرف كل مؤلف على هواه دون الرجوع الى مرجع أعلى أو الى معجم معتمد ، يعاد طبعه المرة تلو المرة فأمر يحدث بلبلة وارتباكا بدأنا نشعر بها اليوم ، فقد كثر المشتغلون باللغة العلمية وزادت الاصطلاحات وأخذ العلم يبثنا في كل يوم بالجديد منها ، وأخذت لغة العلم تتدهور وبتنا نميل الى الاعتقاد بأن التأليف العلمي الذي لا يتقيد بتنسيق لغوي ، عامل في بلبلة اللغة .

لقد اتخذت خطوات ايجابية في موضوع التعريب في أقطار العروبة أبرزها .

١ ـ جهود الاتحاد العلمي العربي .

٢ ـ جهود المجلس الأعلى للعلوم .

٣ ـ جهود مؤتمر التعريب ومكتبه الدائم في الرباط .



هذا بالاضافة الى جهود مجامع اللغة والجامعات والجمعيات والهيئات والأفراد في كل بلد عربي .

سادساً ـ يخشى بعض الغيورين على اللغة العربية من أن يؤدي التسامح بالتوسيع في أبجديتها ، لضرورات علمية الى الانزلاق باللغة العربيـــة في مزالق تضيع به أصالتها ، ومما لاشك فيه بأن لهؤلاء وجهة نظر أصيلة أملاها عليهم حب العربية والعروبة ، ولكن هل يخشى على اللغة العربية من الوقوع في مـــدارج الانزلاق ؟ الواقع أن اللغة العربية من الأصالة والمناعة ما يحميها ، ويضمن صفاءها ، فلم يستطع الأعاجم الذين سيطروا على البلاد العربية مسلمين كانوا أم غير مسلمين أن يمسوها بشائبة ، لا بل هي أوقعتهم في حبها ، فأخلص كثير منهم لها اخلاصاً نتمنى أن يتحلى ببعضه القـــائلون بجعل اللغة العلمية في بلاد العرب اللغة

الانكليزية بدلاً من العربية ، ولقد حاول العرب أنفسهم العبث بلغتهم فزادها ذلك منعة وقوة ، واننا اذ نقول هذا القول نقصد به الدرك المنحط الذي بلغته بعض الموشحات وعدد كبير من الوشحين الذين لم يكتفوا باهمال القيود والقوافي في الشعر بل استعملوا ألفاظ العامة وحطموا القواعد النحوية والصرفية ونذكر منهم ابن شهيد الذي قال عن الموشح أنه ليس لسيبويه اليه سبيل اوعمل ، ولا للفراهيدي (١) اليه طريق او محل ، وقد نزلت الموشحات بعمل هؤلاء الى اشعار هزيلة المعاني ، واهية المباني ، بها يتغنون ويتغزلون ويمدحون ويهجون ويصفون ، حتى وصف احدهم وهوابو بكرمحمد بن عبد الملك بن قزمان عمله في تحطيم لغة الموشح مفاخرا ، لقد جردت الموشح من الاعراب، كما يجرد السيف من القراب ومنها قيل ما على المطرب ان يعرب ، وقد صحب ذلك انحطاط في المستوى الاخلاقي يحاكي المستوى الذي بلغه شعراء التروبادور (٢) ،ومع ذلك اندثرت تلك الموشحات الذليلة ، وخلدت الموشحات الاصيلة التي تطرب لسماعها حيناً بعد حين .

ان مناعة اللغة العربية تأتيها من حماية القرآن الكريم لها ومبلغ إعجازه فيها ، ذلك الكتاب السماوي الذي يطيب لنا ان ننقل كلمات خليل مطران فيه وفي أثره على العرب :

( قال العرب في الجاهلية الشعر فما امتد النفس في جيده الى اطول من المعلقات ، وقالوا النثر فما يوشك المتخلف منه ان يملأ صحائف كراس صغير ، على الشتات بين المعاني والاغراض ، فلما أراد الله ان يبدي للعالمين آية من آيات قدرته ، أنزل كتابه المبين كتاباً عربياً . وبم أتخذ مادته ؟ من أدوات تلك اللغة . لم يخلق معجماً جديداً ولم يقض قضاءً على السنن المتعارفة بل اخرج من مأثور ما ألفه العرب واصطلحوا عليه وتفاهموا به تلك المثاني ، والمثلات التي حيرت الالباب ،



---

(١) اديب اندلسي عاش في القرن الخامس

(٢) تروبادور وتروبار اصلهما من طرب اي يغني ويوقع انغاماً موسيقية وذلك على رأي جوليان بيرا مؤلف كتاب في تاريخ الموسيقى العربية .

وملأت النفوس بالعجب العجاب . أنزلها في كلامهم ، ازمها حدود لسانهم ،ومعانيها وراء كل حد وهذا هو سر الانشاء وسحر الابداء .

(اخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية لغة استقل بهـا ، فلم تجار مافيها ، وهيهات ان تشبّه بها محاسن الشعر وعيون النثر في الجاهلية ، ولم يجارها مابعدها في البلاغة والفصاحة مكانها من الاعجاز ، ثم جاءت روائع الحديث معقبة من مكان دانٍ على ماهبط به الوحي ، ونور الوحي منحدر اليها كتحدر شعاع الشمس من قمم الجبال الشماء ، الى رؤوس الهضاب المتضامنة بجانبها ، فاتصلت به اسبـاب التأصيل والتفريع ، واتسمت وتشعبت ذرائع التحويل والتوسيع ، لغة جديدة تدفقت اليها جداول الفصاحة القديمة من نواحيها المتعددة فاذا الحوض الذي افضت اليه بحر عذب يهيء الري والغذاء ، للحدائق الفيحاء التي ازدهرت بها الحضارة العربية ، من هذه اللغة الجديدة استمار الخلفاء الراشدون — ناهيك منهم بالامام علي — جمال بيانهم وجلال تبيينهم . تكلموا بكلام هو من صميم مادة العربية ، لكنهم جاؤوا بمعان بديعة في صور شائقة غير مسبوقة . فكانت هنيهة من الدهر ، سنوات معدودة، تم فيها الانتقال الاول ، والتحول الاعظم في لغة الضاد، وطلع فجر جديد ، على البيان العربي في الحقبة التي تلت ظهور الاسلام الى ماناهز خمسة قرون ، وفي الضوء الساطع الذي اضاء ذلك الفجرُ به اممَ المشرق أخرجت القرائح اعاجيبها عقلا ونقلا وفقهاً وسياسة ، وابدت السجايا في مختلف تلك الامم ضروب زينتها باللهجات الفصحى كما أبرزت الألباب كوامن قواها في استصلاح تلك الجهات ، لكل شأن من الشؤون .)

فليطمئن بعد هذا القوم المغالون في الخوف على اللغة العربية من الانزلاق فان لها رسالة القرآن الخالدة حامية،فهي خالدة بفصاحتها خلود القرآن حامي العرب والعروبة ، مهما جار عليها الزمان .

هذا واذا كنا نناهض بكل قوانا جعل اللغة الرسمية في كلياتنا لغة أجنبية فلا يعني ذلك امكان استغناء الطالب في الكليات العملية والنظرية حتى الشرعية عن معرفة كافية بلغة اجنبية وسوف نقدم في عدد مقبل السبل المؤدية الى بلوغ هذا الهدف .

الدكتور سلمان قطاية ـــ **الدار البيضاء**

تحية طيبة وبعد . فقد طالعت مقال الاستاذ الطبيب بشير العظمة حول « لغة العلوم » في عدد المعرفة الصادر في كانون الثاني المنصرم . واعجبت بالجرأة والصراحة في البحث المذكور ، رغم طابع الحماسة الذي غلب على بعض أفكاره .

والواقع ان الموضوع ليس بالجديد على من عاش ولو فترة قصيرة من الزمن في احدى بلاد المغرب العربي الكبير واحتك بالأوساط الثقافية فيه ، إذ اغلبها موقن تماماً بلاجدوائية خوض هذا الموضوع نظراً لإيمانهم بعقم اللغة العربية حيال العلوم العصرية . بل ان مجرد سرد بعض الاصطلاحات العربية تثير لدى البعض بسمات السخرية . وأستطيع ان أختصر في بعض النقاط وجهة نظر هذه الأوساط وهي خلاصة مناقشات طويلة وعديدة ، وأقتصر على ذكر ماله علاقة بالطب لاختصاصي في هذا الموضوع .

ان كلية الطب في دمشق هي الوحيدة في العالم التي تدرس علومها باللغة العربية ، رغم انها أسست منذ زمن بعيد ( عام ١٩١٩ ) فلم تقلدها في هـــذه المحاولة أية دولة عربية اخرى مستقلة كانت أم لا . واذا كان من أهم الاسباب تأثير العوامل الثقافية الاستعمارية فمنها أيضاً : فشل هذه الكلية في تحقيق هدفها من حيث تأليف الكتب الجيدة واصدار النشرات الدورية القيمة والوصول الى مستوى لائق يضاهي أو يساوي الجامعات الاجنبية . ومن البديهي ان دمشق

بل سورية وحدها لاتستطيع ان تتحمل عبئاً ثقيلا كهذا ومن الضروري ان تشاركها في ذلك الدول العربية الاخرى ولكن كل محاولة للعمل المشترك الجدي الجدي بين الدول العربية باء وبوء بالفشل بحيث انه يبدو من المستحيل عملياً وحالياً الوصول الى نتيجة مثمرة ايجابية سريعة خاصة وان البلاد العربية بحاجة قصوى ومريعة الى انشاء جامعات وكليات بمكتباتها واساتذتها ومجلاتها ، ومن الصعب عملياً تحقيق وتأمين هذه الضروريات لسد الفراغ . ولو اننا أخــذنا الكتب الصادرة في دمشق لوجدناهـــا ( أقصد الكتب الطبية ) ضعيفة اذا ماقورنت بمثيلاتها باللغات الاجنبية . هذا وان الطلاب السوريين يتعلمون المصطلحات باللغة الاجنبية بل يدرسون ساعات منها ،فلم لاتدرس العلوم معها بالفرنسية او الانكليزية خاصة وان العلوم ذات طابع انساني لاعـــلاقة لها بالشعور القومي،فهي لاتربط الطالب بالبلد الذي يدرس العلوم بلغته. ثم أن الثقافة عموماً،في المغرب العربي الكبير ، فرنسية ومن السهل الاستمرار بالتدريس بها زد على ذلك ان كل مثقف ينتمي الى بلد متخلف وغير ملم بلغة أجنبية يظل حبيس الكتب القليلة المزيلة بلغته ولا يستطيع ان يتخطى حدودها الضيقة وان فعل اصطدم في البلاد الاجنبية بمشكلة اللغة فاما اضاع سنين هباءً منثوراً وعـــاد خاوي الوفاض وإما التقط المتاع العلمي وعاد بخفي حنين .

هذا باختصار ، رأي المثقفين الجديين ذوي الشعور الوطني السليم تجاه المشكلة . واطرح جانباً ، طبعاً ، رأي المتفرنسين من البورجوازية العصرية . احببت أن اسرده لعله يلقي قبساً من نور على المعضلة التي طرحهـــا الاستاذ الكريم . ولكنه أثار في بحثه نقاطاً أخرى ذات اهميه أيضاً ، وجدت

من المفيد أن اتناولها بالحديث لأهميتها من ناحية ولاتصالي المباشر بها من ناحية اخرى .

يقول الاستاذ الدكتور « ان استبدال اللغة الوطنية بلغة اجنبية هو ازدواج في الجنسية ، فالانسان الذي يفكر بلغة أجنبية ويترجم افكاره الى لغته الوطنية انسان مصاب بتبدد النفسية Schyzophrênie يتجه ولاؤه الفكري الى لغة الجامعة او البلد والى المجتمع الذي عاش فيه سني شبابه ، فاذا عاد الى وطنه اصطدم بالواقع ويخرجه من متاعبه الهروب او العزلة » .

ويؤسفني أن اجد في هذا القول حكماً سريعاً . كما اجد فيه في الآن نفسه معضلة لابد من التعرض اليها اذ يصل الاستاذ من هذا الكلام الى النتيجة التالية : « وقد اضاع التعليم الجامعي في بلاد اجنبية ، وعلى جميع بلاد المتخلفين ، اعداداً كبيرة من خيرة الشباب ، ولن تتمكن بلادنا أن تزاحم في رخائها وثرائها بلاد المتطورين لتستعيد الضائعين » .

وهكذا يبدو بوضوح أن سبب عدم ملاءمة العائدين الى وطنهم بعد دراسة في بلد أجنبي ، أو عدم عودتهم يعود الى سببين : الأول : الدراسة باللغة الاجنبية والثاني : الاسباب المادية .

واعتقد أن المشكلة يجب ان تطرح بشكل آخر أعمق وأدق يتناولها من عدة جوانب . ففي بلاد المغرب العربي يوجد بشكل عام نوعان من التدريس الثانوي : إما عربي إسلامي محض ، وإما فرنسي محض ، ومن البديهي أنهما يولدان جيلين مختلفين تماماً في العقلية والمفاهيم بل لنقل انهما متخاصمان أبداً . يتفوق الأول على الثاني بفهمه للحياة الشعبية فهماً تاماً ، ويتأخر عنه في ملاءمة عقليته للعصر الحديث بينما يتفوق الثاني عليه بعلومه وسعة آفاقه ويتخلف عنه في اخفاقه في فهم مجتمعه وتلاؤمه مع عقلية شعبه وهؤلاء قد يصح عليهم قول الاستاذ .

أما في سورية فأعتقد أن المعضلة أقل تعقيداً بكثير لأن التدريس الغالب ( خاصة في السنوات الأخيرة ) هو وطني محض . فلقد قلت المدارس الأجنبية واختفت آثارها عملياً .

والمشكلة في الوضعين مشكلة تربوية ، فالمعلوم أن الطفل تتشكل شخصيته في حوالي السنة السادسة وتأخذ طابعها العام في المراهقة . وهكذا نجد أن السوريين من حاملي البكالوريا السورية متقاربون في المفاهيم والعادات مهما كانت نوعية دراساتهم العليا ، واللغة التي درسوا بها .

وبالنسبة لاصطدامهم بواقع مجتمعهم فهو يقع اولاً واخيراً في رأيي على عاتق المسؤولين . إذ يذهب الطالب السوري خاصة والعربي عامة الى البلاد المتقدمة فلايهتم به احد قصد ربطه دوماً الى مجتمعه وتذكيره به واعادته اليه . فلو وجد في المدينة الجامعية بباريس مثلاً بيت للطلبة السوريين يضم شملهم ويكون بمثابة قطعة صغيرة من وطنهم يجدون فيه حفلات تذكرهم بأعياد بلادهم الوطنية والاجتماعية ، ويقرأون كل مايصدر في بلدهم ويجتمعون فيه للالتقاء برجالات بلادهم من المثقفين او المسؤولين السياسيين يحاورونهم عن مستقبلهم وماينتظر منهم ، كذلك تأمين سفرهم السهل الرخيص دوماً الى بلادهم ، وعند الزيارة تدعوهم الجامعة السورية لزيارتها والحديث مع طلابها ، ولدى انتهائهم من الدراسة يستقبلون في الجهات المسؤولة من قبل من يوضح لهم الطريق ويساعدهم على عملهم لتأدية واجبهم على الوجه الاكمل . ولكن الذي يحدث هو من ناحيته انقطاع تام عن الوطن الام اثناء الدراسة واستغراق في اوهام واحلام ذهبية عن الوطن مصدرها الحنين والشوق ، واندماج شبه تام في مجتمع افضل في اغلب مظاهر حياته . ولدى العودة تصطدم الاحلام بواقع رهيب ومجتمع متناقض بين مثالية مغرقة في الرومانسية وامكانيات تبعث على الرثاء والشفقة ، ويستمر نضال هذا المثقف الى ان ينتهي اما للهرب او الانعزال ، لأن المسؤولين

كانوا دوماً يعتقدون ان على المثقف خاصة والمواطن عامة واجبات وليس لديه حقوق . فهم يهملونه اهمالاً شائناً طيلة دراسته الشاقة ، ولدى النجاح يحاسبونه ويطالبونه بأكمل المثاليات والتضحيات !؟ واعرف من الاصدقاء والزملاء من وصل الى حد كبير من المهارة والمستوى العلمي ،ومستواه هذا لا يسمح له ان عاد الى بلاده إلا بالعمل البسيط الذي يقل كثيراً مما باستطاعته عمله ، ومنهم من يحاول جدياً ان يلفت الانظار الى ما باستطاعته تقديمه من خدمات لوطنه ضمن اختصاصه فيما لو سهلت له المهام وقدمت له بعض المساعدات المعقولة ضمن امكانيات البلاد . فلم يتلق جواباً مطلقاً .

فالمشكلة إذن ليست مشكلة لغة فحسب ، ولا يمكن حلها بالعواطف الوطنية والحماس القومي ، فهي اكثر تعقيداً من ذلك وابعد جذوراً .

وأما القول بأن هؤلاء مصابون بداء الفصام او تبدد الشخصية ( مثل آخر على تعدد المصطلحات الطبية العربية ) ففيه مغالاة ولا شك . لأن هذا الداء هو من اخطر انواع الجنون ، وما اظن غالبية مثقفي البلاد المتخلفة مصابون به . إنما يصابون باضطراب نفساني وبقلق عميق لا يلبث ان يزول اذا ما استطاعوا الاندماج كلياً بعملهم الفني والاستمتاع بلذائذه الفكرية وبنتائجه الايجابية ، التي هي اساس وجودهم كلية .

ومصدر ذلك القلق هو شعورهم الضمني ان كل اتعابهم الدراسية ذهبت أدراج الرياح ، وان مايقومون به لا يتعدى الامور البدائية البسيطة ، فتصبح حياتهم روتينية تقليدية لا تقدم فيها ولا تطور بل شعور دائم بالعجز والتقهقر ، وحياة تعتمد على الغرائز البسيطة وليس على الفكر المتقد والمعاناة الدائمة* .

---

(*) تلاحظ ( المعرفة ) ان هذا الموضوع الخطير ، لايزال مفتوحاً للمناقشة ، على الصعيد القومي والثقافي والاجتماعي . وستنشر المعرفة حوار المثقفين واهل الرأي في ( السلسلة القومية ) التي تصدرها الوزارة .

## الكتّاب والموضوعات

# أدب المهجر

## في مباذله

بقلم جورج صيدح

باريس



هذه شكوى مرة يبسطها أمام الرأي العام ، أديب وشاعر مهجوي كبير ، منح أمته بشعره وأدبه ، خلال خمسين عاماً ، الكثير من عقله وقلبه ويده . وكان بامكان الشاعر المجلي أن يتجنب التأريخ ، ليتحدث عنه زملاؤه ، لا ليتحدث عنهم . ولكنه آثر أن يقوم بمهمة المؤرخ لأدب المهجر وأدبائه ، فاضاف الى مآثره مأثرة جديدة قدرها القراء العرب في كل مكان .

ولكن الذي حدث أن الشاعر أرخ لادب معظم أهله أحياء يرزقون ، فقامت عليه قيامة الأحياء ، كلهم ، أو بعضهم ، وليس من اليسير ان يتصدى مؤرخ للقبض على التاريخ الحي ـ الجاري ـ دون أن يقع في متناقضاته ، ومزالق عدم اكتماله .

حدث مثل هذا لكثيرين حاولوا زج الحدث المعاصر في طوق التاريخ من قبل أن يصبح في ( ذمة التاريخ ) . واحجم مؤرخون آخرون عن تناول الحدث الجاري بالتأريخ له حرصاً على حريتهم ... واحياناً على سلامتهم .

يبقى أن الاستاذ صيدح في كتابه الشهير ( أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية ) ـ طبعة ثالثة ـ قد وضع لبنة أساسية في صرح التاريخ الأدبي العربي ـ بصرف النظر عن تقصير أو قصور في استيعاب حياة الأحياء أو ملاحقة تطورهم ـ كما سنرى في عرض قضية المؤرخ وأمله ـ وسيبقى كتابه وثيقة للأجيال ، حتى يأتي تاريخ المستقبل ، حكماً فيصلاً بين المؤرخ وأصحابه ، فيثبت من شاء في سجل الوثيقة ، أو يخرجهم منها إخراجاً نهائياً . . !! وان الاستاذ صيدح كمؤرخ لحدث حي ، لايملك قدرة هذا الحكم ، سواء أمنح زميلاً له ـ اليوم ـ ثلاثة سطور ، أو منحه ثلاثمائة . وحسبه أنه كتب في التاريخ الحي جريئاً مقداماً ، ليخدم أدبه ، لا ليرتزق منه أو يتاجر به .

وأملنا أن تتقبل الصديقة الأديبة السيدة ماريانا فاخوري صاحبة مجلة ( المراحل ) السانباولية ، من الاستاذ صيدح ، خطابه وعتابه بسماحة من يعلم أن العتاب الشديد جزء من المحبة الكبيرة ، لاسيما وان بينها وبين الاستاذ صيدح من تبادل التقدير ما يشفع في نشر هذه ( المشادّة الودية ) لما تحمله من شؤون قضية أدبية معاصرة ذات بال .

وعلى كل حال ، فان المعرفة إذ تنشر خطاب الاستاذ جورج صيدح ، لم تغلق الباب وراءه . ولا نظن الأستاذ صيدح براغب في اغلاق البـاب . كما لا يفوت ( المعرفة ) أن تشارك المتفائلين ، وفي مقدمتهم السيدة ماريانافاخوري شعورهم ( بان دولة الأدب المهجري تتجدد مع الأيام ..» ( المعرفة )

* * *

رسالة مفتوحة الى اخي الكريم عبد اللطيف اليونس صناجة المغتربين ونزيل سان باولو

ازعجتك يا أخي بطلب المعلومات التي يفتقر اليها كتابي عن بعض ادباء العرب في البرازيل بعد أن اطمعني في فضلك نجاح مسعاك لدى أدباء الارجنتين . فوكلت اليك المهمة ذاتها في سان باولو . وكانت النتيجــة ماتعلم من الفشل المصحوب بالدلال ، على اسف منك ومــني . ولا بأس عليك ولا عليّ من تعنيت سيدتي صاحبة المراحل ولا من تهديدها بنشر عريضة شكاواها مني ، ولكنها ، زادتها ، لمّا راحت تقرأ عليك نص تلك العريضة كاعلان حرب على من جاءها رسول خير وسلم وانت على مايظهر تأثرت بما سمعت فنصحتني بان اكتب اليها مباشرة وان اعفيك من هذا المركب الخشن . وأنا انزل عند نصيحتك من حيث الامتناع عن كل مسعى يتعلق بمعلومات لكتابي ولكني لا اعمل بها من حيث استرضاء السيدة الناقمة عليّ ظلماً وعدوانا اذ أن رأيها لا يستوقفني وغضبها لا يهمني . اذكر قول الزجال :

يا ما مـرّ على هــا لجسر ويامـا هالجسر طــاوي

الذي يهمني هو الكتابة اليك انت حتى أصحح المعلومات الخاطئة التي فرّت عليك ولكي اصوب الانطباعات الناتجة منها . لذلك التمس صبرك على بياني ولو طال . يجب ان تسمع الجواب كما سمعت من قرع الباب . على اني لا اصدق ان الكاتبة العاقلة كما عرفتها تقدم على نشر « معصيتها » وتنسى الآية القائلة «واذا

بليتم بالمعاصي فاستتروا ». اني والله لا ارضى لها المعصية مهما افترت علي ، شرط أن تنام على شكواها فترة كما نمت انا على رسائلها الجارحة شهراً ، مخافة ان اكتب اليها تحت تأثير الغضب فأقطع جسور المودة القديمة واقطع معها خط الرجعة .

انني يا اخي عبد اللطيف اتسامح الى ابعد حد تجيزه الكرامة الشخصية ، ولكني أربأ بنفسي من الوقوف في قفص المتهمين أمام من يتصدى لمحاسبتي أو لمحاربتي . اني لم اخلق لهذا الوضع ولا وضعت نفسي فيه مرة واحدة في حياتي فلما هاجمني بعض الادباء في سان باولو وبونس ايرس مابين عام ١٩٤٩ و ١٩٥١ لم ادافع عن نفسي امام المفترين مع ان وثيقة البراءة كانت في جيبي.بل تركت للزمن وحده ان يدافع عني ويرد الابن الشاطر الى حظيرتي. وأملي كبير في ردة السيدة مريانا يوماً من الايام . ان احب الناس الى نفسي اليوم هم هذه القلة النادرة من اصحاب القلوب الكبيرة والعقول الرجيحة الذين خاصموني ثم صالحوني وما زالوا يغمرونني بعواطف وعوارف تخجل تواضعي . ومن لا ينيه ويعتز بصداقة نظير زيتون والياس قنصل وزكي قنصل وامثالهم . والفرق بين هؤلاء وبين موقف مريانا هو انهم كانوا ثائرين ناقمين على اقتناع بحقهم علي ولم يتحولوا عن موقفهم الا حين اقتنعوا بالعكس فكانوا مع انفسهم مخلصين ومعي منصفين . اما صاحبة المراحل فلا احسب انها مخلصة في شكواها ولا معتقدة باني أسأت اليها ، لان صلاتنا منذ تعارفنا عام ١٩٥١ كانت تتوثق مع الايام ، وبذلك تشهد مراسلاتنا ومقالاتي المنشورة في المراحل منذ نشأتها الى اواخر العام الماضي . فلا سبيل لشكوى صادقة ولا اثر لإساءة حاصلة ولا صحة لاقوال منسوبة لفلان وفلان ، بل الثورة مفتعلة لغرض في نفس يعقوب ، والادبية الكبيرة تمثل دوراً تعلّمتْه من بعض اصحابها الذين دغدغوا عواطفها .

قد تسألني لماذا أحشرك في مشاكلي بينا عندك مايكفيك من المشاغل والمشاكل ، فأجيبك بأن كل ظاهرة في أدب المهجر تتوفر أنت على تحليلهـا وتعليلها تغنم منها دروساً عن الجانب الخفي من اوضاع الادباء ، وتكسب خبرة تعينك على التأليف عن نفسيتهم وعقليتهم ونزعاتهم وخصوصاتهم لا عن أدبهم وفتوحاتهم فحسب ، ان لهم مباذل كما لهم مطارف ، وأدبهم حلية ذهبية بهرتنا بلألائها فعمينا عما في جانبها الخفي من القصدير والتنك . والآن بعد أن تواترت الدراسات عن وجه الحلية المتألق اصبح من الجديد المفيد دراسة ظهرها الصدىء.

وها قد اتيحت لك هذه الدراسة في حادثة السيدة مريانا . فاغتنمها وحقق في اسبابها ونتائجها ، وقس عليها سائر حوادث الاختلافات والمناورات التي تقع بين ادباء الجالية تنكشف لك الحقيقة ، وانها لحقيقة مُرّة تلك التي تكشف لك قوة الماديات وضعف المعنويات في فريق من الادباء مواهبهم اصيلة وادبهم رائع ولكن اخلاقهم لم ترتفع الى مستوى آدابهم ، هذا ما اسميته انا ، (قفا المدالية) في ادب المهجر ، وهذا ما يوطّئ رأسي امام الجماهير التي مجدّتْ امامها أدباءنا المغتربين وصوّرتهم نوابغ مثاليين لا تشوبهم الشوائب التي ننعاها على اقوامنا المتخلفين في الوطن ، فهنا ترعرع أدبنا العربي ونما وكبر وهنـا كبرت معه المساوىء الوراثية التي حملناها من الوطن الى المهجر . هنـا الفردية والانانية والنرجسيّة على اشدها . وهنا الحسد والنميمة والنكران والغوغائية تفرق الجماعات وتجحد الخدمات وتعطل الحسنات وترجم المصلحين وتصلب الفدائيين .

وما كنت اجهل هـذه الامراض في امتي ولكنها لم تكن موضوع كتابي ولا كان فرضاً علي ان اعالجهـا ، اني كتبت عن ادب الاقلام ولم أتعرض لأدب النفوس .

ألا تريد ان تعلم سبب اضطراري الى وساطتك ( دون غيرك ) من اجل الحصول على معلومات أضيفها الى طبعة رابعة من كتابي ؟ اسمع القصة .

ان كنت من قراء مجلة المعرفة تفضل بمراجعة الحديث الصحافي المنشور في باب « مقابلات المعرفة » عدد تموز ١٩٦٥ تجد في الصفحة ١٣٦ ردي على اسئلة الاستاذ ابو طالب زيان :

**س ـ ان قيل ان كتابك « ادبنا وأدباؤنا » جاء وافياً بكل مناحي الادب هل توافق على ذلك ؟ .**

ج ـ لا أوافق . لأني اعرف بعض عيوب كتابي وانــه لم يبلغ درجة الكمال .



**س ـ اذا تناول اديب من الادباء كتابك بالنقد ، هـل تغضب ام ترضى عن بعض الحقائق ؟**

ج ـ كيف اغضب على من يهتم بما اكتب ويتطوع لمعاونتي في الخدمة التي توخيتها لمن يقرأني ؟ هذا ان كان الناقد منصفاً ومخلصاً لقضية الادب . فالناقد المنصف المخلص هو عندي بمقام المعلم الكفء ومن علمني حرفاً كنت له عبدا .

**س ـ هل لك امنيات تريد ان تحققها وتقف دونها عقبات ؟**

ج ـ كنت أتمنى لو ألفت كتابي اثناء اقامتي في المهاجر بين الادباء المترجمين فيه ، او على الاقل لو عنيت بتدوين مذكرات عما استقيه اومايعرض لي من اخبارهم وآثارهم وجئت الى الوطن مزودا بها . ولكن مع الاسف ،

لما قُدّر لي بعد ان تأمركت ثلاثين عاماً ان اعود الى العالم العربي وان اقف محاضراً على احد منابره ، جئت خالي الوفاض من مـادة الكتاب ، فجهدت وأجهدت ذاكرتي لاستحضار المعلومات اللازمـــة لمحاضراتي ، وبقيت دون ما اصبو اليه من التجويد والتركيز والاتقان .

ـ انتهت المقابلة ـ

هذا الجواب الاخير يدلّك على حرج موقفي يوم انتدبني مجلس جامعة الدول العربية في القاهرة لمحاضرة عن أدب المهاجرين في معهد الدراسات العربية العليا في خريف عام ١٩٥٥ ان افتقاري الى المعلومات وبُعدي عن المراجـع حملاني على الاعتذار . فوجهت اعتذاري الى رئيس المعهد الاستاذ ساطع الحصري ونصحته بان يكلف الاستاذ ميخائيل نعيمة ، أكفأ الأدباء للقيـــام بالمهمة . وغادرتُ بيروت كعادتي في كل صيف خالي البال . ولكنني عدتُ الى بيروت في تشرين ووجدت الاستاذ الحصري بانتظاري ليُشعرني بأن الاتفاق مع الاستاذ نعيمة قد تعذر ، وان لا مناص لي من قبول المهمة مع تأجيل المحاضرات الى نيسان ١٩٥٦ ، وبعـد أن اجتمعتُ بالاستاذ نعيمة وعرفتُ اسباب تنصله كما عرفتُ استعداده الكريم لمساعدتي ، اتكلتُ على الله وقبلتُ المهمة .

كان بيني وبين موعد المحاضرات خمسة شهور . فشرعتُ بكتابة القسم الموضوعي عن أدب المهجر ، مؤجـلا الكتابة عن الأشخاص الى حين استيفاء المعلومات بالمطالعة أو بالمراسلة . فعمدتُ الى طريقة الاستعلام المباشر ووجهت ما يزيد عن عشرين رسالة الى مختلف الاقطـار الاميركية مستجدياً من كل أديب أخباراً عن سيرته وشواهد من نتاجه الأدبي فجاءني جواب واحد من اميركا الشمالية وستة أجوبة من البرازيل واربعة من الارجنتين . أما الباقون فامتنعوا عن الردّ ضاربين باللياقة عرض الحائط . ( اترى قفا المدالية ؟ ) .

فضلاً عن ذلك لم تكن جميع الأجوبة وافية بالغرض ولم استفد المعونة الا من خمسة اشخاص .

- فكانت خيبتي تكبر ومهمتي تتعسر وليس في الوقت متسع للاستعلام بواسطة مندوب يتجول في عرض البلاد وطولها . فاضطُررتُ على أهمال سبعة أجوبة معرّضاً نفسي لغضب مرسليها (أيضاًفنا المدالية) . إذ كانوا يتوقعون أن لا أغير حرفاً مما كتبوه . وإليك بعض نماذج مما كتبوه .

– لا تظنني شاعراً مغموراً . اني مشهور في الوطن وشعري منقوش على مدخل البرلمان في دمشق .

– قصيدة واحدة من قصائدي أطاحت بعرش فاروق وعبّدتْ للضباط الثائرين طريق الحكم .

– أنا في بلدي بيك ابن بيك . اقرأ المكتوب بالعربية على ظرف هذه الرسالة الصادرة من عبدالي .

– إني الشاعر العربي الوحيد الحاصل على عضوية المجامع العلمية في أوروبا وأندية الشعر في فرنسا .

– أنا على اتصال دائم بسلطان باشا الأطرش . لا يقوم بعمل الا بعد ان نتشاور بالمراسلات .

– أنا روحي ودمي فدى لبنان . هاجتُ مراراً شباب البسطا ومرة اطلقوا عليّ النار .

– عرضَتْ عليَّ سفارة اميركا مليوني دولار لكي أوقف الحملة على الاستعمار في جريدتي فلم أقبل .

– أنا لم انضمّ الى الرابطة القلمية لأني رجل جد . لا اكتفي بالمظاهر ولا أحب المساخر .

أمام هذه الانماط من المعلومات قطعتُ الأمل من فائدة الاستفهام عن الأديب من الاديب نفسه ورحت أتحسس الأخبـار بنفسي وبواسطة عملائي وأضع المحصول في محاضراتي يومئذ ثم في الكتاب الذي نشرته جامعة الدول العربية في حزيران ١٩٥٦، عازماً على اصدار طبعة ثانية على نفقتي عندما استوفي بقية المعلومات أن استطعتُ سبيلاً الى ذلك .

## المحاولة الثانية

بعد ان تم الاتفاق مع دار العلم للملايين على اصدار طبعة ثانية ، منقحة ومزيدة ، من كتابي في صيف العام التالي أي ١٩٥٧، صرفت اهتمامي كله الى مخابرة الاوساط الادبية في المهاجر . ونظمت حملة واسعة لجمع المعلومات وغربلتها بعد المقارنة والتمحيص وترجيح الصدق فيها . بهذه الوسيلة اسفر التعاون بيني وبين المراسلين عن نتيجة ضخمة فانتقل حجم الكتاب من ٢٠٠ صفحة في الطبعة الاولى الى ٦١٥ في الطبعة الثانية . ولكني اقول بكل اسف ان الاحتجاجات على هذه الطبعة تضاعفت كتضاعف الصفحات ( صيدح يخلط الحرير بالخيش . . صيدح لا يُدلّل إلا اصحابه . . صيدح يحشر اشعاره في كل مناسبة ) . قرأت هذه الملاحظات فلم اعبأ بها . وانما عبأت بالاعتراضات الوجيهة التي كتبها إلي نظير زيتون وشفيق معلوف والياس فرحات وموسى كريم فعدلت النصوص على ضوئها وشطبت على « قفشات » فكاهية لم يستسيغوها رغم التسليم بصدق الرواة . كما كنت حذفت عبارة نقلتها في الطبعة الاولى عن كتاب توفيق ضعون تتعلق بالمرحوم جورج حسون فاستاء منها وطابت نفسه لما لم يجدها في الطبعة الثانية . ومثله فرحات الذي كتب لي ( علتك يا صيدح انك طيب القلب مفرط الطيبة ) ولو عبر عن فكره بأ كثر صراحة لقال ( انك غبي !! ) .

هنا ارى من واجبي نحوك يا أخي العزيز أن احيطك علماً بما ساءني وما سرني من نتائج جهودي في اصدار هذا الكتاب الضخم على نفقتي حتى تعتبر وتفيد من تجاربي عندما تحدثك نفسك بالتأليف والنشر عن ادباء المهجر.

الحق، الحق اقول لك: ودّعْ مالك الذي أنفقته على كتابك ان كنت متكلاً على قراء يشترونه في المهاجر. واقبرْ آمالك ان كنت تتوقع من المهاجرين تقديراً وعرفان جميل. ووسع صدرك ما استطعت التوسيع لاستقبال سهام اللوم وقرصات الدلـّع ممن ذكرتهم في كتابك، وصواعق الغضب ممن نسيتهم او جهلت وجودهم.

وانكى من هذا ان تهدي كتابك الى تسعين اديباً في المهجر ولا تسمع خبر وصوله اليهم الا من ثلاثة عشر فقط لا غير بينما سبعة وسبعون منهم يسكتون عن الهدية كأنها لا تعنيهم او كأنك تطفلت على موائدهم او لانهم لم يجدوا اعتراضاً على ما نشره المؤلف عنهم، فلماذا يزعجون انفسهم بكتابة سطرين اليه؟

هذا الاستهتار بقضية هم انفسهم ألفها وياؤها صدمني في نفسيتي اكثر من كل نقد وكل تجريح. لقد أراني «قفا المدالية الذهبية» بكل شناعته. فعقدت النية منذ ذلك الحين على نفض يدي من الكتاب ومنع دار النشر من اعادة طبعه، برغم الرواج الذي لاقاه في الاقطار العربية.

كان رواجه كاسحاً في مصر والعراق، ومعتدلاً في السعودية وسورية، وضعيفاً في لبنان حيث آلاف من اهل المهاجرين يتلهفون الى الحوالات المالية الواردة من ابنائهم، لا الى الابحاث الادبية المكتوبة عنهم. اما دار النشر

فتعزو قلة الرواج في لبنان الى كثرة الهدايا التي وزعتها فيه . وعددها مئتان . ومعلوم ان القراء في لبنان قلة والكتاب كثرة . وحدث ان الطلبات على الكتاب من المغرب والخليج وردت بكثرة على دار النشر بعد أن نفدت الطبعة ، فصار هم الدار إقناعي باصدار طبعة ثانية وهمي أنا الاصرار على الرفض، اصراراً دام سبع سنوات . وفي تلك الاثناء هجرت بلادي للمرة الثانية وجعلت مقري باريس . وفيها زارني اكثر من مرة الاستاذ بهيج عثمان احد اصحاب دار النشر وفي آخر مقابلة عام ١٩٦٤ اقنعني بأن دخول الكتاب شواطىء افريقيا والخليج العربي يعتبر فتحاً جديداً للأدب المهجري . وكان قد تجمع عندي اضافات قيمة لفصول لم تكن وافيــة كما يجب ان تكون ودراسات لعشرين اديباً مرموقاً اغفلت ذكرهم فلم يعرف القراء سيرهم ولاهم عرفوا التطورات التي نقلت الادب المهجري من حال الى حال في السنين التي مرت ، فأخذت بهذه الاعتبارات وأذعنت لطلب الاستاذ عثمان ، وارسلت اليه المواد المضافة والمواد المنقحة بعد شهور معدودة . فظهرت الطبعة الثالثة الى الوجود في مطلع عام ١٩٦٥ .

كنت بخيلاً بالاهداء من هذه الطبعة الاخيرة لأن التجارب السابقة علمتني وأدبتني فلم ارسل الى سان باولو مثلاً سوى خمس عشرة نسخة ، ولم يكتب لي الا ثلاثة من المهدى اليهم عن وصول الهدية ( هم شفيق معلوف وتوفيق ضعون وجورج ليان ) فلم يفجعني تكرار المأساة لاني توقعتها وتدرعت بحلمي لاستقبالها . فتكسرت السهام على السهام ، بأقل مايمكن من الآلام .

أما الذي فاجأني وفجعني هــذه المرة فهو انقلاب الصديقة مريانا فاخوري صاحبة مجلة المراحل علي ، من ولاء الى عداء بلا سبب معقول ، كما

رأيت انت وسمعت لما زرتها وبلغتها رسالتي الودية . ودعني اذاً احدثك عنها حديث الختام لهذا البحث .

## السيدة موريانا فاخوري

هذه الاديبة الموهوبة لم تشغل حيزاً كبيراً في كتابي ولكن القليل المنشور عنها كان اجدى وابلغ من الكثير عند العارفين . شاءت الاقدار أن اعرفها على رأس متجر في آخر زيارة قمت بها لسان باولو عام ١٩٥١ وان اعرفها زائرة كريمة ومضيفة أكرم ، تطبخ الطيبات ونفسها جائعة للآداب والفلسفات ، فتلازم الدكتور جورج قدوم وتراسل الاستاذ ميخائيل نعيمة وتعيش في جو الفيلسوفين الحكيمين ويداها على الاقمشة والخردة .

وبينما كنت أهيىء المحاضرات المطلوبة مني عام ١٩٥٥ تسلمت الاعداد الاولى من مجلة « المراحل » وادركت ان جاذبية الادب جرتها من المتجر الى الصحافة ووضعتها على جانب الطريق المؤدي الى اهدافها الروحانية . فأطربتني هذه القفزة وبادرت الى اوراق المحاضرات اسجل فيها الخبر السعيد بالعبارة التالية :



### موريانا دعبول فاخوري

**اديبة من سيدات المجتمع المتحرر في سان باولو . ارغمتها الظروف على ادارة المتجر الذي تركه لها الموحوم زوجها . ولكنها لم تكسر قلمها وتخمد الشعلة الادبية في روحها . انشأت عام ١٩٥٥ مجلة كبرى باسم « المراحل » وضعت فيها شيئاً من روح مجلة العصبة الاندلسية وشيئاً من مظهر مجلة الشرق .**

ومن المعلوم المشهور ان المهاجر الاميركية لم تعرف في الصحافة العربية اسمى روحاً من مجلة العصبة الاندلسية ولا ابهى مظهراً من مجلة الشرق .

فتلك امتازت بمادتها الادبية العلمية وهذي امتازت بأناقة الاخراج وجمال التصاوير.

اما مجلة المراحل فكلامي السابق يعني انها جمعت الميزتين وفاقت المجلتين.

وبعد عام واحد، لما صدرت طبعة ثانية من كتابي اضفت الى الجملة السابقة قولي:

**فلاقت مجلتها رواجاً تستحقه كما لاقت صاحبتها تقديراً كبيرا من المجتمع. فهي تجمع الى الاصالة في الادب البطولة في العمل الصحافي المرهق.**

وكان ان حداني الى اضافة هذين السطرين ما اصابته هذه المجلة الطفلة من علو شأن وثبات قدم ونجاح سريع ومن بروز الشخصية الادبية فيها مطبوعة بطابع صاحبتها.

ثم توالت السنوات وحان أوان الطبعة الثالثة من كتابي. فعن لي أن أستعلم عن سيرة السيدة مريانا علي أهل أن أجد فيها مجالاً للتوسع في الفصل الخاص بها ان عرفت ما أجهل من أخبارها وآثارها. فعمدتُ الى الاستفهام من أعرف الناس بها، الآكلين الشاربين على مائدتها، فكتبوا اليّ أسوأ ما يكتب عدو عن عدوه. هـذا يخوض في حياتهـا الخصوصية. وهـذا يسخر من أدبها ويهددني بقوله «ان ذكرت فلاناً في كتابك فاحذف اسمي منه». فاستعـذتُ بالله من الدساسين الخناسين وضربت صفحـاً عن أقوالهم فصاروا يكيلون لي السباب بلا حساب. لم يسعفني الحظ — لا معها ولا مع غيرها — بالوقوع على مُخبر نزيه صادق أعتمد على إفادته بل كان معظم اخبـار المراسلين طعنات في ظهر هـذا وصدر ذاك. المومى فلان يستكتب القصائد وينتحلها لنفسه، وهذا الشاعر يجيد النظم ولكنه لا يجود بفلس لعمل الخير مع أنه مثر كبير. وذاك الصحافي يتاجر بصحيفته وبضميره الى غير ذلك من نفثات

الحقد والحسد. فما حيلة المؤرخ المتحرق الى فرز الحقائق من خلال الأكاذيب؟

وكان وجودك في سان باولو يا اخي العزيز فرصة فريدة للاستعلام . لأنك غريب عن هذه البيئة ، لا تحمل حزازات ضد احد ولا مصلحة لك في التحامل على احد . وكل أديب تقابله وتنقل حديثه يعرف انك محايد فيثق بك كما أثق أنا . لهذا السبب رجوتك أن تزور السيدة مريانا وتسترق منها المعلومات من أجل كتابي . فهل اقترفت جريمة ام خنت الصداقة بهذا المسعى حتى تقابله السيدة بالويل والثبور وعظائم الأمور !

أفهم من رسالتها المؤرخة ٢٤ - ١ - ١٩٦٦ أن السؤال عن سيرتها يعني تجاهل مكانتها وشهرتها بعد ما طافت الاقطار العربية واجتمعت بالملوك والرؤساء وملأت الصحف بالأحاديث والرسوم ، فتقول :

**لقد أحزنت بنا يا صديق ونحن سا كتون وقانعون . اما أن تراسل غيرنا ليخبرك عنا فهذا كثير !! ومن ادرى بحالنا منا؟ أما سمعت صوتي في الوطن ؟ وهل فاتك ماصرحت به الصحف عن الأدب المهجري ؟ »**

أجل لقد سمعت صوتها في الوطن وقرأت تصريحاتها في الصحف فأخذتني هزة الفرح والزهو . لأني وجدت فيها داعية نافذة تشاركني في عقيدتي ورأيي وتطلب بصوت عال من المسؤولين ما استقتلت في طلبه دون جدوى كتابة وهمساً منذ خمسة عشر عاماً . تطلب المهاجر مدارس وصحافة عربية تكفل نفقاتها حكوماتنا وتنال وعوداً طالما سمعتها باذني ولم ألمس لهـا أثراً بيدي . وعلى كل حال هي مشكورة على جهودها ، وان كانت لهجة رسالتها الاخيرة تشعرني باني لم أزل بلا معين ولا شريك في هذا الميدان . . وبأن اجدادها بعد هذه الرحلة وبعد ان اسست في منزلها « جامعة القلم » اخلت بتوازنها وحدت

من رصانتها وسلامة تفكيرها . فأصبحت تحلم وهي صاحية وتكتب وهي حالمة وتسيء الظن في اخلص الناس لها واحرصهم على كرامتها ، بمجرد انه اوفد صديقاً للسؤال عن ماضي سيادتها ! أتكون مجاري الهواء في الصحراء سببت لها هذا الانتفاخ والورم ، ام انها تشربت السموم من مائدة ( جامعة القلم )؟؟

وربما تظن سيدتي اني تجاهلت اصداء غزواتها فلم أشر اليها في الطبعة الاخيرة من كتابي . لذلك اقول لها بدوري : « هل فاتك ان كتابي كان في المطبعة قبل ان تحجي وان اصداء الحج لم تذعها مجلتك الا بعد صدور كتابي واني جمعت قصاصاتها لفصل كنت اعدّه لأضيف اليه مايصلني من تحقيقات الاستاذ اليونس ؟ وأقول لها ايضاً : لو عندك ذرّة من سلامة نيتي لأغلقت الباب في وجه الريب وقطعت الطريق على سوء التفاهم . وذلك السمو النفساني والحنين الوجداني اللذان كانا يتحليان في رسائلك السابقة ، كيف يهبطان الى حمأ العنعنات والصغارات في رسائلك الاخيرة ؟

راجعي وقارني :

« ياشاعر الرقة والوعي والأديب المنتج الساهر على أدب امته ، كم تمنيتُ ان اخاطبك لأعبّر لـك عن عظيم اعجابي بشخصيتك الكاملة كشاعر وأديب وانسان ، وكم تمنيت في عدة ظروف ان اتخذك موجهاً للشكوى وموحياً للتوجيه » .

سان باولو ٢٧ شباط ١٩٦٢ ( مريانا )

اخي صيدح . ناشدتك الأدب والشعر اللذين انت رائدهما ان تدقق بنفسك في كل ماتنوي كتابته للأجيال وان ترفق بالتاريخ اذ لابـد له يوماً ان يقف بوجهك يعاتبك ويلومك . انت لاتكتب لتعيش بـل تعيش

**لتكتب ، فماذا يعيقك عن درس[١] نفسية واوضاع الذين تكتب عنهم وكثيرون هم الناقمون عليك ياصيدح وانت الرجل الطيب . لاتتفق نواياك مع مايخطه[٢] قلمك فيبعدك عن الحقائق التي شوهها لك المغرضون الذين مازال توليهم ثقتك[٣] .**

**( مريانا )**

سان باولو ٢٤ كانون الثاني ١٩٦٦

## دعوى التقليد

وهنا بيت القصيد في شكوى السيدة مريانا . هي تقرأ قولي في الحديث عن مجلتها فور صدورها :

**انها أنشأت عام ١٩٥٥ مجلة انيقة عزيزة المواد باسم « المراحل » وضعت فيها شيئاً من روح مجلة العصبة الاندلسية وشيئاً من مظهر مجلة الشرق .**

فتفهم من قولي اليوم (بعد التروي عشر سنوات ) انني اهنتها واعتبرتها **مقلدة « على طريقة الببغاء »** ( رسالتها المؤرخة ٢٤ -١-١٩٦٦ ) **وأنا لم تخطر** ببالي فكرة التقليد ولا ورد في كلامي كلمة التقليد فمن اين جاءت وعلى اي قاموس عربي استندت في تحديد معاني الكلمات ؟ انني بكل حسن نية وصدق طوية اردت ان امدحها بما يشتهي مثله او نصفه كبار الادباء من رجال الصحافة

---

( ١ ) هل من سبيل الدرس بغير التحري الشخصي ، فان امتنع فبواسطة المراسلين كالاستاذ عبد اللطيف اليونس .

( ٢ ) اين الاعجاب بشخصية الاديب الكامنة في رسالتك السابقة ؟

( ٣ ) كيف اكتشف مايضمره المغرضون قبل ان امتحنهم ويثبت لي كذبهم ، هذا مافعلته ، وبعد التحري طول عشر سنوات اتضح لي ان لكل اديب في سان باولو أخصاماً وانصاراً . ولايوجد اديب واحد ينال تقدير الجميع عند الاستعلام عنه .

الاعلام وهو أن يقال عن صحيفته انها جمعت المجد من طرفيه ، الجوهر والمظهر. فان كان هذا المديح لا يفي بحقها ولا يرتفع الى مقامها ، فأنا آسف . أنا لن اقول انها هي التي خلقت الادب المهجري قبل قيام العصبة الاندلسية وانها هي اوجدت وسائل الطباعـــة الحديثة قبل مجلة الشرق ، لكي ارضيها ؟ لماذا لا تستفتي اهل العلم والفهم في تفسير كلامي قبل ان تشن علي غارة اللوم والسخرية « من تلك القطعة الادبية السامية » . اني لا ادعي انها قطعة سامية ولكنها كانت قطعة صادقة تشرف من قيلت فيه. ترى لو قلت لشاعر مجيد ان في شعرك شيئاً من معاني ابي تمـــام وشيئاً من ديباجة البحتري ، أأكون حكمت عليه بالتقليد ؟

الذي يؤلمني في هذه الدعوى هو الشك بصدق المدعية فليست صاحبة المراحل بالادبية الغبية التي لا تحسن فهم الكلام ، وكل ما اخشاه ان تكون قد تجاهلت ولفقت الدعوى كي تضيف الى امجادها مجد الايقاع بي ومجد الخروج عن صفوف المؤمنين بمرطقة تلفت اليها الانظار . وبئس الهدف في الحالتين .

اني ارجح في عملها العمد والبيات وذلك في ضوء الشواهد التالية :

أولاً سكوتها مدى سنوات على جملة تتكرر في ثلاث طبعات من كتابي منذ ١٩٥٦ الى ١٩٦٥ دون ان تشكو من غبن او غضاضة لحقت بها . فلم يهبط عليها الوحي بتأويل جديد لكلامي القديم الا مع اطلالة عام ١٩٦٦ حين اعتبرت المديح قدحاً رغم انف القواميس والمنطق السليم .

ثانياً ان الكتاب الذي تشكو منه وتقول في رسالتها « ان الناقمين عليه كثيرون » ، قد قرظته مجلة المراحل في عدد آب صفحة ٣٠ حيث قال رئيس التحرير :

**كتاب ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية ـ تزف المراحل بشرى صدور الطبعة الثالثة لهذا الكتاب القيم فهو سفر جليل وموجع يقارب الكمال في الشمول والاحاطة والعمق . فنرجو لهذا السفر النفيس الانتشار الذي يستحقه ، ولواضعه الصديق الشاعر جورج صيدح كل توفيق وفلاح في نضاله الأدبي ـ التوقيع شاكر الدبس**

هذا فضلاً عن تقريظ آخر منقول عن نشرة أضواء ومقالات عديدة عن «البلبل الصداح» أو بقلمه في أعوام ١٩٦٠ و ١٩٦١ و ١٩٦٢ و ١٩٦٤ ، تشير كلها الى الوئام وصفاء الود بين الكاتب وصاحبة المجلة ، فلا شكوى ولا عتاب ولا دليل استياء ينبهني الى خطأ ارتكبته معها .

ثالثاً شهادة الزور . ففي رسالتها الأخيرة تقول السيدة مريانا :

**ان المرحوم جورج حسون معلوف قد عاش ما عاش وهو مستاء منك كل الاستياء وناقم عليك ايضاً ( مريانا )**



هذا الخبر لا صحة له . فالمرحوم جورج حسون معلوف قد سُرَّ في عودته وبنقته ابتداءً من عام ١٩٥٧ على أثر صدور الطبعة الثانية من كتابي . ففي أواخر العام كتب إليّ شاكراً الهدية وراجياً أن أهدي مثلها الى شقيقه المقيم في بكفيا حتى حضر لزيارتي في بيروت . فكنت عند حسن ظنه واستقبلتُ شقيقه في منزلي وسلمته نسخة من كتابي بعد ساعة محادثات عن القريب والبعيد من هذه الاسرة الكريمة . وبعد ذلك قرأت له في مجلة المراحل تقريظاً جميلا لديواني « حكاية مغترب » ورأياً في كتابي استشهدت به في الطبعة الثالثة . فأين كان الاستياء مني والنقمة عليّ ؟

لا أحد يختلق خبراً دون غاية خبيثة . فما غاية الصديقة الصدوقة مريانا؟

تقول السيدة مريانا في آخر رسالتها :

**«ومثل حسون كثيرون من الأدباء والشعراء الناشئين في ذلك العهد قد حطمت معنوياتهم بدلاً من ان تشجعهم . . انهم لن ينسوا تلك الهفوة وقد اصبحوا اليوم ناضجي التفكير ، واثقين من نفوسهم . »**

شكراً للمراسلة الكريمة على النفوذ الصاروخي الذي تنسبه لقلمي بشحطة منه يحيا أو يموت من عاش على بعد عشرين ألف كيلو متر مني . وشعاعه الذري يخترق الفضاء وينفذ الى الادمغة الطرية فيحطم معنوياتها . . . والغريب أنه يحيد عن الأدمغة الناضجة فلم يتأثر به الأدباء الراشدون ولم يهتموا بكتابي .

ولتسمح لي بسؤال . أكان باستطاعتي قبل عشر سنوات أن اتنبأ بأن في البرازيل مواهب ناشئة سوف تفرخ وتقوى يوماً مـــا ؟ وانها ( بخلاف الدجاج السمين ) اقتنت كتابي وقرأته ؟



وسؤال آخر ، ان صحّ ان هذا النشء المبارك اطلع على كتابي ورأى ان لأدبه محلاً فيه ، لماذا لم يتصل بي بعد ان قرأ اسمي وعنواني في الكتاب .

أكان واجباً علي ان أقضي حيـــاتي في البرازيل متلصصاً في الموانىء والمطارات والمنازل والمدارس والجامعات لكي أكتشف العبقريات التي حطت هنا وهناك وأكتب عن الأدب في البرازيل دون ان أحطم المعنويات .

وبعد ذلك ؟ ماذا فاعل بأدباء الجمهوريات الأخرى ؟ وما أنا فاعل كلما عزمت على اصدار طبعة جديدة من الكتاب ! أيجب عليّ اعادة الكرة بالسفر الى سان باولو كل مرة لاستئناف البحث والتنقيب ؟.

حذلقة وتعجيز ، هذا كل مااستخلصه من ملاحظات السيدة مريانا . اني

لا أحترم أدباء لا يحركون ساكناً في سبيل التعاون على تأريخ ادبهم ولكنهم أول المهاجمين متى دعى الداعي للتجريح والتنكيل . وسيان عندي ان نسوا أو لم ينسوا تلك الهفوة . البحر قريب منهم فليشربوه .

ثم لا أفهم بأي حق يتصدى بعض الأدباء لمحاسبتي والحكم عليّ . من تُرى أعطاهم صفة القضاة ؟ هل أصبحتُ عبداً لهم لأني كرست جهودي لخدمتهم ؟ هل طالبتُهم بشيء حتى يطالبوني الآن بأشياء ؟ قدّمت لهم هدية بلا قيد ولا شرط . فما بالهم يفرضون على المهدي القيود والشروط ؟

في كتابي عيوب كثيرة لا أنكرها . ولكنني أنكر بكل شدة ان يكون فيه افتراء على أحد أو تحطيم لأحد أو أذية لأحد . فيه تقصير . وفيه سهو . وفيه خطأ غير مقصود . ولكن ليس فيه قصد الإساءة الى أحد بل نية الخير للجميع . فإن لم يعترف لي أدباء المهجر بهذه النية الحسنة ، فياضيعة الجهود ويا خيبة الأمل !

لن يصبح كتابي وافياً إلا متى أصبح التعاون معي كافياً . اني بكتابي هذا لم أبن سوى الدور الارضي من تاريخ الأدب المهجري ولن ترتفع الطبقات ويكمل البناء إلا بأيدي المهاجرين أنفسهم متى اهتموا بتزويد المؤرخ بكل شاردة وواردة من أحوالهم وأعمالهم . عندئذ لا عذر للمؤلف إن قصّر في الإعلام وأغفل فريقاً منهم . أما الآن فكل خطأ أو نسيان أو تقصير يصدر عنه سببه الجهل . والجهل وحده . فليتق الله المشككون .

كانت الأقطار العربية بحاجة الى هذا الكتاب . ولولا ذلك ماتوالت طبعاته . وكان صدوره تكريساً وتذييعاً لأدب المهاجرين في بلدان قصية لم تعرفه من قبل . قرأوه في مكة والمدينة والطائف والظهران . وقرأوه في

بغداد والنجف والبصرة والسامراء وقرأوه في الكويت والبحرين والشارقة وعمان . وقرأوه في الرباط والجزائر وتونس وبنغازي والبيضاء والخرطوم . هذا عدا عن الديار المصرية ولبنان وسورية والاردن واليمن . فليس من الانصاف نكران الخدمة التي اداها. بل يجب تقديره من الناحية الجماعية ككل، لا من زاوية الفائدة الشخصية فحسب . يكفي ان نقارن مكانة الادب المهجري في مصر اليوم بما كانت عليه قبل المعارك التي ثارت حول هذا الكتاب، للاقتناع بعظمة الخطوات التي خطاها ادب المهجر في اكبر قطر عربي .

مع ذلك انا اوافق من يقول اني غير كفء لهذه المهمة الكبيرة ولا ألوم من يعرض عن كتابي باشمئزاز ولا يتنازل الرد على رسائلي وهداياي بكلمة . ولكني اقول له ولأمثاله : انتم عندكم الكفاية من العلم والمال فلماذا لا تتآزرون وتقدمون على العمل بجد فتصدروا كتاباً افضل من كتابي ، لا تنسون فيه اديباً ولا متأدباً ولا تخطئون في التقييم والتحليل كما اخطأت انا . ان كانت عزيمتكم قوية كغطرستكم وباعكم طويل كلسانكم فنجاحكم مضمون بإذن الله.

**السهم الأخير**

كان السهم الاخير في كنانة السيدة مريانا قولها :

**لم تعد ظروف المهاجر كما كانت قبلاً والأديب المهجري لا يقبل التحدي . ونحمد الله ان ادباء مهجرنا لهم وزنهم الأدبي وسمعتهم الطيبة . فلا تستخفوا بهم . فدولتهم تتجدد مع الأيام .»** **(مريانا)**

لا ارد على التهديد المضمون في كلمة التحدي ، بل احوط رجلي بطوق من الزرد .. وأنام عن شواردها الى الأبد ...

ولكني ارد على الدعاية الصحافية لدولة الأدباء الجديدة . ليت البشارة

تصدق والفرحة تكمل ، فأ كذّب نفسي في كل مارأت عيني وكل ماسمعت اذني من دلائل الهمود والانحلال في ادب المهجر . ولكن كيف اكذّب اقوال الادباء انفسهم وعلى الخصوص الأقوال المنشورة في مجلة المراحل بأقلام الراسخين في العلم :

« الأدب المهجري في حالة نزاع » — المراحل عدد كانون اول ١٩٦٣ بقلم الياس قنصل.

« مأساة الأدب المهجري » — بقلم شاكر الدبس في عدد المراحل رقم ٩٧ . ومثله يقول الاستاذ المحقق داود جرجس الحوري في تأبين المأسوف عليه جورج حسون ( المراحل عدد ١١٦/١١٧ ) « ان الأدب المهجري يرى قواه تتضاءل ودولته يتقلص ظلها ويهددها الانهيار والزوال » ولم يمض ثلاثة شهور على هذا التصريح . فكيف بُعثت دولة المهجر ولم يدربها قلم تحرير (المراحل)؟

وأبلغ من هذا كلام السيدة مريانا نفسها في رسالة سابقة ، فاقرأ واعجب :

« ليتك بيننا في هذا المهجر الذي طغت فيه المادة على المعنويات وهزأت برسالة الصحافة التي هي المقياس الوحيد لمستوى المحيط الذي تعيش فيه وتريد له الحياة .

ليتك تشرف على هـذا الأدب الذي يحتضر في المقاهي والمناقشات الفارغة . حبذا ياشاعر الرقة والوعي والأديب المنتج الساهر على ادب امته لو زرتنا من جديد لتبث فينا هـذا الشوق العملي في حقل الأدب المهمل وتروي بمحبتك هذا النبت الذابل قبل ان يدركه اليبس .. الخ »

( مويانا )

هذا القول الجميل يغنيني عن الاسترسال . فلا اثبت هنا اقوال نظير زيتون وجورج حسون وشفيق معلوف وحبيب مسعود التي أدرجتها في كتابي.

لا اعتذر للأدباء الذين جهلوني وجهلتهم . ولكن يجب علي الاعتذار الى ثلاثة ادباء اعزاء نسيتهم ( وجل من لا يسهو ) . أولهم الصناجة عبداللطيف اليونس الذي لم افطن الى انه اعتنق الجنسية المهجرية . والثاني الاديب الشهم شاكر الدبس الذي قرّظ كتابي الذي غمّنته حقه واغفل ذكره . والثالث الدكتور سليمان داود الذي قرص اذني بيده الناعمة واستنزل علي المن والسلوى من سماء شعره عقاباً على خطيئتي في نسيانه . هؤلاء الاعزاء الاماثل لم يطالبوا برأسي كما يطالب به اشباه الادباء وانصاف المشاهير أو الذين لا أدب ولا شهرة لهم .

صديقي الحميم الاستاذ محمد عبد الغني حسن اصدر كتاباً قيما عام ١٩٥٥ عن ادباء المهجر ولم يذكرني بينهم . هذا لم يمنعني من ان اقرظ كتابه في محاضراتي وفي كتابي عام ١٩٥٦ . وفي هذا العام بالذات صدر كتاب الدكتور كمال نشأت في الموضوع نفسه وليس فيه ذكر لاسمي ، مع ان المؤلف عرفني في مصر وقرأ بعض مؤلفاتي ولكنه حر بالكتابة عن الكل أو البعض من ادباء المهجر ، مادام في الكتابة فائدة كلية او جزئية .

وختاماً يا أخي عبد اللطيف ، ان وسعَتْ أناتك هذا البيان الطويل وارتحت اليـه ، ثم خطر لك ان تقرأه على سيدتي وصديقتي اللدود مريانا ، فاهمس في أذنها قولي :

لئن ساءني ان نلتني بمساءةٍ لقد سرّني أني خطرت ببالكِ

باريس آذار ١٩٦٦ جورج صيدح

# اليوت شاعراً

للدكتور غسّان المالح

بوفاة توماس ستيرن اليوت في عام ١٩٦٥ ودفنه في ليتل كيدنغ التي خلدها في شعره فقد الأدب الانكليزي والعالمي أحد أركانه سواء في ميدان الشعر او المسرح او النقد، فقد رائدا لانهضة



**الشعرية الحديثة ليس في انكلترا فحسب بل في العالم أجمع وفقد ناقدا طبع بطابعه الكتابات النقدية لجيل بكامله وفقد مجددا في عالم المسرح أعاد اليه الشعر زاخرا حياً .**

ولد اليوت في مدينة سانتلويس في ولاية ميسوري الأمريكية سنة ١٨٨٨ في أسرة عرفت عددا كبيرا من الكتاب ورجال الكنيسة وكان ابوه أحد زعمـاء الكنيسة الموحدة في نيو انكلاند ورئيس شركة كبيرة لمواد البناء . أما أمه فقد كانت على قدر كبير من الثقافة تركت كتابا عن حياة والد زوجها وقصيدة طويلة عن حياة سافونارولا .

في عام ١٩٠٦ دخل توماس جامعة هارفارد ليدرس الفلسفة . وفي سنة ١٩١٠ ذهب الى باريز ليدرس الادب الفرنسي والفلسفة في الصوربون وفي ١٩١١ عاد الى هارفارد لينفق ثلاث سنوات أخرى فيدراسة الفلسفة والمنطق وعلم النفس واللغويات بما فيها اللغة السنسكريتية. وفي سنة ١٩١٣ عين مدرسا للفلسفة في هارفارد الا انه سرعان ماذهب الى المانيا ومن ثم الى الى انكلترا ليدرس الفلسفة اليونانية في جامعة اكسفورد وليستمر في كتابة الشعر . وبعد اكسفورد مارس اليوت مهنا عديدة منها التعليم في مدرسة هايكيت في لندن حيث قام بتدريس اللغة الافرنسية واللاتينية والرياضيات والرسم والسباحة والتاريخ والجغرافيا والبيسبول . الا أنه على مايبدو ضاق ذرعا بالتعليم فهجره بعد فترة وجيزة ليعمل في أحد المصارف . وفي ١٩١٨ تقدم بطلب للعمل في البحرية الامريكية الا أن طلبه رفض بسبب سوء صحته فانصرف الى الادب وعمل محررا في بعض المجلات الأدبية الى أن اصبح سنة ١٩٢٣ رئيسا لتحرير الكرايتيريون التي استمر في ادارتها حتى نشوب الحرب العالمية الثانية . ولقد كان حتى موته مديرا لدار النشر تسمى فيبر اند فيبر Faber and Faber تعرف بمستوى مطبوعاتها الرفيع . الا أنه خلال هذه المدة التي أمضاها في عالم الصحافة الأدبية كان يمارس الكتابة باستمرار حتى أنه منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٧ ووسام الاستحقاق order of merit ـ وهو ارفع تقدير يعطى للأدباء والمفكرين ـ في السنة نفسها .

ان أية دراسة لشعر ت . س . اليوت ، لايمكن أن تكون كاملة الا اذا بدأت بعرض الشعر الانكليزي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين لأننا عندئذ فقط نستطيع أن نحدد مكان اليوت في تطور هذا الشعر ومن ثم نستطيع أن نعلل المكانة السامية التي يحتلها منذ مايقرب من أربعين سنة في عالم الشعر الانكليزي بخاصة والعالمي بعامة .

حين بدأ اليوت الكتابة خلال الحرب العالمية الأولى كان الشعر الانكليزي يعتمد على مثاليات طورها في الأصل الشعراء الرومانتيكيون أمثال وردزوث وشيلي وكيتس وكولريدج في بداية القرن التاسع عشر وزاد في رسوخها ، معتمدين على النجاح الكبير الذي لاقاه هؤلاء ، شعراء العصر الفيكتوري كتينسون وبراوننغ وسوينبرن والى حد ما هاوزمان وبريدجز

وموريس الذين لم يتخلوا عن تلك المثاليات التي كانت تقوم على ما أسماه اليوت بخلق عالم من الأحلام. عالم من الأحلام لا يمت للعالم الحقيقي بصلة .

ولخلق مثل هذا العالم كان لابد للشاعر من أن يستعمل لغة وكلمات خاصة تساعد على خلق الجو المناسب فنجده يكثر من وصف الأزهار والندى والفجر والطيور والمناظر الطبيعية ومن التحدث عن الحب والجمال والروعة ويكثر بالاضافة الى ذلك من الكلمات الغريبة أو البالية التي تضفي « سموا » على القصيدة . بل ان الشاعر قد لا يجد الكلمة التي يريد في اللغة فيلجأ الى اللهجات المختلفة باحثاً عن الكلمة التي تعبر عما يريد نقله الى القارىء وفي شعر وردزوث خير مثال على هذا.

ان نتيجة مثل هذا الاتجاه في الشعر الذي بدأ كرد فعل ضد شعر درايدن وبوب والى حد ما كرد فعل ضد عالم القرن التاسع عشر المادي والصناعي كان في الانفصال الكامل بين العالم المادي المحسوس الذي كان لابد للشاعر من العيش فيه وبين انتاج الشاعر المعاصر الذي أصبح يمثل ابتعاداً بل هروباً من العالم الحقيقي . ان وليام بتلر ييتس ( ١٨٦٥ - ١٩٣٩ ) الذي بدأ شاعراً يعتمد على مثل هذه المثاليات عبر عنها جيداً حين قال :

« كنت أعتقد أن الأشياء الجميلة وحدها يجب أن تصور وان لاشيء يتمتع بالجمال سوى الأشياء العريقة في القدم ومواضيع الأحلام . »

الا أن ييتس في سنواته الأخيرة يختلف عن ييتس الشاب بل هو عندئذ مدرك لعقم أي شعر يقوم على تجاهل العالم المادي ولغة العالم المادي وأبنائه . لذلك نجده حين يكتب عن الجمال ثانية يكتب بلهجة تختلف اختلافاً كليا عن لهجته في المرة السابقة :

« ان الجمال ، كرمح في يد فارس ، شيء غير طبيعي في عالمنا هذا . » ثم اننا نراه ساخطا على لغة الشعر التقليدية يشكو من أنها « فصلت خياله عن الحياة » .

ولم يكن وليام بتلر ييتس أول من حاول ، في القرن التاسع عشر ، أن يسد ذلك الفراغ بين العالمين وأن يستمد مادة شعره ولغة شعره من الحياة اليومية العادية ولا أول من تظهر في شعره أشياء ما كانت تعتبر جزءاً من لغة ومادة الشعر التقليدية . ان ماثيو ارنولد ( ١٨٢٢ ـ ١٨٨٨ ) الذي هاجمه اليوت بسبب اشارته الى امكانية انفصال الشعر عن الايمان وجون هوبكنز ( ١٨٤٤ ـ ١٨٨٩ ) ـ الذي ألح على ضرورة استعمال لغة التخاطب دون النزول الى مستوى العامية في الشعر ـ سبقا ييتس في بعض هذه الانفلاتات من التقاليد الشعرية المعاصرة ولكن محاولاتهما ومحاولات ييتس لم تبلغ من القوة والنجاح ما يمكنها من فتح طريق جديدة ليدير فيها الشعر الانكليزي وان كان يمكن اعتبارها اشارات تشير في اتجاه مثل هذه الطريق . ان اتجاها جديدا للشعر الانكليزي كان ضرورة ماسة لابد منها اذا أراد ذلك الشعر أن يقف على قدميه ويحتل مكانة مرموقة في عالم الأدب الغربي . ولا بد من أن ينحو هذا الشعر منحى الواقعية وأن يقترب من العالم المادي الحقيقي .

إن عام ١٩١٥ ليشكل بدء المرحلة الجديدة المرتقبة وبداية ثورة شاملة على التقاليد الشعرية السالفة . إذ انه في هـذه السنة تظهر قصيدة ت.س . اليوت « اغنية حب ج الفرد بروفروك » لتتبعها سنة ١٩٢٢ قصيدة « الارض الخراب » التي يظهر فيها بصورة واضحة ذلك الانفصال الكامل عن مثاليات العصر الفيكتوري ذلك الانفصـال الذي نلمسه منذ البيت الاول حيث نجد اليوت يصف نيسان « بأشد الأشهر قسوة » وماهو إلا شهر الربيع الذي طالما تغنى سابقو اليوت به ووصفوا جماله .

أما الأرض . الأرض الطيبة الخيرة . فهي بالنسبة لاليوت ميتة وعقيمة وهي انما تعبر عن عقم الانسان الروحي وهذا العقم يظهر في شعر اليوت تحت اسماء كثيرة وصور عديدة فهو تارة صخر او رمال قذارة أو دخان أو قبح أو بغاء وتارة موت أو نصف موت . إن العالم ـ يقول اليوت ـ قد فقد قيمته ومثالياته وبذلك فهو غير خصب » وهو يعبر عن هـــذه الفكرة باستعماله صوراً مستمدة من طقوس الخصب البدائية . وهنا يجب أن لاننسى أن القصيدة نفسها أي الأرض الخراب تستمد اسمها من كتاب طقوس الخصب للآنسـة وستون كما يخبرنا اليوت في ملاحظاته الملحقة بالقصيدة .

ولكن لم هذا الاشمئزاز من حالة الانسان ومن حياته الذي يظهر في كل سطر من شعر اليوت تقريباً وخاصة في الأرض الخراب ؟ وهل من تبرير له ؟ ان العصر الذي بدأ اليوت فيه الكتابة كان عصر انتقال وتغيير كان لابد فيه من أن تختفي قيم كثيرة ثم انه كان عصر حرب. كانت اول حرب افناء تستعمل فيها أسلحة حديثة تفتك بالآلاف . تلك الحرب كانت سبباً في خيبة أمل الكثيرين من الادباء والكتاب . بل إنها كانت سبباً في ظهور عدد من الشعراء يسمون بشعراء الحرب ـ منهم ساسون واوين وروبرت بروك ـ صدمتهم وحشية الحرب وفظاعتها وفتحت أعينهم على حقيقة القتال فكان أن كتبوا قصائد كثيرة يتكلمون فيها ليس عن البطولة والشرف والتضحية بل عن الموت أو كما قال اوين عن الشفقة التي يجب أن تصاحب كل حديث عن الحروب. وفي الربع الاول من القرن العشرين نجد ان التغيرات التي تطرأ على الكيان الاجتماعي فتجزئه بالاضافة للازمات الاقتصادية وتزعزع العقائد، جعل الكثيرين من الشعراء يتكلمون بلهجة من فقد الأمل ولذلك نجد ان شعر تلك الفترة وحتى الحرب العالمية الثانية يتميز باليأس والتشاؤم . وكل هذا يصوره لنا اليوت في قصيدتين بالغتين في الاهمية همـــا : أغنية حب ج الفرد بردفروك وجرونتيون ( ١٩٢٠ ) . وفي كلتيهما نجد رجلا يتحدث عن نفسه ، عن خيبة أمله ، عن يأسه، عن تردده وخوفه . عن قلقه وعدم استقراره . واليوت انما يقدم لقارئه بروفروك وجرونتيون كنموذجين للفرد المعاصر ومشاعره .

أغنية حب ج ألفرد بردفروك تصور تصورات ومشاعر فرد يتميز بفقدان الثقة بالنفس ، بالقلق والخوف في طريقه لرؤية صديقته . ولكن ذلك لا يعني أن القصيدة تتبع نسقا منطقيا في الأفكار والصور ولا انها تنتقل من فكرة الى اخرى بشكل منهجي بل هي كالأرض الخراب وجرنتيون تجمع عددا من الصور والافكار لا ارتباط شديد واضح بينها ولكن أهميتها تكمن فيما توحيه للقارىء من تداعيات وايحاءات كثيرة تكون معا صورة لحياة بروفروك . ان المساء لا يوحي لبروفروك بالهدوء او السكينة بل انه حين يصف المساء لا يصف نجومه او جماله بل يشبه ، وقد غطى السماء ، بمريض قد خدر على طاولة ينتظر مبضع الطبيب . وهو لا يرى في طريقه الا شوارع مهجورة ، فنادق رخيصة ومطاعم قذرة،ولكنه يصمم على القيام بزيارته :

وفي الغرفة تغدو النساء وتروح

تتحدث عن ميخائيل أنجلو

والحديث عن ميخائيل أنجلو هنا مثال للطريقة التي يقدم فيها اليوت لقارئه صورا عن اشياء تتعلق بأرفع مظاهر الحضارة الفنية او الادبية ليقابلها بصورة فندق رخيص ، حانة حقيرة او شوارع قذرة وهذه طريقة لجأ اليها هنري جيمس في صورة سيدة مثلا وتوماس مان في موت في البندقية حيث يبران كلاهما عن كيف أن تراث الانسان الأدبي والفني قد أصبح بضاعة تباع وتشرى.

وفي وصفه للمساء والضباب الذي يخيم على كل شيء يؤكد اليوت حريته في اللجوء الى اي مصدر ليستقي منه صوره الشعرية دونما تمييز بينا هو شعري او غير شعري وهو في هذا ايضا حديث في حساسيته مخلص للعصر الذي يعيش فيه . وصف المساء وصفه لبروفروك وخوفه وانعدام ثقته بنفسه .

ولا بد من وقت

لأتساءل

أأجرؤ ؟ أو أجرؤ

ووقت لأنفلت عائدا

وأنزل السلم مسرعا

وبين شعري في النصف نقطة جرداء

وسيقولون : كم هي هزيلة ذراعاه ورجلاه

أو أجرؤ .

ثم يحدثنا بروفروك عن روتين حياته فهو قد عرف الاسباب كلها بل هو قد قاس حياته بملاعق القهوة دالاً بذلك على فراغ حياته وانعدام معناها . ويتابع تساؤله وحيرته وهو في كل ذلك يكشف لنا عن رغبته في شيء آخر أفضل وجديد ولكن القارىء مع هذا يلمس في شعور بروفروك نوعا من خيبة الامل ويجد أن خوفه وضعف ثقته بنفسه وتردده تستمر حتى النهاية :

وماذا اذا فرقت شعري الى الوراء ؟

أو أجرؤ على أكل ثمرة دراق ؟

سأرتدي سروال صوف أبيض وأمشي على الشاطىء

ولكنه يشعر أيضا باليأس فحتى جنيات البحر لا تلتفت اليه . انها تغني بعضها البعض أماله هو فلا أحد يغني :

ولقد سمعت جنيات البحر تغني بعضها لبعض

أمالي أنا فما أظنها ستوقع لحنا

ان ما يلفت اهتمام اليوت وتركيزه ليس مشاعر الشاعر بل القالب او الشكل الذي يضعها فيه، ولذلك فهو يقول بان على الشاعر بخاصة والفنان بعامة حين يريد التعبير عن مشاعره أن يبحث عن مجموعة من الاشياء او الحوادث التي تحملها هذه المشاعر، وهذا الاستخدام للكلمة او الرمز هو ما سماه اليوت بالرابط او البديل الموضوعي Objective Correlative الذي اصبح موضوع دراسات طويلة ومتشابكة، وقصيدة جرونتيون كغيرها من قصائد اليوت مليئة بتلك الصور والكلمات التي تعبر عن الكثير بايجاز ودقة .

في جرونتيون نجد عجوزا يتحدث عن نفسه وفي نفس الوقت يعبر عن أحد آراء اليوت الهامة : عقم الحياة دون ايمان . والطريقة هي مقابلة العالم المتواضع بل والحقير بعالم يسوده الايمان.

تبدأ القصيدة بوصف لجرونتيون :

وها أنا هنا عجوز في شهر قحط

مع صبي يقرأ لي . أنتظر الغيث

ثم يوصف لبيته المتداعي، والبيت بالطبع يمكن ان يعني أشياء عديدة عدا مكان السكن، فهو الاستقرار والامان وحياة الأسرة . ثم يلجأ اليوت ــ وهو الشاعر العميق التدين الانكلو كاثوليكي التعصب ــ الى الديانة المسيحية ليستقي منها صوره :

وفي ربيع السنة أتى المسيح النمر .

ولعله يريدنا أن نربط بين المسيح النمر والغيث الذى ينتظره جرونتيون .

وبما يقوي شعورنا هذا هو وصفه لحياة أشخاص ان اتصفوا بشيء فهو التفاهة والفراغ. أشخاص أشبه بأشباح لابد للسيح من أن يلتهمها .

في جرونتيون شعور ديني عميق يصاحبه بعض الأمل ومع ذلك فالعجوز ينتهي حيث بدأ فالجفاف مستمر وليس الغيث بقادم اليه :

سكان البيت .

خواطر عقل جاف في فصل جاف .

ان مايأخذه كثير من النقاد على اليوت هو أنه شاعر صعب وان شعره يستعصي على الفهم لتعقده وتشابكه بل وغرابته ويعطون مثلاً على ذلك قصيدته الشهيرة التي مكنت اسمه في عالم الشعر وهي بالطبع الارض الخراب . ان الشكوى المستمرة من صعوبة القصيدة قد جعلت اليوت يضيف اليها ملحقا يشرح فيه بضع نقاط فيها . والواقع ان الارض الخراب ليست بالقصيدة التي يمكن فهمها والاحاطة بكل جوانبها بعد القراءة الاولى بل لابد من قراءتها مرات عديدة والرجوع في كل مرة الى بعض من المصادر التي استقى منها اليوت مادة قصيدته . وان اليوت نفسه ليتوقع من قارئه مثل هذا الجهد الفكري ، خاصة وأنه كتب في مكان ما بأن الشعر الحديث لابد من ان يكون معقدا مادام ينتجه أفراد يعيشون في عالم كثير التعقيد كعالمنا الحاضر .

ان الاحاطة بكتاب الآنسة وستون عن طقوس الخصب شيء أساسي لفهم القصيدة مثلا ، ولكن هنالك أبياتاً كثيرة تدين تارة للكتاب المقدس كما في المقطع الثاني من دفن الموتى التي تؤلف الجزء الاول من القصيدة التي تتألف من خمسة أجزاء ، وتارة لدانتي الذي ساعد اليوت على تعميم مؤلفاته وتعريف الانكليز بها كما في وصفه للندن حين يقارنها بصورة غير مباشرة بالجحيم في الكوميديا الالهية . وتدين ابيات كثيرة لشكسبير كما في افتتاحية الجزء الثاني المسمى لعبة الشطرنج حيث يستعمل اليوت كلمات كثيرة استعملها شكسبير في انطوني وكليوباترا . ويستقي شاعرنا بعضا من صوره ايضا من كتاب القرن السادس عشر المسرحيين كوبستر وميدلتون ونجد في قصيدته بالاضافة لكل هذا آثارا وانعكاسات لبعض الافكار الصوفية المسيحيـــة والشرقية كالبوذية او تأثراً بشعراء القرن السابع عشر كدون ومارفيل .

أما المواضيع التي يعالجها اليوت في الأرض الخراب فهي لاتختلف كثيراً ، الا في طريقة عرضها ومعالجتها ، عن المواضيع التي نجدها في جرونتيون الا أن الشعور الديني في الأرض الخراب يصبح أكثر ظهورا بل اننا نلمس الحاحا مستمرا عليه وذلك شيء نتوقعه من شاعر قال مرة : لاأستطيع أن أتصور أن الشعر يمكن أبداً أن يكون منفصلا عن شيء أسميه ايماناً .

ان شخص المسيح مثلا يتخذ عدة أشكال في الأرض الخراب فهو تارة الرجل المصلوب

وتارة « الشخص الثالث الذي يشعر بوجوده ولا يرى » وأخرى « ذاك الذي كان حيا وهو الآن ميت » .

أما لندن مدينة الأرض الخراب فهي مدينة الفراغ والعدم مدينة « لاشيء » الكلمة التي يكررها اليوت بين الفينة والأخرى وخاصة في لعبة الشطرنج حيث يصف جانبا من الحياة في لندن في غرفة امرأة غنية مترفة لايعادل ترفها سوى شعور صاحبتها بالفراغ والعقم وفي حانة متواضعة حيث الجعة السوداء واصوات النساء وضحكاتهن . ووصف اليوت لكل هذا درامي مسرحي ، ان قصيدة الأرض الخراب بكاملها قصيدةدرامية الشكل يمكن أن تتخيل فيهاأشخاصاً تظهر لتتكلم ثم تختفي لتفسح المجال لغيرها، ولغة هؤلاء الاشخاص هي اللغة العادية اليومية التي نلمس فيها الصوت الانساني باستمرار وهذا الصوت يتغير تبعا لصاحبه والافكار التي يريد صاحبه ان يعبر عنها . ولقد وصف I. A. Richards – وهو من زعماء النقد الحديث في انكلترا – الارض الخراب بمقطوعةموسيقية من الافكاروالصور . وليتمكن اليوت من خلق الوقع الموسيقي الذي يريد ومن تغيير هذا الوقع تبعاً للفكرة فانه قد أهمل التقيد بالقافيـــة ولم يسمح لبحور الشعر التقليدية أن تكبله فجاء شعره كما يقول اقرب الى الشعر الحر منه الى لون آخر الا أن اهماله القافية لم يصاحبه أي اهمال لموسيقية الكلمة بل اننا كثيرا مانجد القافية في منتصف البيت عوضا عن أوله ولقد تأثر اليوت في هذا بالشاعر جيرالد مانلي هوبكنز وبالفرنسي لافورج وبشعراء العصر الاليزابيثي المتأخرين وكذلك بعزرا باوند . والحاح اليوت هنا على موسيقيـــة الكلمة مرتبط بالحاحه على مايسميه بالرابط أو البديل الموضوعي* الذي تعرضت اليه قبل قليل ، فالفكرة لايمكن فصلها عن ذلك الاحساس الذي يجسدها وموسيقية التعبير هي مايمكن ان يخلق الاحساس الملائم للفكرة والمعبر عنها .

ولكن لنعد الى الارض الخراب ومدينتها حيث يسير نهر التايمز الجميل الذي رحلت عنه عرائسه والنهر بالطبع رمز للحياة الا أن الخيمة التي الى جانب النهر قد حطمت وهنالك جرذ يسير على الضفة،من الممكن أن يكون اليوت قد أراد به اي شخص يعيش على الارض الخراب. ثم ينتقل الشاعر الى وصف حياة اهل الارض الخراب الجنسية وهو يتعرض الى هذه الناحية في اكثر قصائده القصيرة التي سبقت الارض الخراب ونلت جرونتيون.انه يجدان علاقة ضاربةالآلة الكاتبة بصديقها الموظف قد اصبحت آلية كعملهما الآلي، ونسمع فتيات النهر يسردن قصص حيين وطيلة الوقت يرشح النهر زيتاً وقطراناً والمدينة ، مدينة الارض الخراب ، تبقى وهمية تقبع تحت الضباب القاتم الذي يغلف شذوذ أبنائها وركودهم ركود القناة التي لاتدر صيدا .

ان مايزيد في صعوبة شعر اليوت هو الثقل والتركيز الذي يحمله كلماته فيجد القارىء أن

---

* ستقدم (المعرفة) في عددقادم بحثاً خاصاً حول (المعادل الموضوعي) للاستاذ حسام الخطيب .

عليه أن يسير ببطء حتى تتكشف له تحولات وامكانيات كل من تعابيره . ففي الجزء الرابع من القصيدة المسمى الموت غرقاً نجد مقابلة مقصودة بين النار في الجزء الثالث والماء في هذا الجزء ولكن الماء ، وهو مصدر الحياة ، لايجلب للناس الحياة بل الموت . واليوت يعتقد أن لابد للحياة أن تأتي عن طريق الموت فحالة الانسان الحاضرة هي « نصف حياة ونصف موت » لذلك نجد أن في شعر اليوت عامة رغبة ملحة في الموت او في الموت الذي يجلب الحياة :

**وكم سيسعدني موت آخر .**

أما في الجزء الاخير من الارض الخراب ، المسمى (ماقاله الرعد) فان اليوت يعود الى طرق موضوع القحط والجفاف الذي لايزال يلمسه في حياة الانسان المعاصر وهو يلجأ للصخر والرمال ليدل على هذا القحط والعقم . والجفاف هنا يحمل معنى العطش للايمان والدين :

**لاماء هنا بل صخور فقط**

**صخور ولا ماء . والطريق الرملي**

**يتسلق ملتوياً بين الجبال**

**بين الجبال الصخرية التي لاماء فيها**

**ولكن بين الصخور ليس لأحدنا أن يقف أو يفكر**

أما الجبال فهي ميتة لاتفجر نبعاً والأفواه نخرة لاتبصق ، والآبار ناضبة وجسر لندن ينهار ينهار ، والمعابد خاوية تخفق في أرجائها الرياح .

ويعود الى المدينة ، الى لندن وسواها، فيراها أبراجاً متداعية بل مدناً وهمية . ثم نسمع صوت الرعد ونظن أنه سيجلب الغيث والخصب ولكننا نجد أنفسنا مرة ثانية في موقف جرونتيون فالغيث لايأتي والقحط يستمر . وتنتهي القصيدة بجملة من اوبانيشاد أحد الكتب الفلسفية الهندية المؤلفة للفيدا أو المعرفة ويترجم لنا اليوت تلك الجملة بالسلام الذي يتعدى التفاهم وهي على الاقل تجلب شعوراً بالتفاؤل لانلمسه في أي مكان آخر في القصيدة .

ان الصبغة الدينية التي نلمسها في الارض الخراب تكاد تسيطر على القصائد التي تليها بل اننا لنسمع في اربعاء الرماد ( ١٩٣٠ ) ترديدات القسيس في صلواته ونشعر بأن اليوت يستمد الكثير من صوره فيها من كتب الصلوات كذلك نجد ان الوقع الموسيقي لبعض أبياته يشبه الترتيلات الكنائسية :

وصلّ لنا ربّنا — نحن الخطئين — صل لنا الآن وفي ساعة موتنا
وصل لنا الآن وساعة موتنا

وتنتهي القصيدة بدعاء حار :

أيتها الأخت المباركة ، الأم المقدسة . ياروح النبع والارض
لاتدعينا نشغل انفسنا بالزيف
بل علمينا أن نهتم وأن لانهتم
علمينا الهدوء
حتى بين الصخور
سلامنا في مشيئة الرب
حتى بين هذه الصخور
ياروح النهر والبحر . ياأيتها الأخت . يا أيتها الأم
لاتدعيني أنفصل
ودعي صوتي يصل اليك

وفي الرجال الجوفاء (١٩٢٥) التي يمكن اعتبارها نوعاً من المقدمة لاربعاء الرماد والتي تجمع يأس جرونتيون وعالم الأرض الخراب المتم نجد ان اليوت يكرر :

« لأن لك الملكوت »

بين صور لأرض الصبير ، للأرض الموات حيث النجوم آفلة والمملكة مملكة موت عجيبة .

في أربعاء الرماد نجد أن الاهتمام بالعالم الخارجي يقل وأن الشاعر يجعل مركز اهتمامه العالم الداخلي الروحي للانسان وهذا شيء يستمر في أكثر شعره الذي يلي أربعاء الرماد كما في أربع رباعيـــات ظهرت عام ١٩٤٢ والتي يعتبرها خير ما أنتج والتي يستعرض فيها الماضي ، ماضيه هو ، ولكن بالنسبة للزمان الحاضر أبداً الزمان الذي يجدد نفسه والذي لايميز فيه بين ماض ومستقبل . وهذه فكرة هامة لدى اليوت تتعلق بالتراث ، فالشاعر يستمد قوته من الماضي وبذلك يؤلف الشعر كما يقول « وحدة حية نامية لـكل ما كتب منه في الماضي » .

ولقد عبر اليوت عن هذه الفكرة في عام ١٩٠٧ في كتابه التراث والموهبة الفردية حيث يقول :

« ان الشعور التاريخي يتضمن احساسا ليس بماضي الماضي بـــل بحاضره . ان هذا الشعور التاريخي ، وهو احساس بالزمني والأزلي متحدين ومنفصلين ، هو مايجعل من الكاتب جزءاً من التراث . »

الزمن اذن هو مايصنع التاريخ وقيمة الزمن هي في اهمية لحظاته . في كلام الكورس ، وهو الجزء الوحيد الذي بقي لنا من أولى مسرحيات اليوت «الصخرة» ، نسمع مايلي :

وفي لحظة معينة أتت لحظة في الزمن ومن الزمن
لحظة ليست خارج الزمن بل داخله فيما نسميه تاريخياً
لحظة تقطع عالم الزمن وتتقاطع معه
لحظة في الزمن ولكنها ليست كلحظة من الزمن
لحظة صُنع التاريخ خلالها
فليس للزمن وجود دون معنى
وتلك اللحظة من الزمن هي التي أعطت المعنى

ان مثل هذه اللحظات في الزمن التي تعطي الزمن معنى وتصنع التاريخ ، تاريخ اليوت نفسه وتاريخ الانسان ، هي ما يحاول الشاعر ان يستكشفها وان يجد ترابطا بينها في الرباعيات الاربع التي أنفق في كتابتها ما يقرب من سبع سنوات والتي حقق فيها مزيدا من العمق والوضوح .

وهذه القصيدة تشبه الارض الخراب في انها تتألف من عدد من القصائد التي تبدو مستقلة ولكنها في الواقع وثيقة الارتباط بعضها ببعض . وكل قصيدة او جزء من الرباعيات الأربع تتألف بدورها من حركات اشبه ما تكون بالحركات الموسيقية . وكل جزء من الاجزاء الاربعة يحمل اسم مكان عرفه اليوت او عاش فيه اجداده او يرتبط بحياته او حيـــاتهم بصورة ما . وهـــذه الامكنة هي Burut Novron ، East Cocker , Little aiddinq Dry Salvges

ومادة القصائد تمتاز بتنوع كبير بحيث تشتمل فيما تشتمل – تجاربه الشخصية التي يحاول أن يربط فيما بينها : الحرب وقصف لندن من الجو . والصعوبات التي يواجهها الشاعر وطبيعة اللغة . وهذا المزيج العجيب من المواضيع يفوق الارض الخراب في تنوعه الا انه مع ذلك لا يفاجئنا بتنوعه هذا ولا نشعر بعدم ارتباطه ، فالتعابير والصور تتكرر والتجربة الواحدة نراها من جوانب مختلفة وضمن اطارات متعددة . وفي كل قصيدة او جزء اصداء من القصيدة السابقة ليس لها أثير التكرار بقدر مالها تأثير التأكيد والاتمام . واذا كان من رمز بقي غامضا في نهاية القصيدة لاولى

فان القصائد التالية تلقي عليه ضوءا يوضحه : وهكذا تفصح القصيدة عن معناها تدريجيا .

فمثلا نجد أن كل قصيدة ترتبط بأحد عناصر الطبيعة الأربعـــة بيرنت نورتون بالهواء ، ايست كوكر بالارض ، دراي سالفجز بالماء ، ليتل غدينغ بالنار .

وتجتمع العناصر في بداية الحركة الثانية من ليتل غيدينغ لتصبح رموزا ذات معان عديدة. فالماء والنار ليسا فقط رمزاً للغارات الجوية على لندن، بل هما ايضاماءالتعميد ونار التطهير . الماء رمز للحياة والنار رمز للفناء وللتجديد في آن واحد .

وهكذا نجد ان ما كان في اطار الزمن قد أصبح خارجه وما كان يرتبط بشخص اواسرة او شعب قد اصبح يرتبط بالانسانية جمعاء وان محاولة اكتشاف لحظات الزمن في حياة الفرد قد اصبحت بحثا عن معنى لحركة الزمن . وفي هذا المجال يقول ويليامسون : ان الرباعيات سلسلة من الصور التي تسعى لاستكشاف الزمن الماضي والزمن الحاضر لقصرمعناهما او سلسلة من الصور التاريخية التي تساعدنا على اكتشاف معنى الزمن وبالتالي معنى رحلة الانسان في هذه الحياة .

و «اربع رباعيات» قصيدة دينية تعد بين اعظم القصائد الدينية في الشعر الانكليزي، الا انها تختلف عن قصائد اليوت الاخرى التي تعبر عن شعوره الديني العميق في انها خالية من التعابير الدينية التي تسيطر على اربعاء الرماد مثلا . فاليوت هنا يلجأ لصور الظلمة والفراغ ليدل على حالة الانسان حين يكون بعيدا عن الايمان الروحي والديني، وفي هذا اخلات من التعابير المستقاة من الكتاب المقدس وكتب الصلوات . ولعل هذا التغير في اللغة والصور المستعملة هنا واختلافها عما سبقها يعود الى ان اليوت مارس، في الفترة التي انقضت بين كتابته لاربعاء الرماد ونشره لاربع رباعيات ، مارس الكتابة للمسرح الذي يتطلب لغة اسهل واقل تعقيدا . وهنا لابد من الاشارة الى أن اليوت كاتب مسرحي لعب دوراً هاماً في اعادة الشعر للمسرح، عن طريقة دعوته لعودته، وممارسته هو نفسه كتابة المسرحيات الشعرية . ولا تزال مقالته عن المسرح مرجعاً أساسيـــاً في هذا المجال .

وكون ممارسة الكتابة المسرحية قد أثرت على اسلوب قصائده الأخيرة شيء أشار اليه اليوت في مقابلة معه نشرتها قبل بضع سنوات مجلة باريز ريفيو التي يصدرها في العاصمة الفرنسية عدد من الأدباء الأمريكيين ، قال اليوت في هذه المقابلة :

« أعتقد أن ممارستي الكتابة للمسرح - وأعني كتابتي لمقتلة في الكاتدرائية وجمع شمل العائلة - أثرت على اسلوبي في اربع رباعيات لأنها أدت الى تبسيط في اللغة والى الكتابة بلغة اشبه بلغة التخاطب . بل كثيرا مايبدو لي أنني اعبر عما اريد قوله في اربع رباعيات مهما بلغت صعوبته

بطريقة أكثر بساطة من الماضي . والعامل الآخر الذي أدى الى هذا هو على مااعتقد مجرد الخبرة والنضج ، اذ أنني أجد أن المشكلة في القصائد الأولى كانت تكمن في عدم تمكني من قول ما كان يدور في خاطري . أي أنه كان لدي أفكار أردت أن أجد لها قالباً من الكلمات والموسيقى دون ان تكون لدي المقدرة على نظمها بشكل سهل الفهم بعيد عن الغموض . ان هذا النوع من الغموض لينتج حين يكون الشاعر لايزال في مرحلة تعلم كيفيةاستعمال اللغة ،اذ تجده عندئذ يعبر عن افكاره بطريقة أميل الى الصعوبة منها الى السهولة . »

إن الوضوح في التعبير هو أهم مايميز آخر ما أنتجه اليوت في ميدان الشعر وهو قصيدته في « الاهتمام بشجرة عيد الميلاد » ( ١٩٥٦ ) وهي قصيدة لانلمس فيها يأس «جرونتيون » ولاقحط « الأرض الخراب » ولا صورة الموت في « رحلة المجوس » ، بل هي قصيدة هادئة تفصح عن قبول للحياة وتفهم لها وأمل في خلق جديد وميلاد جديد . قصيدة لاتذكر الموت بل الحياة وتجد في شجرة عيد الميلاد تعبيراً عن مولد الحياة الجديدة . في القصيدة هدوء وسكون ورضى ، مشاعر كان شاعرنا يحسها عند موته، ولاعجب أن يحسها من حقق وانجز ماحققه توماس ستيرن اليوت .



## المراجع

1) Matthiessen, F. O. The Achievement of T. S. Elliot ( N. Y. 1959 )
2) Leavis, F. R, New Bearings in English Poetry ( London, 1954 )
3) Williamson, G, A Reader's Guide To T. S. Eliot ( N. Y. 1962 )
4) Durrell, L. Key to Modern Poetry ( London, 1952 )
5) Bradbrook, M. C. T. S. Eliot in «Writers and Thier Work» (London1950)



# همس الى الرجل الميت

قصة بقلم
فارس زرزور

قالت لي جدتي بصوتها الذي يخنقه الحزن :

— **هل انصرفت ياجدتي ؟.. تعال إذن .. لا . انتظر ..**

ووقفت خارج الغرفة اتلهى بقفل حقيبتي المدرسية ، فيا دخلت هي بعجلة . وسمعت من الداخل همهمة وهمساً يقطعها النحيب . كانت أمي تندب :

— **يقبر قامتي كل شيء مرتب وجميل .**

وخطر لي انهن يفرزن ملابسه . ولكن خالتي ازاحت هذا الخاطر عندما اضافت بنبرة متقطعة :

— **ولي على قلبي .. أأقل من جوزة آس ..؟**

وطرق سمعي صوت رفيع ناب يشبه صراخ الاطفال :

ـ لم لم تنتظروني يابعد عيوني يا أخي ..؟

وكانت جدتي لاتقول شيئاً ، ولكني سمعت لهاثهـا الى الخارج وكأنما كانت تقوم بمهمة شاقة . وهممت بالدخول فلماذا انتظر ..؟ واذا كانت هناك امرأة غريبة تخشى أن المح وجهها فستعرف انني ما ازال طفلا . فبنت جارتنـــا سامية لاتختبىء مني بل انها تظهر أمامي عارية في بعض الاحيان . ودفعت الباب دون احتراس ودخلت . قالت امي باهتمام :

ـ **انصرفتم ..؟**

وعقبت خالتي بلا اهتمام تقريباً :

ـ **يبدو انهم انصرفوا . أهلا ..**

وكانت بين ايديهن حزمة كبيرة من ذات الآس يعالجن ربطها من الوسط بمنديل ابيض كبير . يترفقن بها غاية الترفق ويعاملنها كوليد مازال لحمه مائعاً لم يتجمد . وتنبهت لأول مرة للمرأة الغريبة عندما نبحت علي حين غرة :

ـ **هل هو بكروك يافاطمة ..؟**



وردت أمي قائلة :

ـ **يوجد على رأسه واحد ..**

وفكرت أنا بضغينة ( انها تعني أخي الاكبر المحبوب ) .

وتأملتني العجوز الزائرة بنظرات متفرسة جامدة . ثم تنهدت بحسرة :

ـ **كلنا الى التراب ..**

وشدّت أصابع قاسية على قلبي وفكرت (ترى وأنا أيضاً..؟) واستعرضت مخيلتي تفاصيل جدّي الميت بلمحة . وأنا أخاف ـ كما أخاف الموت تماماً ـ أولئك العجائز اللواتي لايظهرن بغير المآتم ، وكأنهن أذناب عزرائيل . وبصورة خاصة تشاءمت من هذه المرأة الجنائزية ذات الصوت القاسي النبرات والوجه الشبيه بوجوه مغسلي الأموات . كان أنفهـا المعقوف وعيناها النصف مغلقتين وجلدها الاصفر

المروق ووجنتاها الناتئتان تذكرني بهيئة جدي الميت الملقى على لوح التغسيل قبل أن يحشى أنفه بالقطن . ولسبب ما حمدت الله على انهـا لم تشرفني بالقبلات كما هي العادة عند امثالها . ولكن روحي لم يسكن ، فقذفت بحقيبتي الى الارض وهممت بالخروج . واستوقفتني جدتي :

**ـ قف ألا تعرف قبر جدك ..؟**

وتسمّرت بمكاني . وانتقلت بافكاري الى المقابر . قلت لها طائعاً وكنت بالدرجة الاولى اودّ الهرب :

**ـ سأبحث عنه .**

**ـ انه لايضيع أحداً أسأل عنه الحفار .**

وقالت خالتي :

**ـ انه** عند قبر ابي ابراهيم .

ورددت بشيء من الحنق :

**ـ من هو ابو ابراهيم ..؟**

**ـ ابو ابراهيم سلف بنت خالتي .**



قالت ذلك بنبرة دهشة ( كيف لا أعرف قبر سلف بنت خالة .. الخ ) .

وهززت رأسي بحرون :

**ـ لا أعرف ..**

وقالت أمي :

**ـ أنا أدله . ألم تذهب مع الجنازة .؟**

وعرفت انها اجهل الجميع . وأعجبتني اللعبة فقلت :

**ـ نعم ذهبت ولكننا دخلنا وسط جيش من القبور والشواهد .**

وهنا وقعت ، فقبر جدي ما يزال حديثا ولم تنصب عليه شاهدة بعد .

ولكن واحدة منهن لم تكن تتمتع بذكائي . فقد صحن بنبرة واحدة :

ـ اسأل الحفار .

وكانت لهجة أمي باردة قاسية نافذة الصبر مما آلمني ( لا بد انها تحب أباها الراحل أكثر مني ) . وتوسطت العجوز وهي تلملم نفسها :

ـ أنا أذهب معه . وأزور قبر أخي المرحوم ..

حسنا اذن .. فهذه المرأة الشيطانية ليست غريبة ، انها اخته . وبالتالي عمة أمي ، وعمة أمي هي عمتي و .. احسست بالرعب . ( سأكون معها بعد قليل بين القبار وان قرابتها لي تزيد في سيطرتها علي والتصاقاً بي ) ووجدتني أصرخ دون وعي :

ـ لن أذهب الى المقبرة .

ولم يذهل صراخي أحداً ، بل زاد العجوز حنينا الى مرافقتي . فنهضت بخفة وتأبطت ساعدي بطريقة جعلت ركبتي تتخاذلان وان كانت فعلت ذلك بتحبب . ولكني تحررت من ساعدها بشراسة من يحس بالاختناق وهربت الى الخارج . وكنت ابذل جهدا لاخفي السبب الذي دعاني لهذا الاجراء الشاذ ، والحقيقة لم تكن لدي أية فكرة برفض الذهاب ، ولكن وحيداً .



كنت في ذلك الحين طفلا لدرجة ان الاحلام الغريبة كانت تنطبع في ذاكرتي الى امد بعيد ، وكانت شخصياتها تلاحقني حتى في أشد ساعاتي صحواً . وأعتقد أني رأيت هذه المرأة مرة في كابوس . كنت معها نسقط في هوة ليس لها قرار ، وعندما تشبثت بملاءتها السوداء كانت تخطفها مني بأظافرها الطويلة دون ان تأبه لزعيقي .

صحت من الخارج مغتنماً فرصة البلبلة التي حلت من جراء تصرفي غير اللائق :

ـ ها أنا ذا ذاهب وحدي فقد استدللت على القبر ..

ولم يجبني احد ، ولكنني سمعت نحيباً مجتمعاً خافتاً مختلف النغمات ، (لاشك اني لست السبب في هذه النوبة من البكاء فالنساء يبكين في كل مناسبة ، وهن على استعداد لان يخلقن في كل لحظة مناسبة خاصة للبكاء . )

وفتحت باب الحجرة لارى جرزة الآس الكبيرة منتصبة على الحائط ،ومن حولها جدتي وأمي وخالتي واقفات يبكين بأصوات تفتت الأكباد ، اما العمة العجوز فكانت تضرب صدرها بكلتا يديها وتهمهم بكلام منغوم مطرد غير مفهوم. وهنا احسست بأن دموعي تتساقط ، ورحت اشارك الباكيـــات بصمت . فقد كان الميت جدي وقد توفي البارحة . وكان البيت يموج بنساء يلبسن السواد ويتشحن بأغطية بيضاء . وكنت أنا أتلهى بمنظر الخروف الذي يذبح على باب البيت . وكان الى جانبي صبية كثيرون يسألونني :

ـ هل هو جدك ..؟



فأجيبهم فخورا :

طبعاً .. وان أمي وخالتي تمزقان ثيابها .

فيهزون رؤوسهم ويتابعون بشغف عملية السلخ . والآن أجدني أبكي بجد ونشاط . ولكن لا ، فقد بكيت أيضاً عندما رأيته مسجى في النعش ملفوفاً بغطاء أبيض . وبكيت أيضاً في مساء اليوم نفسه عندما رأيت أمي مقرحة الجفون . غير أني لم أنم تلك الليلة فقد كنت أراه في كل لحظة منتصباً أمامي بعكازه الطويلة . أما الآن فلا أدري تماماً لماذا أبكي ، ان هذه العجوز المفزعة أخت جدي والتي لم أرها في حياتي سوى في ذلك الحلم المخيف ، تريد أن ترافقني الى المقبرة وسنسير هناك وحدنا منفردين . وحمدت الله ، وتمنيت أن يدوم البكاء والنحيب حتى الغد.

ولكنني ظللت أبكي بصمت ، وتزداد دموعي غزارة حين كانت تلتقي عيناي بعيني أمي الدامعتين . وسحبتني جدتي من يدي وأوقفتني على الباب ، كنت أرتجف وأصوات البكاء ماتزال تطرق مسامعي ضعيفة واهية . وكانت العمة العجوز تصيح : ياأخي ياجنوني .. وجدتي وحدها تنتحب بسكون . وخفت أن يهبط الظلام قبل أن أقوم بالمهمة العتيدة الموكولة الي . فدخلت فوراً وسرت الى جرزة الآس وتنكبتها ، وكن جميعاً قد دخلن الحجرة ، وأغلقن الباب ، وأخذن يتحدثن عن مآثر المرحوم جدي بروية ومنطق . وصحت من الخارج :

ـ سأذهب .

قالت جدتي على الفور :

ـ الله معك .. لاتنس سل الحفار .

وتنهدت بارتياح . سأذهب اذن وحيداً . وسرت في الشارع وجرزة الآس تتأرجح فوق كتفي ورائحتها تزكي وتخزني . وكانت الشمس ماتزال تلهب الرصيف الأيسر من الشارع ، ولكن بيتنا الصغير الذي لايرى الشمس ، يهبط اليه الظلام بعيد أذان العصر . من أجل هذا نأوي الى فراشنا قبل أذان العشاء ونحن نعتقد بأن الليل قد جاوز منتصفه . وكثيراً ماأفيق لأجد جدتي تصلي ولم أكن أدري هل العشاء أم الفجر .

وسرت على الرصيف الأيمن بخطوات سريعة . ولكن لماذا ينظر الي هكذا هؤلاء الرجال الذين لايعملون شيئاً . كان أصحاب مخازن الحبوب قد رشوا الماء أمام حوانيتهم وجلسوا على كراسيهم الواطئة ، يشبكون أصابعهم حول ركبهم . ثم يدفعون الى الخلف بظهورهم ، وكروشهم المتخمة تتربع أمامهم . عملهم الوحيد أن يراقبوا المار بنظرات فاحصة وقحة بلهاء . انهم يستقبلون المار من بعيد ويظلون

يتفرسون في وجهه ، ويدققون في حركاته وخطواته حتى يتحطام ، فيتنحنحون ويبصقون . ويلتفت المار الى الوراء فيراهم مايزالون يتعقبون اثره حتى يقبل مار جديد .

يا الله ماأثقلهم .. ماذا يريدون مني ؟ انهم يحملقون النظر في وجهي ، ونظراتهم هذه تربكني وتجعلني أتعثر بأقدامي . ( لا بأس . انظروا الي ماشئتم أيها التجار أنتم يامن لاتحزنون . فأنا أحمل جرزة آس وهذا كل شيء .. وأنا ذاهب الى المقبرة لأضعها على قبر جدي . وأنتم تزعجوني جداً بحملقتكم وتخجلونني أيضاً . فليس بي مايستوجب كل هذا الاهتمام . واذا شئتم تفصيلا فان جدي مات بالأمس فجأة دون مبرر ولم يكن يستحق ،ذلك لأنه كان طيباً ورفيقاً بي ، وهو لم يخلف مالا على الاطلاق . وجدتي وخالتي وأمي في البيت يبكين عليه ومعهن امرأة غريبة تشبهه كثيراً وتدعي أنها أخته . وهي الآن تبكي وتضرب صدرها بالاضافة الى أنها مخلوقة مخيفة . ماذا تريدون أيضاً ..؟ )

كنت كلما جاوزت تاجراً برز لي تاجر آخر . يالشيطان ما أكثر مخازن الحبوب .. هاهو ذا رجل يقبع على كرسيه وهو يحك مؤخرته ببلاهة مستطيرة ثم يتفرسني بعينين نصف مفتوحتين . ها أنا ذا أمر من جواره ، انه يستوقفني بلهجته الكريهة اللامبالية :

– هل انت ابن الحجي ..؟

– لا .. ولكنه جدي .

– الله يرحمنا ويرحمه .

ثم بصق في الهواء :

– كان رجلا نادر المثال .

ويرجع الى مؤخرته يحكها بوقار : ( ايها الناس انظروا جيدا فانا لا أحمل سبت عرس ولا صندوق العجائب ، انني احمل جرزة آس .. لا تتظاهروا بالحزن فانا لست حزينا ولكنني مرتبك وخائف .. )

وصادفت أحد رفاقي في الصف ، كان يلعب الحجرة مع اخته الصغيرة . ها هو ذا يتوقف عن اللعب ويشير الي ، وها هي ذي اخته تتوقف ايضا . انه يهمس لها شيئا ثم يصمتان بحزن وكآبة صادقين . الآن اشعر ببعض العزاء . ( حقا ان جدي قد مات ، وهذا كما يبدو امر ذو أهمية ، يجب أن اعرف ذلك ) .

ومررت من جانب الصبيين وتأملتني الصغيرة بأسى واضح . يالله ما أجمل عينيها المعبرتين .. علها الآن تتساءل : ترى كيف يبدو من مات جده ..؟ وعادت الدموع تخضل عيني ثم تنساب على خدي . ان عيني الفتاة الجميلتين جعلتاني أبكي على جدي باخلاص .

وتجاوزت الصبيين ثم سمعت صوت حجرتها تتدحرج على الرصيف . فقد نسيا احزاني وعادا الى اللعب .. هاهي ذي مقابر البوابة . لقد دخلوا بالنعش من هنا ثم تفرقوا اشتاتا ، وكأن القابر قد فتحت ابوابها وهب سكانها وقوفا منتشرين صامتين . أما الآن فالمقبرة موحشة مقفرة لا يؤنس وحشتها ميت جديد . ان صمتها يبعث الخوف . ماذا لو استوقفني صوت أجهل مصدره : (الى أين ياشب..؟) يبدو أن قبر جدي مازال بعيدا . وأخذت أطوف في المسالك المتعرجة ، وأمر بالقبور الطويلة والقصيرة ، والشواهد الحجرية والرخامية ، وكل شيء منتصب أخرس .

( بسم الله الرحمن الرحيم . ياحي ياقيوم . زكية بنت احمد . ٢٧ رجب ٣٥٢ هجرية .. )

يقولون أن من يقرأ شواهد القبور يفقد ذاكرته . ولكن ماذا افعل مادامت مكتوبة امام عيني . ( ياحي ياقيوم .. يا .. )

ترى هل حقا ان سكان القبور يرون من تحت سراديبهم المظلمة ؟ وانهم برغم هذه الحجارة والطين المتراكم فوق عظامهم ، يمكنهم مراقبة القادم ، كما لو انهم يطلون على العالم من وراء نافذة من زجاج .؟ اذن استطيع ان اعتقد بأن أعينا كثيرة تراقبني من أوقاب فارغة سوداء . ولكن حمدا لله انهم لايتكلمون... وهبت نسمة صيف حارة ، فخشخشت بعض الاوراق الجافة ثم تطايرت من بين القبور كسرب من زرازير مجهضة الاجنحة . ان أكثر هذه القبور عارية من الآس . لعله ليس لها اصحاب يذكرونها في المناسبات الكثيرة وفي الاشهر الفضيلة أو ان اهل الميت قد شغلتهم امور الدنيا الفانية فنسوا فقيدهم منذ زمن بعيد ، أو انهم دثروا على بكرة ابيهم ودفنوا في حفر متفرقة من ارض الله الواسعة .وعلى كل حال ماهي فائدة الآس ..؟ هل حقا انه ينقل الميت من النار الى الجنة ويشفع له أمام الإله الجبار القاهر برغم ذنوبه وآثامه . اذن فمعنى هذا ان الفقراء جميعا سيذهبون الى جهنم وبئس المصير ، وان الاغنياء وحدهم سيسكنون الجنة . وعلى كل حال فانا الآن اؤدي لجدي خدمة جليلة . سيراني الآن اقترب من جدثه وأضع على رأسه شهادة الشفاعة . ترى ماذا يحدث لورأيته الليلة في منامي ؟ يقولون أن من رأى ميتا في حلمه معنى ذلك انه سيتبعه قريبا . وغصصت بريقي وتحلب في فمي سائل مائع . يجب ان أتخلى عن هذه المهمة وأعود على الفور . سأقول لجدتي اني لم اجد القبر ، او اكذب فادعي بانني نفذت المهمة على خير وجه . والتفتت الى الخلف فاحسست بالدوار . اصبح النكوص مستحيلا فقد حوصرت تماما بآلاف من القبور ، ومن حولي أموات لايمكن احصاؤهم . ماذا لو استفاق الآن أحدهم ؟

ـ قف .. قف ..

رأيت بالامس قبراً منبوشاً وفي داخله جمجمة يضحك صاحبها دون ان يعلم ضحكة ابدية ، لربما كانت أصفى من أية ضحكة قام بها خلال حياته . لقد حملت يوماً مثل هذه الجمجمة عندما امرني الاستاذ ان آتي بها من خزانة التشريح . لم اشعر حينذاك برهبة كهذه . وصحوت فجأة . اين انا الآن ؟ يبدو أنني ضللت الطريق . حسناً .. يجب ان استدل بأية وسيلة فبيننا كانوا بالأمس ينزلونه الى القبر كان المؤذن يقف بعيداً . وكنت أقف الى جواره اتطلع الى ذقنه الرفيعة بشعراتها المبعثرة ، والى كفه ذات الأصابع الثلاث وهو يضمها وراء اذنه. كان يرتفع فوق قبر مستطيل . فان وجدت هذا القبر لا أضيع . وتوقفت ورحت أبحث حولي . أين هو الحفار يا ترى ؟ وكدت أصرخ من الذعر ، وتسارعت دقات قلبي بعنف ، وتخاذلت قدماي تماماً ـ هاهو ذا رجل ينبت من الأرض ، من بين قبرين ، كأنه يصعد من أحدهما . انه يحمل على ظهره كيساً منتفخاً . ها هو ذا يتقدم نحوي بوناه ويتفرسني بنظرات ذليلة ، ثم ينحني ويلتقط عظمة مجهولة التاريخ ، يضعها في الكيس ثم يتابع تسلله . شيء وحيد يميز الآن هذا السكون هو ضربات قلبي التي بدأت تتباطأ .

اذا كانت شاهدة قبر جدي لم توضع بعد فهذا هو قبره حتماً ، لأن ترابه مازال رطباً . ولكن كيف أستطيع أن أغرس فيه جرزة الآس ؟ فلأحفر فيه حفرة . أسندت حزمة الآس على قبر مجاور ورحت بعزيمة وسرعة أحفر التراب بأصابعي .

اذكر الآن انني رفعت رأسي مرتين . أحسست في المرة الاولى بدوار خفيف ولم ألاحظ شيئاً . أما في المرة الثانية ـ كانت بعد فترة زمنية قصيرة جداً ـ

فقد ادركت بأن المساء قد هبطت على حين غرة وسواء كان ذلك وهماً أم حقيقة ، فان الذي حدث أني وليت هارباً اتعثر بقدمي ، واصطدم بشواهد القبور ، التي بدت انها تكيد لي ، وتناصبني العداء ، وتسد دوني المنافذ .

وما ازال حتى اليوم اتعذب . كانت جريمتي لا تغتفر . لم اغرس جرزة الآس على قبر جدي ، حرمته من زاد الآخرة . جعلته بسبب جبني يواجه مصيراً أسود .





# الفنون

## الكتاب والموضوعات

- معنى الرقص في المجتمع الافريقي
  للكاتب الصومالي الدكتور جون فياني
  **ترجمة حنين حاصباني**

# معنى الرقص

## في المجتمع الافريقي

للكاتب الصومالي الدكتور جون فياني
الترجمة عن الانكليزية حنين صاصباني

يحتل الرقص، في المجتمع الأفريقي التقليدي، مكاناً رفيعاً لا يدانيه في الأهمية أي فن سواه، على أن دوره يختلف أهمية وشأناً من مكان الى مكان ومن مجتمع الى مجتمع، ويتوقف الى حد كبير، على درجة تقدم المجتمع ومدى خضوعه للنفوذ الأجنبي، أمعن الافراد في مجتمع ما في التخلي عن تقاليدهم واتباع أنماط غريبة جديدة، قلت أهمية الرقص في ذلك المجتمع وانخفض شأنه فيه. ومن هذه الناحية، يمكن للمرء ان يقول – وهو مطمئن الى صواب قوله –



قناع رقصة افريقية

أن دور الرقص في الريف والمناطق الداخلية أكبر منه في السواحل ومناطق المدن . وذلك لسبب بسيط وهو أن السواحل والمدن خضعت لتأثير النفوذ الأجنبي أكثر مما خضع له سواها ، لأن موقعها الطبيعي أكثر تعرضاً لذلك ، وأسهل من حيث الوصول اليه والتمكن منه .

وبعد . فيمكن القول ، بصورة إجمالية ، أن الرقص مابرح سائداً على كل نواحي الحياة الأفريقية تقريباً . وليس الرقص هناك ضرباً من الترفيه ، ولوناً من الترف والمتعة كما هو الأمر في أرقى المجتمعات الحديثة . وانما هو في الواقع ضرورة وحاجة ، ويؤديه الافريقيون على أنه جزء من طقوسهم الدينية في جميع المناسبات من زواج وولادة وبلوغ وختان وموت ، وفي مهرجانات البذار والحصاد وحفلات الانتصار في القتال ، وفي كل مناسبة هامة من الناحية الاجتماعية .

بل ان الرقص أكثر من ذلك . انه جزء من الحياة نفسها . لذلك يمارسه جميع الناس هناك ، ويشترك فيه كل فرد من كل قبيلة وفي كل المجتمعات الافريقية ... كلهم يرقصون ، رجالاً ونساءاً ، وزعماء ، وكهاناً ، وعامة الناس .. والكهان بصورة خاصة يؤدون رقصات عنيفة مجنونة ، وقد أخفوا وجوههم وراء البراقع والأقنعة ، وما يزالون في القفز والرقص المنيف حتى تصبح أجسامهم في حالة غريبة ، وحتى يقعوا هم أنفسهم تحت تأثير الايحاء الذاتي ، فيأتوا بأعمال مدهشة خارقة ومرعبة ، فيؤمن أتباعهم أن لهم سلطاناً على القوى السرية فيخضعونها ويمسكون بزمامها ، علماً بأن الكهان في حاجة دائمة الى التفوق في هذه الرقصات الجنونية المرعبة كي يظهروا للملأ أنهم قادرون على أن يؤمنوا للناس أمنهم الروحي وطمأنينتهم النفسية اللذين يحتاجونها أشد الحاجة .

والواقع الحقيقي أن الرقص ليس منبهاً جنسياً فحسب ، كما تزعم النظرية الفرويدية . بل هو أحسن تعبير عن مشاعر الانسان العميقة ، وليس هنالك فن يدانيه في هذا التعبير عن الأحاسيس ، وفي تصوير الميراث الاجتماعي القومي . وهذا الفن المعبر ، قدره الساسة الأفريقيون حق قدره ، فنموه وعملوا على نجاحه وتطوره وبصورة خاصة ساسة جنوب أفريقيا ، وذلك قصداً منهم الى حشد التأييد القبلي في جانبهم عند مطالبتهم بالحرية والتخلص من الحكم الاوروبي .

• • •

وهناك رقصة معروفة باسم رقصة التقليد ، أو رقصة الهجاء والنقد السافر ، وهي عبارة عن خطوات وحركات جسمية تمثل تماماً هيئات وحركات موظفي الاستعمار . اذ يقلد الراقصون تقليداً سافراً متهكماً تلك الهيئة الفريدة ، هيئة الخادم والسيد في وقت واحد ، وهي الطابع الذي يميز المجتمع البريطـــاني في المستعمرات . كما يحاكي الراقصون أساليب افراد المجتمع ، وطرائقهم في المعيشة اليومية وتصرفهم في اعمالهم العادية ، وكل هذه السلسلة من الحركة والمشية والكلام ، التي ادت الى خلق عقدة العظمة في نفوس البريطانيين في المستعمرات ... واذا حضر المرء الاجتماعات السياسية التي يعقدها الافريقيون فلن يستطيع الا الاعتراف بالأثر الهائل الذي تحدثه هذه الرقصة في نفوس المجتمعين ، فتنتزع تصفيقهم الحار ، وتهيج عواطفهم وتبث فيهم نشوة وحماساً .

ولما رأى المستعمرون ما لتلك الرقصة من أثر مؤذ ( في نظرهم ) زعموا أنها تحمل الناس على عدم احترام النظام والقوانين ، وأصدروا امراً بمنع الرقصة في كل افريقيا وهددوا من يتحدى هذا الامر بالعقاب الصارم ليكون عبرة للسواء .

وفي معرض نيويورك الدولي اثار الراقصون الافريقيون اعجاب المشاهدين

ودهشتهم وبثوا فيهم هزة ونشوة ، بما ارتجلوه امامهم من بدائع هذه الرقصة ، رقصة التقليد . وقد قلدوا برقصاتهم المرتجلة بعض المشاهدين من زوار المعرض في مختلف اجنحته وأقسامه . فقوبلوا بالتصفيق الحار وبالاعجاب الشديد من قبل جمهرة المتفرجين .

## الرقصات التقليدية

وفي الرقصات التقليدية الافريقية تشترك كل عضلة من عضلات الجسم في كل حركة من حركات الرقص ، وفي كل ايماءة وكل اشارة منه . فاصابع القدم واليد ، والعنق اللدن المرن ، والعيون البراقة ، والاسنان الناصعة البياض .. كل هذه تساهم في الاداء المشترك وتتكلم بلغة واحدة وتبلغ رسالة واحدة .

وأما ثياب الراقصين فهي زاهية الألوان ومتنوعة الاصباغ . وقد صممت بحيث تتيح للابسها حرية الحركة وخفتها وسرعتها . وهي تتألف عادة من عصائب تتصالب على الصدر وتتحلى بالوشي واللآلىء ، ومن عصائب أخرى من جلد النمر تلتف حول الخصر ويتدلى منها طيات رقيقة من الفراء ، يضاف الى ذلك خلاخل من جلد عُلقت فيها اجراس وجلاجل صغيرة ، وياقة موشاة ، مزدانة بالخرز ، وخاتم أو حلق من فراء القردة البيضاء ، ويغطي الرأس ريش كثير قد جمل على شكل أشبه بعرف الأسد أو شعر رأسه ، يهتز الريش اذ يهز الراقص رأسه ، ويتـــدافع برشاقة وخفة .

## الملابس والواتوتسي

وان ملابس الرقص تختلف من قبيلة الى اخرى . ولكن هذا الاختلاف قليل ضئيل . أما الملابس التي وصفناها آنفا فهي بالذات ملابس هؤلاء القوم الطوال القامات الرشيقي الاجسام ، المدعوين بالواتوتسي . وهم من سكان جمهورية رَوَندا ،

وهي بلاد كانت سابقا في عهدة الامم المتحدة وتحت الادارة البلجيكية . وهؤلاء الناس ، كما يذكر القراء ، قد شغلوا وكالات الانباء واحتلوا مكانا بارزا في الاخبار مدة بضع سنوات خلت بسبب المعارك القبلية التي دارت بينهم وبين جماعة الباهوتو.

والواتوتسي يعدون من اطول شعوب افريقيا قامة. وقد يبلغ طول الرجل منهم ٢٢٥ سم . لذلك يبدون شعبا من الجبابرة او المردة لطول قاماتهم وجمال أجسامهم وشدة اسرهم .

ومن الطبيعي أن يكونوا أحسن الراقصين في افريقيا لرشاقة حركاتهم وطولهم الفارع . وهم يعيشون في مجتمع تسود عليه طبقة من العلية الارستوقراطية وبينهم جماعة من مهرة الراقصين المحترفين الذين يقومون بالترفيه عن الملك وتسليته.

وفي مجتمع كهذا لا يمكن أن يكون الرقص أمرا قليل الشأن . بل يكون فنا محترما له أصوله المتشعبة ومفاهيمه الخاصة في حركات الرقص وتشكيلاته .

ويقوم الراقصون من هذه القبيلة بقفزات مدهشة لما فيها من رشاقة وماتبلغ من ارتفاع ، حتى يبدوا وكأنهم يطفون في الهواء متحدين قوانين الثقل والجاذبية . وان أهم آلات القرع الموسيقي لديهم هي الطبول . وهم يأتون في قرعها بأفانين من النغم وضروب مدهشة من الايقاع . وان أساليبهم الفنية غير المألوفة في الايقاع والنغم ، والصرخات الوحشية الجنونية التي يطلقها مشاهدوهم تعمل كلها عمل السم المسكر ، حتى يتهاوى الراقص في غيبوبة غريبة .

وزعيم فرقة الرقص عندهم يرتدي ملابس مختلفة عن ملابس غيره من الراقصين ، فهو يأتزر بمئزر ، ويحمل على رأسه قلنسوة من ريش متموج ، ويحمل بيده عصا طويلة ، وهذه الاشياء ، بالاضافة الى غيرها من اجزاء ملبسه ، تصبح كلها وكأنها امتدادات طبيعية لجسمه . وهو يندفع الى أمام مهاجما ، ( في رقصة

الحرب والقتال ) ثم يميل منحرفاً مواربا ، ثم ينسحب متراجعا ، ويدور على نفسه دورانا سريعا كالدوامة ، ويعود بعد ذلك الى الهجوم ، ويطاعن ، ويخز ، ويضرب وهو في غمرة من جنون القتال الذي يبلغ ذروته ويحتدم احتداما شديدا عند الظفر على الاعداء فيدور الراقص على نفسه دوران النصر المنتشي وهؤلاء الراقصون يثيرون الشاهدين أشد الاثارة بسبب لباس رأسهم الفخم الرائع وثيابهم المزركشة الملونة ، وزينتهم وحليهم وبهرجهم ، ومافي خطواتهم وقفزاتهم من ايقاع غريب .

ونساؤهم مثلهم في اجادة الرقص ويزدن عليهم في أن وجوههن المستديرة ذات حسن محبب ، وجمال لطيف ، وأن كل حركة من حركاتهن يتجسد فيها الجمال والرقة والرشاقة .

## الأقزام

واذا سرنا جنوباً بعد بلاد الواتوتسي ، لقينا جماعة ( الأقزام ) المشهورين بوجوههم الطفلة واجسامهم الصغيرة . وهم يرتدون ألبسة لا تقل في ألوانها وأصباغها عن ملابس غيرهم من أفراد القبائل الافريقية المجاورة لهم . بيد أنها دون ملابس الواتوتسي في الترف والغنى ، ولهم اسلوب بالغ التعقيد في قرع الطبول لمرافقة حركات الراقصين ، ويتوصلون بذلك ، رغم ضآلة أجسامهم الى اثارة الشاهدين وهز مشاعرهم .

ورقصات الأقزام مشحونة بالكهرباء ، وبخاصة رقصاتهم الايمائية التي يقلدون فيها مصرع الفيلة . ولعلها اكثر الرقصات شيوعاً عندهم . وهي تعتمد على الايماء وعلى البساطة في الخطوة والحركة ولكنها ذات قوة مسرحية هائلة .

الا أن عيبهم الأكبر هو أنهم قصار القامة فليس لهم شيء من رشاقة القد وفراعة الطول اللتين يمتاز بها جماعة الواتوتسي الأرستقراطيون .

وفي الحقيقة فان الرقصات التقليدية آخذة في التراجع والتضاؤل في الأهمية والمكانة في مناطق المدن الافريقية . فلم يعد يؤديها الا القلائل من الناس ، ترفيها عن بعض الضيوف الأجانب أو كجزء من المهرجانات القومية الزاهية . فلم تعد هذه الرقصات التقليدية جزءاً من الطقوس الدينية ولم تعد أمراً ضرورياً في المناسبات الاجتماعية كالزواج والولادة وغيرهما .

ومع ذلك ، فما يزال الرقص أعظم وأهم المظاهر التي يحفل بها الشعب في المناطق الريفية التي تضم الأكثرية الساحقة من السكان في أفريقيا . وكل الناس هنالك ، سواء أكانوا من الفلاحين أم من الزعماء أم من الكهان أم من النساء ، كلهم يتعلمون الرقصات المعروفة المخصصة لمهنة كل منهم ، بالاضافة الى إتقانهم فن ارتجال الرقصات التي تلائم كل مزاج وكل مناسبة .

وفي كل اجتماع يعقد في تلك المناطق ، لا بد من ان يدور الرقص . ولا يقتصر ذلك على المحترفين والفنانين ، بل لا يقتصر ذلك على النازلين الى الحلبة دون سواهم . وانما يشترك فيه جميع المشاهدين فيصفقون ويصرخون ويقفزون واحياناً يغنون مجتمعين . فيخلقون بذلك الجو الحماسي اللازم ، جو الاثارة والهياج . وقد يقوم بعض المشاهدين بأخذ مكان الراقصين ليتيحوا لهم بعض الراحة . اما الاجانب فلا يشاركون مثل هذه المشاركة الايجابية الفعالة ، لكنهم يتذوقون كل ذلك ويتمتعون به ، وتبدو لهم هذه الحفلات وكأنها مسابقات للرقص أمام محكمين من الاجانب ، اكثر منها حفلات ترفيهية تقام اكراماً للضيوف الغرباء .

## هاي — لايف

وفي غانا وغرب افريقيا ، حلت محل الرقصات التقليدية رقصة جديدة

تعرف باسم الهاي لايف ( أي الرقصة الارستقراطية ) وهي اكثر من غيرهـا اثارة وأشد تشويقاً بالنسبة للافريقيين والاجانب على السواء . وهي شـائعة في مناطق المدن ، محببة عند ساكنيها .

وقوامها مزيج من الخطوات التقليدية المقدة ، وقرع الطبول الشديـد الوقع ومن الرقص الغربي المتأرجح المعروف باسم ( السوينغ ) ، بمصاحبة موسيقى الجاز . وقد زادت آلات الجاز المختلفة مهارة الافريقيين في ارتجال الرقصات، واتاحت لهم امكانيات أكبر، وفتحت أمامهم آفاقاً أوسع، كي يطلقوا العنان لمشاعرهم الداخلية، كما أنها اضفت عمقاً جديداً ومقدرة اكبر على ارتجال الرقص الافريقي الحقيقي .

ورقصة الهاي لايف شائعة جداً في افريقيا الغربية ، في مدنها وريفها على السواء . وهي تتمتع بشعبية هائلة لدى جميع الناس هناك . ويحاول الموسيقيون الشبان ، بكثير من الجدية والدأب ، خلق أشكال جديدة من الرقص ، وذلك بالاستفادة من التكنيكية الاوروبية في تطوير رقصاتهم التقليدية المتنوعة، الزاخرة بالحركة والاثارة. وبذلك تم التوفيق بين الاساليب الايقاعية القديمة وبين الآلات الحديثة وتنظيم الايقاع ، وترقيق اللحن . وان التوفيق بين كل هذه الميزات يفتح مجالات جديدة ويتيح امكانات واسعة امام خلق رقصات ثورية جديدة ذات محتوى افريقي غني ، وقد تكون جزءاً من الرقصات الشعبية التي ستقدمها افريقيا الى العالم الحديث في مجال الرقص العصري .



## مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة - كل أربعة اعداد في مجلد واحد - وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجوة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .



يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق - مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

في أربعين رفيقة الحرف

# ماري عجمي

للدكتور كاظم الداغستاني



هكذا ، ومنذ أيام قليلة ، غابت عن دنيانا ماري عجمي ، رفيقة الحرف المرهفة وابنة الكلمة المشاف التي عاشت على بريق السطور وسحابة حياتها القاتمة ، وعلى النور ، نور الحرف يملأ عينيها اللتين ماعرفتا ابدا دموع البهجة أو الفرح ، ولا دموع الجزع أو الوجل .

الحياة ؟ ماهمها ابداً ان تذهب ، فهي منذ مستهلها لم تقبل ولا في ناحية واحدة من نواحيها . .

قمنا ، المرحوم احمد شاكر الكرمي وانا ، يوم ولدت صحيفة الميزان في دمشق ، الى دار صاحبة العروس ، نعودها لوعكة المت بها ، وقد كنا ، هو وأنا ، ولفيف من رفاقنا ، نكاد لا ننقطع عنها .

واستقبلتنا وهي تمسح بيدها على شعرها الاجعد وتقول : ليساعدكما الله على صحبتي ، فانا مابرحت اهمل هندامي حتى بت اخشى عقدة تتأصل في نفسي ، وكم تمنيت أن أعيش بدون جسد ، هذا الجسد الذي مابرح يعذبني فلا يدعني انساه ، ولا هو ينساني .

لقد كان لها في منتهيات العمر ، ماالشتهته ايام شبابها ، فبقيت حيناً من الزمن كتلة من روح ، تعيش لوحدها منطوية على همها ، وفي غير هذا العالم الذي نعيش فيه نحن معاصروها ابناء الجسد .

وهل انسى غداة رحت اودع المرحوم الكرمي قبل سفري للدراسة في فرنسا ، كيف اخذ يعيد لخاطري ما قالته لنا ماري عجمي ، عن الجسد يعذب صاحبه الذي اولع بالفكر فلا يدعه ينسى ، ولا ينساه هو ؟ . . لقد علمت اذ ذاك

وانا أتأمل صاحبي وهو يحدثني ، ان الكرمي سهر الليل كعادته ، قضاه وهو يكتب ليطلع الميزان الاسبوعي على الناس في موعده . واشهد ان شاكراً كان يحرر لوحده متحاملاً على نفسه ، وفي ليلة واحدة ، وبأناقة رائعة ، ما يعجز عن تحريره جماعة من قدامى المحررين مجتمعين ، رغم ما هو عليه من جسم نحيل ومرض لا يرحم ، وهكذا كان شأن زميلته الراحلة من بعده ، وهي على ما كانت عليه من هم وغم وضعف .

لقد استمرت الميزان تصدر وفيها اسماء كتاب احبهم القراء كثيراً ، وما كان اكثرهم الا مجرد اسماء صنعها صاحب الميزان ، ولقد سارت ماري عجمي في مجلتها العروس على هذا النهج ، فخلقت في دمشق كاتبات وشاعرات لا وجود لهن .

واشهد ان صاحبيّ الاديبين الجبارين ، ماري عجمي وشاكر الكرمي ، كتبا كثيراً من اجبهما بدمهما ، وما برحا يكتبان وهما يحسان الألم في دمهما ولحمهما ، لكنهما بقيا يكتبان فيكسوان حروفها لحما ودما ، وما ذلك الا ليرضيا ما تأصل في نفسيهما من هوى عنيف قديم للادب .

وكيف انسى يوم ذهبت لوداع الكرمي ، واكاد لا اذكر ماري عجمي الا وتعترضني ذكريات الكرمي ، لطول عهد عشرتي بالاثنين معاً ، فوقفت وانا انظر الى ذلك الجسم الناحل وهذا الوجه الشاحب الرقيق وتينك العينين الكبيرتين اتعبت اجفانها ليالي السهر ، ولكنها ما برحتا تشعان نوراً قدسياً ، فبكيت بكاء شهد الله كاد يكون نحيباً عجب له صاحبي ، فاستوضحني شأني ، ولعل بكائي لم يكن مبعثه الا ما هتف بي اذ ذاك من اعماق كياني من اني سوف لا القى هذا الوجه بعد اليوم ابداً . ولقد ذكرت صاحبي الراحل شاكر الكرمي كثيراً يوم

أتيح لي وحدي،ان ازور ماري عجمي بمدان انعزلت في دارها ، في اواخر سني حياتها، حتى تكاد لا تطلع على الناس ابداً ، فوقفت مترددا على باب البيت، ذلك البيت الذي كان ندوة لكثير من الكتاب والشعراء ، ثم وجدتني أحجم عن الزيارة حتى اكاد لا استطيعها مخافة أن أرى ماري عجمي على غير ما كنت احسب ،ومن الخير لي ان احتفظ بخيالها المحبب لنفسي منذ كانت تريد ان تتمشى ، كما كانت تقول ، فتأتي بذاتها الى مكتب الثقافة الدمشقية القديمة ، تحمل بعض مقاطع من شعرها تهديها الى المجلة واصحابها من رفاق الدرب وعلى شفتيها ابتسامة من طيبـــة النفس وطهرها ، لاأحلى ولاأبدع . وأجدني لاأعرف ماالذي اختاره من هذه المقاطع لقراء هذه الكلمة المجلى ، اذا لم تكن هذه الأبيات التالية الأخيرة من قصيدتها التي نشرت في الجزء السادس من الثقافة وعنوانها « صلاة الصبح » تلك القصيدة التي ارجو ان تكون قد لقيت بها وجه ربها الكريم الذي ابتهلت اليه فتتغمـــدها برحمته وحنانه :



انت تجلو عن العيون الظلاما ... انت تذكي نفوسنـــا إلهاما
انت اوحيت بالعبادة شعرا ... واقمت الهزار فينا امامـــا

انت اودعت في القلوب لهيباً ... وبعثت الجماد زهراً وطيبـا
من لتلك الاسرار غير صباح ... كنت منا يارب فيه قريبا



# مع توفيق قربان

من نخلة ورد - سان باولو - البرازيل



اول ما يبادر اليك منه ، يخيب سؤلك ... وقد جئت تقابل العالم اللغوي والبحاثة الاديب ، فينبري لك العملاق او ما يشبه العفريت في اساطيرنا القديمة .

تشعر امامه بشيء من الرهبة ، في جذورها ظواهر فيزيولوجية في الرجل ، في جسمه البدين ، في تقاطيعه العريضة ، في نبرات صوته الراعد ، وقد جاوز الرابعة والسبعين .

في سموته البدوية ، زادتها ألقاً ، ولا بد ، شمس البحار البعيدة التي اجتازها في اسفاره ومعاركه .

في الرجل صورة القرصان ..

ولقد كان في ميسور قدره ان يجعل منه قرصانا حقاً .. او يكون واحداً من هؤلاء الاشقياء المتمردين الشرفاء الذين أنبتهم لبنان في اوائل هذا القرن ، وكل قرن ، ثأراً لكرامة مضاعة وانتفاضة على ظلم .

كان بوسعه ان يكون انسانا من هذا النمط،لولا نعمة العلم ،وهذه البيئة الجدية الصارمة، هيأتها له الاسرة الراسخة جذورها في الشوير .

. . .

ما ضمني مجلسه مرة،فيهذا البيت الواقع في « ألـمَـيـْدا جاوو رقم٣٣٧ »، والذي انس، ايام عز الادب المهجري في سان باولو ، بقوافل من عظـــماء رجال العرب : شعراء ، ادباء ، مؤرخين ، وسياسيين ، الا وتسمرت عيناي في صدر القاعة ، عند صورة مكبرة لوالده الاستاذ داود قربان . السماحة ، الاستقامة ، سمو القصد ، آيات تعبر عنها بوضوح عجيب هــذه التحفة الفنية تشع بها العينان السوداوان والشفتان المطبقتان في رقة وعزم ، كمن انتهج طريقه واكتفى .

ونقلت للاستاذ توفيق ما اسره الي الرسم فامعن في نظره وتمتم بشيء ..

خلته يسألني ان كنت ارى على سيمائه هذه المعاني ..

وطالعتني صورة القرصان !

– كلا ! لا أرى ..

لم اقلها بالطبع ... كيف اجرؤ ؟



ومرت لحظة صمت ، ولا حرج . انسي الاستاذ قربان ما قاله لي مرة : « لولا العلم يا صاحبي ، لكنا من اضياف السجون » .

ولكن اي ايناس ورقة يشعان من محيا هذا الرجل عندما يستشهد في حديثه بأبيات من الشعر ، او قول مأثور . لشد ما تحيا الكلمات على شفتيه فتتجسم كائنات سوية . لا اعرف اديبا او شاعرا تهزه الكلمة المنظومة والفكرة الاصيلة كما تهز استاذنا قربان ، حتى ليتلجلج صوته من التأثر وتكاد الدموع تترقرق في عينيه .

ويأخذ باطراف الحديث بلهجته الجبلية الحلوة تمازجها لهجة اهل الساحل ، وقد صقلت اللهجتين الحياة في جامعة رأس بيروت ، فتتبدد من ذهنك لتوها صورة الدفريت او القرصان .

قلت اطراف الحديث ! كلا .. ان الاستاذ قربان ليمسك بتلابيبه ، واين المفر ، فلا يترك لجليسه مجالا للتنفس .. الا انه حديث غني طلي تحلي حواشيه تذكارات البرازيل خلال جهاد طويل مرير . اسفار واهوال ، وحياة ادبية محتدمة ، كثيراً ما رافق فيها القلم طلقات الرصاص ،

اقتطعت من عمر الفتى الصاب الذي كان قد ترك وظيفته في لبنان كأستاذ ومدير لكلية الشويفات ليضرب في مجاهل هذه القارة التي استهوت منه الخيال والمطامح .

ذاكرة طية . ذكاء . مواهب عقلية لم تطفىء من حدتها السنون . وحب العلم والادب لا يعادله حب .

ولعل الرسم الذي توخيت يكتمل بايراد هذه الحادثة الفريبة توضح جانب الشغف في نفس قربان وجلده العجيب على العمل :

انفراه مرة صديقه الشاعر القروي — العملاق الآخر طابت انسام بربارته — بنقد ترجمة « تاجر البندقية » وكانت قد ظهرت حديثاً بقلم الشاعر خليل مطران . وبدا له ان ينشر نقده في العدد الذي تختتم به مجلة الجامعة « الطلبة » سنتها المدرسية . ولم تكن لديه فسحة كافية من الوقت . كان عليه أن يودع رسالته في يوم معين الباخرة الايطالية التي تحمل البريد من مرفأ سانتوس . ظل اثنتين وسبعين ساعة الى منضدة عمله يقرأ ، يدون ، ويكتب ، فلا ينقطع الا لارتشاف قدح من الشاي البرازيلي ، حتى تهيأ له كتيب يقع في نحو سبعين صفحة . ودخل عليه القروي فرآه مستغرقاً مأخوذاً فلم يحيّ ، ولم ينبس بكلمة . تناول كتاباً وجلس يقرأ في زاوية . ثم مل فذهب في سبيله . وعاد في المساء فرأى قربانا في الجلسة ذاتها ، ولحظ ان احدى قدميه على الارض لم تغيرموقعها ، ولم يتمالك هذه المرة ، صرخ به معنفاً :

— شوف توفيق ، لو كان الامر بيننا ماسكة بالايدي وصراعاً بالاذرع لحطمت لك ذراعك . ولكن ، في ميدانك هذا ! كلا ، لا استطيع . ارمي لك عصا الطاعة .

وغادر القاعة فلقي زوجة الاستاذ قربان التي قالت له « مهمتنا في هذه الايام مواصلة توفيق باقداح الشاي » .

وشقي قربان في هجرته كأكثر الشعراء والادباء الذين شقوا . كان يقصد ، في « أبياسو » غابة تقع خارج المدينة ، يحتطب ، ليوافي اسرته بالوقود . لقد دفع ضريبة النبوغ والميزة في بيئة ألفت الفتيت والسهل فأمضها رؤية الصخور والقلاع . عاش في قوم تضنيهم العبقرية اذ تقزز نسيج حياتهم الوضيعة التافهة في مايسمون اليه من اسباب الرزق ، تأميناً لفريزة الضهلك في البداية ، وحباً للاكتناز بعدها ، لغاية الاكتناز وحدها .

لم يشأ أحد ممن كان يعاملهم قربان تجارياً ان يمد له يد العون . وكان احدهم صريحاً :

— وكيف بنا معه ان اضحى غنياً ؟!..

ولعلنا نجد هنا منشأ التهكم والسخرية التي لاذ بها قربان ترويحاً عن ذات نفسه ، أمام غباوة الزمان واهله وسخرية القدر .

وتوفيق قربان بعد ، رجل سعيد مكتف ، صحته جيدة ، ويعيش آمناً في محيط اسرته. ابنه البكر محام لامع . والثاني طبيب مشهور في فرع اختصاصه . وكريماته مثقفات . كل مايريده في الحياة ان يعطي ،لايهمه ان يأخذ . فهو يلقي بعدظهر السبت ، في احدى قاعات النادي الحمصي، الكريم دائماً ، دروساً في اللغة العربية ، بلا مقابل، ينهل منها من يريد .

اعود فاقول انه مكتف . فلتطمئن الحكومات العربية . عليها الامان ..

ولكن ...

لو كان قربان سويدياً او انكليزياً .

لو عاش في عهد المأمون مثلاً لكان له شأن آخر .

لو كان في هذا العصر بالذات « ارتيست » على الاقل .. للقي اميراً من امراء البترول العربي يغمز له بعينيه ، ولعله يظفر منه بكاديلاك ..

ولكنه اديب مهجري .. وعالم لغوي —— قد يكون من اعلم فقهاء اللغة العربية في كافة عصورها —— عاش في اوائل عهد نهضتنا الحديثة بعد ان ظفرت اكثر الدول العربية باستقلالها وباتت تتطلع عملياً الى التطور والسؤدد والمنعة ، فتتعثر حيناً وتلتوي بها السبل احيانا ، فوضع للعرب ، مع من وضع ، احدى المقومات الرئيسية ، قاعدة البنيان لوحدتهم الحقيقية ، والتي لاتقبل ردة او نكسة . كشف لهم اسرار لغتهم العظيمة ، ودلهم على مواطن جمالها وعبقريتها .

وقد اكتحلت عيناه في مهجرته برؤية اعلام الدول العربية تخفق على السفارات والقنصليات المالكة سعيدة في البرازيل ..



وكان الرجل جاداً في تحقيق ماعقد عليه العزم . اخـــذ يدرس التركية منذ المدرسة الابتدائية . ودرس ، في سن الشيخوخة ، حروف اليونانية والعبرية للاستعانة بهـــا على درس الاصول العربية . وكان قد تملك من الانكليزية والبرتغالية كلاماً وكتابة وخطـابة . وتعلم الفرنسية والاسبانية للدراسة والبحث ، والالمانيـة المصلحة التجارية كبائع متجول في مناطق الجنوب الآهلة بالالمان . واستهواه دانتي فتعلم الايطالية لدراسة شعره . وقد القى مرة محاضرة طويلة في موضوع الكوميديا الالهية فذكر سبعة واربعين مشهداً من القرآن وردت كلهـا في اهزولة دانتي . وقد اثبت في دراسته ، معتمداً دراساته السابقة في الموضوع —— المبنية على مارآه في تفسير محيي الدين العربي الاندلسي لـ : « ا . ل م » في اولسورةالبقرة —— وبحوث كبار المستشرقين وفي مقدمتهمالاب: «ميكيلاسيناي بالاسيوس Miguel Asin Y Palacios » الاسباني و « بلوشي Blochet » الفرنسي ان الشاعر الايطالي قد اقتبس الرواية من حديث المعراج النبوي ورسالة الغفران لابي العلاء ومن تفاسير محيي الدين ابن عربي لآيات القرآن .

اما آثار الاستاذ قربان في حقلي الادب واللغة فمنثورة في كتب ومجلات قوامها بالبرتغالية:
**السوريون واللبنانيون في البرازيل** وقد قال فيه المؤلف الاميركي « نولتون Nolton »
« ان هذا الكتاب يصح الاعتماد عليه » ، **ومقالات وترجمات ، ومجموعة خطب لنعمة يافث**
ومحاضرات كثيرة ألقيت في قاعة بلدية سان باولو وفي المدن الداخلية منها : الامة العربية من قبل التاريخ الى ظهور الرسول .

وبالعربية : مقالات متنوعة نشر اكثرها في مجلة « الشرق » وقصص ذات طابع بدوي ، حري بها ان تضم في مجموعة . كتاب : **منابت الصهيونية** وفيـه تحليل وتشريح نوري لاصول الصهيونية حري ان يطالعه كل عربي متطور . خطب تأبينية في كبار رجال العرب مثل الشريف حسين ، سعد زغلول ، البطريرك غوريغوريوس ، فارس الخوري ، تناول فيها سيرتهم من ناحية المبادىء التي كرسوا حياتهم للعمل من اجلها . وابحـاث واكتشافات في فقه اللغة منهـا الطريف ، العبقري ، كبحث موضوعه فساد القول في نون الوقاية . وبحث نبرة الصوت على المقطع العربي نورد منه هذه الفقرة ، على سبيل الدلالة : « اما العربية فالنبرة الصوت فيها قاعدة ، لأن مقاطعها خلايا جسم حية لاتحتاج الى علاقات وذلك لان حياة المقطع انمـا هي في بنائه . وهذا ماجعل محرر « لاروس الكبير » يقول : ( ويتلاعبون — يقصـد العرب — بالمقاطع تلاعباً عجيباً اخترعوا اوزاناً شعرية لامثيل لها ) » .

ومن أجلّ ما ألفه الاستاذ قربان أثراً كتاب «تعليم اللغة العربية لابناء اميركا الجنوبية» . وقد اهدى حقوقه الى النادي الحمصي الذي يعمل على طبعه وتوزيعه مجاناً . ويتألف من حلقات عشر ظهر منها حتى الآن ثلاث — والرابعة تحت الطبع — ويرى فيه مؤلفه اكمل كتـاب لتعليم العربية بلغة اجنبية .

كما حداه ماشاهد من اخطاء في معاجم العربية ، قديمها والحديث ، ( وهو يسرد ارقاماً : ٢٠٠٠ في « لسان العرب » / ومثلهـا في « الفيروز بادي » / ٦٠٠٠ في محيط المحيط / ١٠٠٠٠ في « اقرب الموارد » / و « البستان » الذى حافظ على اخطاء سابقيه اضاف عليها الكثير من دماغ صاحبه ) واخطاء والحرافات في الشواهد ، التي لاتصح كشواهد — كل هذا حـدا استاذنا قربان على تأليف ما ادعوه بوصيته الكبرى . وهو معجم ضخم جامع أراد له أن يضم زهاء المئة الف كلمة من الفاظ اللغة العربية ، مع شواهد من الادب العربي منذ الجاهلية الى اليوم ، نثراً وشعراً . وقد تصور لمصنفه العظيم طبعة فنية أنيقـة تزين صفحاتها وتتكرر ، على الهوامش ، اهم قواعد اللغة مرسومة او مصورة بكليشة ( راسوم كما يدعوه ) .

على ان العمل على تصنيف هذا المعجم توقف — قبل سنة — لسوء الحظ . ولهذا قصة طويلة ، مأساة بجملتها ، ليس لها مكان في التقديم لهذه المقابلة .

## س ١ – كيف تتصور نشأة اللغة في الزمان والمكان ؟ وفي أي عصر وصلت الى ذروتها ؟

ج١ — ان ما اتصوره ـ وهو مالا افرضه على احد بل اعرضه عرضاً ـ من نشأة العربية نشرته من زمان طويل تحت عنوان « حكاية كيف كانت البداية » مرة و « اصلها يمني » مرة اخرى، فلم ارض القائلين بالتوقيف و « القريشية » ـ على انني عازم على اعادة نشر المقالة مع شيء من الاضافة لان قسما كبيراً من قراء اليوم كانوا دون سن المطالعة يوم نشرت .

نشأ شعبنا في بر الشام : من الساحل الى سهول دمشق وحمص الى الفرات وكانت لغته الشامية اي الآرامية القدمى ( تمييزاً لها عن لغة مملكة أرام الدمشقية في الالف الاول قبل الميلاد) لغة « قحطان » وهي التي سماها الالمان Die Ursemitische Sprache اي السامية « الام شاء »، وكانت هذه اللغة خالية من الحروف الآتية : ثاء ، ذال ، ض ، ظ ، غ ، جيم شَجَرِيَّة . همزة ( أي علامة او حرف مستقل للصوت المهموز في اول الكلمة وفي وسطها وفي طرفها ؛ لحرف العلة الذي تهمز كل اللغات في بداية الكلمة ولكن من غير صورة مخصوصة بالهمز ) .

فالذين تألفوا جماعات مستقرة على شاطىء المتوسط الشرقي اوجدوا المدنية « الفينيقية » ( وهو لقب اطلق عليهم بعد قرون ) واللغة الفينيقية ـ بنت الام الشامية ـ والذين « ارتحلوا شرقاً فوجدوا بقعة في شنعار اوجدوا المدنية البابلية ؛ وعلى لسانهم نشأت اللغة البابلية ، بنت الشامية الام ايضاً، غير ان الحروف المذكورة آنفاً ظلت البابلية والفينيقية وفروعهما خالية منها .

اما الذين رحلوا الى الجنوب فظلت القفار تدفعهم الى الامام حتى وصلوا الى ارض التَّيْمن ( الجنوب ـ حذفت التاء بمرور الزمن فصارت اليمن ) وفيها سهول وجبال عذيّة تنتهي عند بحر عظيم تهب منه الرياح المنعشة التي اطلقوا عليها اسم « النُّعامى » [ريـح الجنوب لانها ابل الرياح] ( والمقيم في أواسط شبه الجزيرة لايستطيع ان يقول ان ريـح الجنوب ابل الرياح بعد هبوبها على مئات الاميال من الرمال المحرقة ) .

والنعامى اسم مخرج من المركب الثنائي « ن م » ومعناه في الام الشامية « حياة، نفس ، هواء » ، من هذا المركب الثنائي اخرجوا في طور النشوء : نأم ونأمة ،نَجَمَ، نَحَمَ، نغم،

نادم ونديم ، تَسَمَّ ، تَنَعَّم وأنعام والنعامة (النفس الروح) والنغم الخ [ ألا ترى هذا المركب ن م في Pneuma اليونانية ومعناها الهواء ؟ ] .

ان ماتقدم واحد من الادلة على عملية النشوء التي كان لها دوران : الاول دور ظهور لغة عامية بجانب الشامية التي كانوا يستعملونها في الهياكل وفي المجالس العالية اي الآرامية القدمى [ ورد في الادب القديم : « وكانت لغة قحطان الآرامية » ] غير ان انحصار « الفصحى » بعد قرون في فئة قليلة وانتشار العامية التي نشأت هناك حملا يعرب ( قبل الالف الاول قبل المسيح ) على الامر بالغاء الفصحى واستعمال العامية في المجلس التُّبَّعي وفي الهياكل واهمها هيكل عشتار ( قصر غمدان ) وهو نفسه تكلم بالعامية وهو مستو على عرشه فجعلها لغة الدولة التبعية ( وهذا يفسر قول القدماء « وكان يعرب اول من نطق بالعربية » ) . ( تحريف يعربية ) [ راجع ابيات حسان بن ثابت في « الشيخ يعرب » ] .

عندئذ ابتدأ دور النشوء الثاني اي اجتهاد الكتبة والكهنة في ادخال الألفاظ العامية الى « الحمام » وابرازها مطراة مطيبة « صقيلات الترائب » . وفي هذا الدور الثاني شرع الكتبة والكهنة في أخذ الفاظ بسيطة من اللغة الأم ، ذات مقطع واحد او مقطعين ، واخراج افعال جديدة احتاجوا اليها ، لكل فعل معنى خاص ولها جميعاً معنى شامل ينظمها كما رأيت في ن م . مثال اخر : لفظة نَبُوْ معناها مرتفع ، عال ( ومن ذلك جبل نبو في التوراة High mount ) فقالوا نبأ ، نب ، نبت ، نبج ، ابنح ، نبد ، نبر ، نبس ، نبش ، نبض ، نبط ، نبع ، نبغ ، نبق ، نبك ، نبل ، نبه ، نبا . كذلك اخذوا رع الأرامية ( الم يكن اسم ابنة يعقوب حفيد الخليل ( رحمة ) وذلك قبل « انحدار ذلك الارامي التائه الى مصر » ؟ ثم الم يكن اسم احد جدود ابراهيم الخليل « رعو » ؟ ) فقالوا : رَعَبَ الكاهن ، رعج ، رعد ، رعص ( ارتعص البرق ) رعَّل مالَهُ ، رعم الشمس ، الرُّعوم (النفَس) ، الرعَن ، ارعوى ، رعاه ( حرسه ) . والسلسلة طويلة جداً ..

في ذلك الدور ، شجروا الجيم ( باللفظ المصري ) Guim ، Guimal ، Gamel فصارت جيما ( باللفظ السوري اللبناني ) وضخموا الدال الى ضاد والزاي الى ظاء ( فصارت زَلَّم ظلام ، على سبيل المثال ) كما كان جدودهم قد ضخموا التاء الى طاء والسين الى صاد . وبعد ذلك استلطفوا لفظ الثاء والذال والذين على السنة الذين كانوا يتاجرون معهم في البحر الاحمر والمحيط الهندي ثم همزوا واقتبسوا الخاء ايضاً .

كانت قوافل « الجزيرة العربية » تَتَشَجَّرُ مع اليمن وكانت قوافل اليمن تذهب الى جميع

أنحاء شبه الجزيرة . ولكن هذا الاتصال لم يكن كافيا لنشر اللغة التي نشأت في اليمن ـ على ان الحال تغيرت بعد انتقال خزاعة من اليمن الى مكة وصيرورتهم سدنة الكعبة ـ وكانت الكعبة تجمع أديان جميع القبائل ، والجملة التي ينطق بها عامي ليست مثل جملة تخرج من فم كاهن في المحراب في موقف صلاة او اعلان فتوى : هذا هو الاشعاع الادبي ـ ثم صارت الكعبة ملتقى الشعراء فما مرت اجيال قليلة الا وانتشار اللغة المنظمة قد تم .

ومرت الايام والوفود الى الكعبة يتناشدون الاشعار ويتناقلون الاخبار فاستمرت عملية النشوء في مكة بالحذف والتبديل والاضافة حتى بلغت الذروة الاولى من العلياء التي صعدت اليها ، في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد فصارت اداة صالحــــة لتأدية ادق المعاني ورسم ابهى الصور الذهنية ، وآلة موسيقية صوتها اوقع في النفس من « ترنم الدراري » لانها تسمع ادق منابض الفؤاد واسمى منازع النفس واي شاهد اصدق من شعر زهير وطرفة وامرىء القيس ، وبلغ كمالها انها كانت خير مؤد لابلغ العظات ومنتهى البيان الرائع : آيات القرآن الكريم .

وبعد ثلاثة قرون بلغت ذروة ثانية من العلياء ، ذروة أبي تمام والبحتري وابي الطيب ـ والتطور لا حد له ولكنه قد يكون الى الاسفل ـ ولولا افراد اجلهم واعلق عليهم الآمال لاشفقت على هذه اللغة من مأتمي هذا الزمان ومن الذين اصابهم في شعرهم ونثرهم داء « الهذَلان » .

**س٢ – في اي موقع تضع العربية بين اللغات التي تعرفها ؟ وما هي السبل الى جعلها قادرة على مرافقة العصر ؟**

ج٢ ـ اضع العربية في الطبقة الاولى وذلك لما وجدته فيها من ان كل ضوابطها ترجع الى مبادىء فلسفية او اصول منطقية ، وأعني بهذا العربية المخلصة من اباطيل الذين طعموها بجوازات وقويعدات لا فلسفة فيها ولا أصول ، تساهلا مع شاعر اخطأ ، جهلا او اضطراراً ، بدلا من ان يرفضوا بيت الشاعر ويحافظوا على نقاء اللغة . المجال لايسمح بالتطويل لذلك اكتفي بالقول : ان اللغة ليست انسانا مسؤولاً انما هي نتيجة عمل دماغ الانسان ، فاذا كنت ترى تأخراً في اللغة في عصر من العصور فذلك **قحط الرجـال** ولاعلاج إلا بايجاد معلمين فاهمين وعاملين بهمة واخلاص . معلمون من هذه الطبقة ينشئون رجالا ، اما اذا انصرفت المدارس الى كثرة عدد الطلاب وفخامة البنايات وضخامة الساقات واضجاج الاحتفالات « فالانتيج » سعادين مقلدة لايرجى « منها » خير .

**س٣ ـ كيف نعالج الأدب المهجري لنبث فيه بعض الحياة ؟ ألا تستطيع الحكومات العربية أن تعمل شيئاً ؟!**

ج٣ ـ الأدب المهجري خرافة . فأي اديب من ادباء المهجر ولد ونشأ في المهجر ؟ كل ماعندنا أدب سوري او ادب لبناني كتب في المهجر . انقطع « وارد » الادباء فضعف الادب العربي في

المهجر ، واذا اردت ان تنعشه بمجيء تلل وثبات جديدة فكأنك تدعو عليهم بالاخفاق والاملاق في الوطن لكي يلجأوا الى امريكا . اما انا فأدعو من اعماق قلبي ان يوفق الادباء في وطنهم فيظلوا فيه خادمين له نافعين ولو أدى ذلك الى اذلال الادب العربي في المهاجر واضمحلاله .

**س٤ ـ بماذا تنصح الشباب العربي الطامح الى المعرفة ، إزاء لغته وعصره وامته ؟**

ج٤ ـ نصيحتي ان يبذل الطالب في درس لغته نصف مايبذله في درس الانكليزية والفرنسية، وان يفهم الفرع الذي يدرسه فهماً يجعله يفكر فيه بالعربية كما يفكر عندما يحدث اباه وامه عن مأكل او ملبس . اذا فعل هذا وصار علمه « يجري مجرى دمه في مفاصله » فأنا اضمن دوام ارتقاء اللغة لان هذا ناموس طبيعي ، اللغة نتاج ادمغة الرجال .





# من كفاح ماري عجمي

بقلم عيسى فتوح



كتب الأديب الانكليزي وليم سومرست موم - قبل أن يدركه الأجل في « كاب فيرات » على شاطىء الريفييرا الفرنسي - في مقدمـــة كتابه « مذكرات أديب » سنة ١٩٤٩ :

« أنا اليوم رجل مسن ، لا أنافس أحدا ، انسحبت من المعركة ، واتخذت لنفسي جلسة مريحة على الرف ، فقد حققت كل ما طمحت اليه نفسي ، وقلت ما عندي ، ويسرني أن ادع مكاني في عالم الأدب ليحتله غيري ، فلا يليق بي الا السكوت . . يقولون ان جمهور اليوم

سريع النسيان ، واذا لم تنشر جديداً كل يوم ضاع اسمك من الذاكرة ، ولاشك عندي في هذا ، ولكني مستعد له. وعندما يظهر نعيي في جريدة التيمس سيضحك عفريت في سره ، اذ يسمع قائلاً : باه ! كنت أظنه مات من زمن ! » .

كلام سومرست موم خير مايصف لنا نسيان المجتمع ، والادباء خاصة ، ماري عجمي ، واعتقد الكثيرون انها ماتت ، حتى فوجئوا بنبأ وفاتها فعلا في ٢٥ - ١٢ - ١٩٦٥ ، وشيعت جنازتها المتواضعة في اليوم الثاني فكانت أكبر دليل على الجحود الذي يلاقيه الادباء في اواخر ايامهم ، وعلى العقوق المؤلم ليس في لحظة الموت الرهيبة فحسب ، بل بعد ذلك ، في المستقبل ... جنازة مشى فيها ستة عشر شخصاً من أقربائها فقط ، بينهم أديب واحد هو رئيس تحرير مجلة « المعرفة » ، رغم ان خبر وفاتها أذيع في صباح يوم وفاتها ، وقبل أن تشيع الجنازة بساعات عديدة .



وقبل أن أعرض هذه الصفحات المطوية من كفاح الآنسة ماري عجمي ، أحب أن اعرّف بصاحبة الصفحات ، وان كانت في رأيي غنية عن التعريف ، لأن نشاطاتها الأدبية والاجتماعية والصحافية ، قبل ان تعتكف في بيتها ، وتنطوي على ذاتها بسبب المرض ... هيأت لها كل الشهرة ، وجعلتها تقف باعتزاز في صف كل من : مي زيادة ، وسلمى صائغ ، وباحثة البادية ... فهي لم تول عنايتها قضية المرأة فحسب ، بل تعدت ذلك الى الاهتمام بحالة الأمة العربية إبان الحكمين العثماني والفرنسي ، فرفعت صوتها عالياً في وجه الطاغية جمال باشا السفاح ، دون ان ترهب مرة مشانقه التي كانت تذرع الساحات في دمشق وبيروت .. واتخذت من مجلتها ( العروس ) التي انشأتها عام ١٩١٠ رغم

الظروف القاهرة من سياسية ومادية ، أمضى سلاح تحارب به المستعمر ، وتنعي عليه تسلطه وفساده ... ولم تكتف بما كان قلمهـــا يصب من حمم ، ويشـــير من عزائم ، ويحرك من ضمائر ، ويحفز من همم ، بل فتحت صدر مجلتها لأحرار الفكر في شتى اقطار العالم العربي ، أمثال : فيليكس فارس ، وبترو باولي ، وجورج قصاص ، وأديب فرحات ، وسليم حمدان ، وجرجي نقولا باز ، وجبران خليل جبران ... فكان من الطبيعي ان تتعرض العروس الى المراقبة والتفتيش والمناهضة ، ومن ثم الى الاغلاق بعض الاحيان ، لأنها تشكل خطراً على سياسة الدولة الحاكمة !

ولدت ماري عجمي في دمشق في ١٤ تموز سنة ١٨٨٨ من أسرة حموية الأصل . نزح جدهـا الى دمشق منذ مئتي عام ، وتلقت علومهـا في المدرستين الروسية والايرلندية ، ونالت شهادتها من الثانية في تموز عام ١٩٠٣ ، وبعد أن مارست التعليم عاماً واحداً ، التحقت بمدرسة التمريض في الكلية الاميركية في بيروت ، إلا أنها لم تكمل دراستهـــا بسبب المرض ... ثم تنقلت بين سورية ومصر ولبنان والعراق ، حيث اشتركت في التعليم والصحافة والخطابة والأدب .



أصدرت مجلتها العروس لأول مرة من عام ١٩١٠ – ١٩١٤ إلا ان نشوب الحرب العالمية الأولى حال دون استمرارها ، ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها عام ١٩١٨ حتى استأنفت اصـــدارها بعزيمة صادقة ، ودأب لاأقوى ولا أصلب ، فعاشت في هذه الفترة الثانية سبع سنوات أخريات وبذلك يكون مجموع مجلداتها أحد عشر مجلداً ، خلال احدى عشرة سنة .

وبالاضافة الى نشاطاتها المذكورة ، فقد أنشأت مع نخبة من السيدات السوريات النادي النسائي الأدبي الذي استقطب خلال اعوام الحركة الخطابية في

المدينة ، وساهم في تطوير امكانات المرأة الأدبية والاجتماعية والثقافية ، كما كانت الآنسة الوحيدة في « جمعية الرابطة الأدبية » التي كان من أعضائها آنذاك : خليل مردم بك ، واحمد شاكر الكرمي ، وفاوس الخوري ، والشماس ابيفانيوس زائد وغيرهم ...

قال الشاعر ايليا ابو ماضي :

بنت سورية التي أبكي لها    همة الليث وروح الحمل
قد اضاعوك وما ضيعتهم    فأضاعوا كل أم ُمسبل

انها ماري عجمي الفتاة التي حملت المشعل ، وسارت تنير الدروب المظلمة أمام المرأة ، وتسير مع الرجل جنباً الى جنب ، تكافح وتناضل ، وتدافع بلسانها وقلمها الحر الجريء ، وترسل اذاعاتها وخطبها في الصالونات الأدبية ، وعبر الأثير ، وفي مجلتها العروس وغيرها من المجلات العربية ، التي كان يصدرها أحرار سورية ولبنان وفلسطين ، غير هيابة حكم الطاغية جمال باشا ، ولا جبروته ، فهل ثمة موت أقسى من حبل المشنقة ؟ وهل هي أعز وأغلى من صديقها وحبيبها الشهيد بترو باولي أو « الباتر » كما كانت تسميه ، يوم اقتاده زبانية الطاغية الى ساحة الشهداء في بيروت ليواجه الموت الزؤام ، وهو ينادي : « هلموا أيها الاخوان ، انها لأرجوحة الأبطال ، وأنت يا تركيا الشقية ، حياتنا في ظلك ممات ، ومماتنا في ظلك حياة ، فدونك اذن هذه الروح التي أقمت منذ عامين تحومين حول نزعها ، بكل مالديك من وسائل الاضطهاد ، وما عهد سقوطك ، حين تدوسك حوافر جياد المنتصرين ، ببعيد ، وهنيئاً لمن يعيش فيرى الرجاء » . وما أتم كلامه حتى أحيطت الحبلة بعنقه ، فرفس الكرمي بقدميه ، وهو يردد : « ومن لم يمت بالسيف مات بحبلة » ، وأظلمت في عينيه الحياة .

لقد استأثر الشهيد بترو باولي بأكثر رسائلها التي كانت تكتبها على ضوء القنديل ، وتبعث بها الى السجناء في عاليه ، وسجن جامع المعلق في دمشق ، تحملها بيدها ، فاذا ما استوقفها شرطي على الباب نهرته بعكازها الذي قلما فارق يدها ، واذا أبدى شيئاً من الوقاحة والغلاظة استعانت عليه بالمتنفذين من وجهاء البلد ، لتبلغ مآربها في توصيل رسالة أو حمل جواب ... وكثيراً ما استعملت قسطل الماء لإبلاغ الرسالة شفوياً الى أحد السجناء ، وهو في قاع الزنزانة !

كان بترو باولي ، الصحافي الناقد ، وكيل مجلتها في بيروت ، فلما هم بالعودة الى « بيت مري » ، حيث كان أخوه يعاني غمرة الموت خادعه شرطي ، واقتاده الى دائرة الشرطة ، فمكث ثلاثة أيام ... في تلك الآونة اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، فنقل السجناء - وبينهم الباتو - الى دمشق ، وعندما علمت به ماري أرسلت في طلبه ، وأشارت عليه بالهرب ، لكنه رفض لأنه لم يجن إثماً ، ولم يرتكب ذنباً من الذنوب ليهرب ... وهكذا بقي مرهوناً في سجن جامع المعلق ، لأن سجن القلعة كان قد ضاق وغص بالوافدين من أطراف سورية ولبنان ، ولما استبد الشوق والحنين بماري كتبت اليه تقول :

أخي السجين :

« اكتب اليك على ضوء القنديل ، ولكن ما ينفع النور اذا كان القلب مظلماً ، فالى سجنك لا الى صديق ، والى تعزية لا الى مسامرة . . .
التفت الآن ... أراك على كرسيك الطويل وهو عرشك في مملكة المجرمين ، تتلو على مسامعهم سمراً لطيفاً يخفف من بلوائهم ، فأنت في موقف قلما تسنى لكاتب الا أجاد في وصفه ، فلا تعبث بتأملاتك ، بل قيدها ، لأن الزمان قد قيد عليك الوجود بين المجرمين . لقد نسيت العالم مذ رأيتك على هذه الحال . .

خذ حريتي كحريتي ، ان شئت ، واعطني سجناً كسجنك ، لأني طالما عطفت واعطف على البؤساء ... اني لأحترم المجرمين ، لا لأنهم يسعون الى الاضرار بالغير ، بل لأنهم أقل تدليساً ونفاقاً من اولئك الحكام الشرفاء ... وانت اجفاني للرقاد ، فهل اودعك على امل اللقاء في غير الرياض والجنان ، وانما في قبو الويلات والظلمات ... فالى ظهر الغد ، الى اللقاء العذب والمر » .

أخي السجين :

« بعد ساعة او ساعتين سأكون عندك ، لم يحمل اليك البريد رسالة من ذويك ، لذا سأعوض عنها بهذه ، ليكون بين يدي شيء اقدمه لك ، فأكون المرسلة والرسالة والرسول . اتدري أنك في سجنك اكثر حرية مني ، وان السلاسل والاقفال التي يلفون بها ايدي السجناء ليست بأشد مما توجه الى ذاكرتي ... ؟ » .

« اتدري ، وانا هنا ، ولي ملء الحرية والتصرف ، لا تنصرف مخيلتي الا الى السجن ، مع انك وانت فيه تفكر بأمور خارجية عنه ؟ » .

لقد حملت ماري دمها على كفها حين اقتحمت على جمال باشا هيبته ، واستطاعت أن تقابله ، وهي المرأة ، وتناقشه في عدة أمور ... أبدت من الجرأة والشجاعة ما يخرج عن طور المرأة العادية ، واستطاعت اقناعه ورده الى شيء من الحق الذي كان لا يعرف الى قلبه سبيلا ، وخرجت من تلك المقابلة بمقال خطير ، وصفت فيه الطاغية وصفاً ظاهراً وباطناً ، ولم تتورع عن ذكر ادق التفصيلات ، حتى أوشك ان يؤدي بها الى الموت ، لولا أن الله سلم .

كما تمكنت ، وهي المرأة أيضاً ، من التوسط لديه في عرشه ذي المهابة والجلال بأمور شتى ، ولكنها لم تفلح في استدرار العطف ، واستماحة العفو من

قلبه الصخري لشهداء السادس من أيار ، وبينهم من تحب وتهوى ، فانطلقت ترغي وتزبد كالموج الهادر . سلاحها قلمها ، ودرعها لسانها ، وحنكتها وحسن تصرفها ... حتى اذا أطل صباح السادس من ايار عام ١٩١٦ ولاحت لناظريها المشانق البربرية في ساحة المرجة وساحة الشهداء في بيروت انفجرت كالبركان، تصب جام غضبها على جمال باشا وزبانيته ، وراحت تخاطب الشهداء الأبرياء :

أما تبرحون غارقين في رقادكم ايها النائمون ؟

أما تعبت اجنابكم وملت من اللصوق بالرمال ؟

قوموا فقد نمتم نوماً طويلاً

ان نفحات الربيع مالئة الفضاء

والاطيار تتسابق على الأفنان

والجداول تناديكم : أن هيا عودوا الينا

لقد كفى القلوب وجداً وأنيناً

قوموا فان الامة التي تعرفتموها لاتريد أن تتعرفكم

لقد اتخذت لنفسها أحباباً من بعدكم يراوغونها مراوغة الثعالب

وتجد لذة في امتصاصهم دمها

عودوا فقد عادت الورود الحمراء الى مآقينا

وتشتعل جذوة القومية العربية في عروقها ، فيؤذيها أن تغدو الشام نسياً منسياً ، تهمل وتضرب وتهان وتداس ... تحل ازمير وأضنة واستانبول محل دمشق وحلب وحمص ... فأين التاريخ الناصع المشرق ؟ وأين الماضي العزيز الأبي ؟ وأين الكيان ؟ وأين الهيبة ؟ وأين الجلال ؟ ... دمشق التي

كانت قبلة انظار الدنيا ، وجدة مدن العالم ، تصبح الآن في يد عصبة من شر أشرار الترك ، باعت الضمير والوجدان ، وباعت الشرف والاخلاق !...

ولم يكتف الأتراك بذلك بل حاولوا صهر القومية العربية الأصيلة العريقة في قومية تركية زائفة ، كانت مذ كان اهلها في الفاتحين ، وحاولوا فوق ذلك ، سحق اللغة العربية — لغة القرآن الكريم — وتمزيقها ، ليسهل على اللغة التركية هضمها وتمثّلها .

كل هذه الحقائق الموجعة أثارت حفيظة الكاتبة ، وحفزت عزيمتها ، وأطارت وعيها ، فراحت تخاطب الشام خطاباً شعرياً جميل الوقع ، حبيب الرنة والايقاع :

سلاماً يا جدة مدن العالم ، ومسرحة الوادي الريان
تجلسين هادئة على ضفاف بردى وبين منبسط من المروج والجبال
صاغية الى نشيد الجداول الهادرة ، وتغريد البلابل الشادية
راوية حديث الأبطال مرددة مصارع الجبابرة .



وتلتفت الى الشعب مصدر القوة وهادم العروش وباني الأمجاد ومبدع الثورات ، لتعرّفه بامكاناته الكبيرة ، وتبصّره بطاقاته الهائلة ، فهو للأسف جاهل حقيقة نفسه ، وغافل عن مآسيه ، فلمَ لا ترشده وتحمل أمامه المشعل يهتدي ويسير الى الأمام ؟

ان المحراث في يدك أيها الرجل لسيف تذود به عن حياضك
والمغزل في عينيك أرهف سهم تناضل به دون مالك واستقلالك
إن لبن الأم يا قوم خير من لبن المراضع
إن ثوباً تهديه إليكم بلادكم يستبقي مالكم الضائع

قل لعبيد يتنكرون بملابس الملوك، وأحرار يرقصون على أنغام السلاسل والأغلال

إنهم سيظلون الى ما شاء الله عبيداً ...

إن ثوباً وطنياً لا شيء فيه ولا بهاء، لأفضل من تلك البهارج الساترة قبح الفقر والجود .

الى مصنوعاتكم ايها السوريون فانها لراية لبلاد لم تبق لها راية

أنت يا أخي العامل شريف وماجـد ، تستعيض من شرف العمل عن توقيع اسمك في قيود المذلة والهوان ...

قل لهم أن أمة هان على أبنائها بذل الدماء ، لا يصعب عليها الانتصار في ميادين الأعمال .

لقد ارادت ماري عجمي ان تعزز اقتصاد بلادها . كما فعل غاندي للهند ... كلاهما أبان ما للمصنوعات الوطنية من قيمة في دعم الاقتصاد المحلي . . . فحث على استهلاكها دون غيرها من المصنوعات الأجنبية التي لاتني تزيد المستعمر قوة على قوة ، وترسي دعائم سطوته ، وتعمق جذوره في الأرض لينمو ويترعرع ...

وقفت الى جانب العامل في المصنع ، والفلاح في الحقل ، والجندي في الخندق ، كتلة من عزيمة ومضاء، جعلته يستعيد الثقة بنفسه، ويؤمن بأنه كل شيء في الأمة ... فراحت تدافع عنه أمام من عيّروه بخشونة كفه وسمرة جلده :

هو الزارع الفلاح لولا جهـــاده ... لما شمت بالريحان حسن الخمايل

هو الطود للعبء الثقيل وقد بدا ... على وجهه منه اتقـــاد المشاعل

* * *

لئن خشنت منه اليدان فكفه ... سماح ، وان الجود بسط الأنامل
يتيه عليه المترفون بما لهم ... وليت لهم مثـل ابتسامة عامل

فان أرقوا لم تعرف السهد عينه ... وإن بطروا أثنى على خير واصل
وان ركبوا اسرى فجلّى عليهم ... وان سكروا لم يدر معنى التغافل

وأحلى نشيد في الليـالي سماعه ... نشيد غيوم الأفـق تهمي بوابل
هو الساعد المفتول لايعرف الدنى ... هو الهمة القعساء دون تطـاول

ولا تنسى ماري الجندي ، رفيق الفلاح في حقل العمل الجدي المثمر، وقرينه في درب الكفاح الطويلة لبناء مجد الأمة ، ودعم كيانها ،وتوطيدأسسها، ترافقه في مراحل نضاله كلها ، وتغوص الى أعمق أعماقـه ، فتتحسس نفسه ساعة اليأس الشديد ، وتصور شعوره القلق،وتوتره ، ورغبته في احراز النصر المؤزر :



كان كالبلبل في ايكتـه ... يتغنى بالقوافي العـامره
فرمى الكأس والقى نايه ... ومضى للحرب نفساً ثـائره

مشت البيد ام الركب جرى ... ام جبـال وحصون سائره
اطبـق الجو عليـه والثرى ... ببراكين الضرام الفـائره
وهو منها في غلاف محكم ... ينفث الأهوال حمـراً زائره
باع يوم النصر طوعاً روحه ... فهي ومض بالنصال القـاهره
اصبحت شم الروابي وهـداً ... وغدا الغور تـلالاً زاخره

* * *

وبكفيه مفاتيـــح الردى     وبعينيه اتقـــاد الهاجره
وحزام كثرت انيابـــه     يتـــلوى شبه افعى دائره
واذا مرّ بـــه الموت ارتقى     راكداً تحت الشظايا الماطره
او توارى عنـــد سفح المنحنى     او هوى بين الشقوق الغائره
تقصف النخوة في اضلاعـــه     عصفة الريـــح بروض عاطره
مؤمن بالحـــق صلب خشن     غير عاص شرعـــه او آمره
دائب لاينثـــني عن واجب     ناهض بالعبء غوث القـــاطره

★ ★ ★

قلت في مطلع هذا البحث ان مـــاري عجمي اهتمت كثيراً بزيارة السجون لتتفقد أحوال من فيها من أصدقائها وغير أصدقائها متحملة عنت الخفراء وغلظتهم، وجفوتهم، يقف الواحد منهم كالذئب الكاسر الشرس، ليحول دون وصول أي شيء للسجناء المساكين ... ولكن مـــاري كانت تعرف كيف تنفذ الى لب هذه القلوب الصخرية، بما أوتيت من حيلة ذكية، كرشوة نقدية مثلاً، في عصر تفشت فيه الدسائس، وكثر الخداع، وعمت النميمة، وساد الحقد، وصار شراء الضمائر من السهولة بمكان.



تقول ماري في مقالة عنوانها «السادس من أيار»: «اقترح علي أحد الأصدقاء أن أصف لقرائي حال السجناء في السجن، ولكن ضيق المجال لا يتسع لوصف السجون التي زرتهـــا في الحرب، فكيف يتسع لوصف تأثراتي، وتفصيل ما كان يلاقيه الشهداء من انواع العـــذاب؟ واذا قلت الشهداء،

فقد عنيت اولئك الذين قتلوا حباً بالاستقلال ... كنت أول من لبى دعوة بعض الأدباء السجناء ، ومن الساعين الى انقاذهم . ففي ذات يوم هرعت الى تلك السجون وهي تعج بالمجرمين بمن ساغ لهم شرب الدماء او اختلاس أموال الناس ، والابرياء الذين وشي بهم أنهم حفارو قبور الترك ومناوئوهم . اتي بهم الى الشام من كل اطراف سوريا وشواطئها ليلاقوا من محكمة الموت العرفيـــة جزاءهم . أجل في ذات يوم ، وهو اليوم الثاني لتشهير نخله باشا المطران ، دخلت باباً على جانبيه وفي صدره ثلاثة سجون منفصلة ، لكل منهـــا حاجز خاص مصنوع من القضبان الحديدية ، وهي مجموعة سجون ، او عبارة عن كهوف صخرية يوصل اليـها بثماني درجات ؛ فرأيت وراء احد تلك الابواب نخلة باشا جالساً على كثب في مدخل مغارته الضيقة المنخفضة السقف ، أمامه سلسلة ضخمة معلقة الى قدميه تزن ثلاثين رطلا، لقعقعتها كلما تحرك صدى أجش ، وكان يرفعها بيديه اذا مشى .. ولما رآني رفع بصره وأشار علي بالصمت ، مخافة الجواسيس والرقباء ، وأنا أعجب لحـالته وتجلده ، بعد ان نال تلك الاهانات ، والطخ وجهه بالأقذار . وصفع مئات من الصفعات ، بأيدي أناس لم يكن يرضى أن يكونوا له عبيداً . .



« خرجت من ذلك المكان فاذا غلام يحمل قصعة من اللبن ارسل بطلبها احد معارفي من السجناء ، فاذا الحقير يحفر بأنامله القذرة حفرة في تلك القصعة ليثلبت بما فيها ، يلحس أنامله لتطهيرها مما علق بها ، فيفحص غيرها من القصاع ، على اختلاف ألوان الطعام . » .

ثم تنتقل لوصف سجن جامع المعلق فتقول : « وجامع المعلق جامع أثري قديم يجري تحت ردهته الرحبة أحد فروع نهر بردى ، وكانت ردهته تضم ٤٢٠ سجيناً ، من كل طبقات الأمة ، وكانت النوافذ محكمة الأفوهة ، صغيرة في باب الجامع الخشبي الحقير ، وكنت اتحدث مع من اريد باوشاه الحقير فيدعوه إلي ، ويخرجه الى البهو .. ومازالت زياراتي للسجون تتوالى حتى رأيت ان اسعى جهدي لانقاذ بعض الادباء ، ساعة علمت ان لا مفر لهم من حكم الاعدام ، وكانت المحكمة العرفية لاتسمح بدفاع المحامين ، فرأيت أن أدلي بالتجارب ، لعل لي الى تخليصهم من سبيل ، مستعينة بنفوذ الفضلاء » .

غربت شمس الحكم العثماني البغيض عن سورية ، بعد ان عـاث فيها فساداً ، وأذاق شعبها من الويلات ما أذاقه ، فهجر أرضه ، وهام على وجهه شريداً مطروداً ... لا ينشد إلا النجاة بروحه ، وقد اصبحت مهددة كل لحظة : في الليل والنهار ، في القرب والبعد .. انه الموت المحتم ، يفرضه من أوتوا السلطة ، واعطوا مقاليد الامور ، من غير ذنب أو اثم .

لقد اقفرت الديار . وهرب الناس بالمئات ، يخوضون البحار السبعة ، الى بلاد لا يعرفون منها غير الاسم ، وهم يجهلون مصيرهم ، وما يخبىء لهم القدر من مفاجآت حلوة او مرة ، ألا يكفي أنهم سينعمون بالحرية ويخلصون من ويل المشانق المنصوبة ؟

كل هذا حدث قبل ان يطوي الاتراك خيامهم ؛ ولكن الامل الذي كان يراود أذهان الشعب العربي في سورية ، ألا وهو الخلاص من المستعمر ، والتفيؤ في ظل الحرية والأمن ، كان ضرباً من المحال .. ذلك أنه لم ينتقل إلا

من تحت الدلف لتحت المزراب كما تقول ماري نفسها ... ما كاد الشعب يودع ضيفاً ثقيلا بغيضاً، حتى هب ليستقبل بالسيف ضيفاً أثقل، هدد الديار على حين غفلة . وزحف بالآلاف الى ميسلون ليأخذ نصيبه من حكم شعب آمن ، لاذنب له إلا انه طيب جداً ... ولكن دفاعه لم يكن ليجدي فتيلا ، ازاء قوات الفرنسيين المستعدة .. وهكذا ركز الفرنسيون اعلامهم على كل مبنى ، وسدوا الافواه، وحطموا الاقلام .

جن جنون ماري ، وانتفضت كاللبوءة تثأر لحريتها المسلوبة ، وعادت تمثل نفس الدور مع مستعمر من لون آخر ، ظن انــه قادر على رشوتها ، واستمالتها ، لتسخر امكاناتها الادبية ، ومجلتها للفرنسيين ، ولذلك كان اول ما عملوا غب وصولهم ان بعثوا اليها مندوباً ليفاوضها فأبت ، وراحت تكيل الضربات للدخلاء ، وتحفز همة الشعب العربي في سورية ليقف في وجه الطغيان ويجابه ويكافح ويتمرد ، ويثور على قبول الحكم المستمد من سلطة لاتمثل الشعب ، ولاتنتمي اليه . ولم تلن قناتهـا او تهن عريكتها ، رغم جميع العروض المغرية التي ابداها الفرنسيون ، وحاولوا استدراجها بها ، للوصول الى مآربهم الفاسدة . تقول ماري :

« بعد ايام قليلة ، انقضت على استيلاء فرنسا على دمشق ، جاءني شرطي برُقعة يدعوني فيها رئيس الوزراء الجديد الى اجتماع أراد عقده ، فخططت عليها كلمة ( تبلغت ) وأبيت ان ألبي الدعوة ، وبعد انعقـاد الاجتماع سألت عن القصد منه ، فقيل لي : ان مدير ادارة المطبوعات الفرنسية خطب في الحضور ، وهم الكتاب ، وعلمهم كيف يكتبون ، ووزع عليهم ورقاً بلا ثمن ، ووعدهم بالمساعدة » .

« ولم يمر ردح طويل على ذلك حتى طفق احد معارفي يتردد الي كل مساء ، محاولاً اقناعي بأنني اذا هتفت لفرنسا ، وانشأت الفصول ، معددة الاصلاحات التي تقصد الانتداب علينا من اجلها فزت بأجر شهري ضخم من الذهب الوهاج ، وشهد منه ذلك بعض زائري ، فحاولوا مساعدته على اقناعي بالقبول ، ثم طفقوا يسخرون معه مني لاصراري على الرفض ، الى ان فاجأته يوماً بقبولي : ماهي تلك الاصلاحات التي تريد أن اكتب عنها ؟ قال : علي أن آتيك بقائمتها مرة بعد اخرى ، وعليك اقناع القوم بها شفاهاً وخطابة وكتابة ، قلت : لتنجز فرنسا ماتعدنا به من الاصلاحات ، فأترنم بذكرها مجاناً .. فكان جوابي له آخر عهدي به » .

لقد انتشر الخراب والدمار في كل شبر من أرض الوطن العربي، وفتك الموت بالأهلين ، حتى ملّ الناس فتح القبور ، فمن لم يمت بالجوع والمرض مات بحبل المشنقة ، أو في غياهب السجون ... ومن لم يغادر بيته هارباً ليبحث عن الحرية واللقمة ، غادره وسياط الجلادين تلهب ظهره ، وتكوي جلده ، ليزج من بعد في حرب جهنمية لها أول وليس لها آخر ... فقد تكون تلك آخر مرة يرى فيها أرض وطنه ، ويتنسم عبير ترابه ، فمن نوى لم يرجع كما تقول :

| | |
|---|---|
| ودوا التراب فما الوقوف بنافع | والقوا الستار فمن ثوى لم يرجع |
| مشت المنية بينهم بطوافها | فكأنها افعى تسير ببرقع |
| فتناثرت شهب السماء توجداً | تبكي شقيقات لها في الموبع |
| وتساقطت سحب السماء ترحماً | من ظلمة الظلاّم في ذا البلقع |
| جعلوا صدور القوم مكتبة الردى | وجرى المداد من الحشا المتصدع |
| ملأت مطالبنا السجل بطوله | شكوى وما للغوث غير المدمع |

دفنوك يا هماً وما دفنوا هوىً — ازدهرت ازاهر نبتة في الأضلع
ان يدفنوا قطب العلوم فأرضهم — علمت بنقض كيانها المتزعزع
كم من قلوب في السجون تقطعت — كم من عزيز بالحبال مروّع
كم من دفينٍ ذي نهى وبراءة — كم من انين بالسكينة موجع

وبعد ... فصفحات البطولة عند ماري عجمي تؤلف كتاباً ضخماً وحسبي انني عرضت بعضاً منها ، بعد ان ظل مطوياً عقوداً من السنين . . . فما ترى قدمنا لصاحبة هذه الصفحات من الاكرام ؟ وما عسى أن نقدم لها في المستقبل؟ علماً أن لها غير تلك الصفحات مجلدات ضخمة موزعة بين الخطب والترجمات والقصائد ، التي لاتقع تحت حصر او عد ، موجودة في اعداد مجلتها ( العروس ) التي يبلغ عدد صفحاتها الثمانية آلاف صفحة تقريباً ، كتب معظمها بقلمها الطيع الحر الجريء .





## تجديد رسالة الغفران

تأليف خليل هنداوي
عرض وتحليل سامي الكيالي

... حين أهدى الي صديقي الاستاذ الهنداوي طرفته الأدبية «تجديد رسالة الغفران»، وقفت مذهولاً أقول مالون هذا التجديد؟ وهل تحتاج رسالة يكتبها ابوالعلاء الى من يجددها ؟.. ثم عدت أقول هل ثمة شروح لمويص لغتها وللاهداف التي أرادها الشاعر الفيلسوف؟

و «رسالة الغفران» الى قدمها، والى انها بنت نيّف وألف سنة، مازال تزهو بجدتها، كجنية من جنيات الاساطير، فهي قديمة جديدة في آن واحد..

ولقد شغلت الادباء والمفكرين طوال العصور، ومازال الشغل الشاغل للباحثين من شرقيين وغربيين.

وعشت في هذه الدوامة وانا اتساءل ما إقدام الهنداوي على هذه المغامرة؟ وهو أديب مدرسي عاش فترات طويلة مع النصوص يقرأ ويحفظ ويفسر وينشىء جيلاً من الشباب يعلمهم العربية ويصقل أذواقهم ويرفع مستواهم الأدبي..

وبدأت بقراءة عدة أسطر من مقدمته التي يقارن بينها وبين العوبة ذاتي .. ولم

أتمّ المقدمة ، لان فكرة تجديد الرسالة قد شغلت ذهني ، ثم رحت استعرض جهود الباحثين في دراساتهم لأبي العلاء، لحياته وآثاره ، لشعره وفلسفته ، لشكّه وايمانه ، وكان اول من قفز الى ذهني الدكتور طه حسين واثره في توجيه الأدباء الى الدراسة العلائية ، وذكرت كتابه « ذكرى ابي العلاء » ثم تجديد هذه الذكرى بكتاب جديد ، وقلت لا على الاستاذ الهنداوي ان يقفو أثر طه حسين الذي كتب عن ابي العلاء رسالته الجامعية ثم عمل على تجديدها باضافة بعض البحوث .. اما امر الهنداوي بتجديده « رسالة الغفران » ؟

وتركت تلاوة مقدمته وأخذت اقرأ الرسالة كما صاغها ، واذا بي أغوص في واحاتها الجميلة وافيائها الظليلة كمن يتلمس الأثر دون ان يضلّ الطريق ، لان صور الرسالة كما أبدعها ابو العلاء لم تغب عن ذهني .

ما الذي أخذه من ابي العلاء وماالذي اضافه من عنده ؟

قلت : لا بد من الرجوع الى الاصل..

كانت تمر بي هذه الخواطر وأنا أقرأ الصفحة تلو الصفحة ، وظللت أقرأ الى ان ظهر لي أثر الهنداوي في ربط اجزاء من حياة الشعراء والادباء وغيرهم من الاعلام الذين عرض اليهم ابو العلاء في رسالته ولكن في اطار فني واسلوب سهل سائغ ..

**عرض الصور مجودة من تعقيداتها اللغوية لتبدو واضحة في ذهن القارىء..**

لقد عمد ابو العلاء، في بعض الصور، الى الرمز، فجاء الهنداوي بشرح، ولكن لا شرح القدماء الذين يعتمدون على الالغاز والاحاجي بل على الفكرة والمعنى ..

وقد ضقت في البداية من تشويه أثر من أعظم آثارنا الادبية يلجأ اليه أديب معاصر، ثم أنست بهذا الجو المترف الذي يعرض عليك صور الماضي بمرآة الحاضر، وهو عمل فيه ركانة وبراعة ، وفيه تفهم لروح ابي العلاء وللاجواء التي عاشها الكثيرون من الشعراء الجاهليين والاسلاميين في العصور الاولى .

ولا عليّ ان آتي بصورة من ابي العلاء وطريقة الهنداوي في صياغتها الجديدة . وسيرى القارىء ان «تحويره» او «تجديده» لم يمس جوهر الفكرة ولا الاطار الفني الا مساً رفيقاً ..

### نص ابي العلاء

... ويذكر الأبيات التي تنسب الى الخليل بن احمد ،والخليل يومئذ في الجماعة، وانها تصلح لان يرقص عليها ، فينشىء الله القادر بلطف حكمته شجرة من الجوز ، فتونع لوقتها ، ثم تنفض عدداً لايحصيه الا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوار يرقن الرائي ، يرقصن على الابيات المنسوبة الى الخليل ، وأولها :

ان الخليط تصـدع
فطر بدائك أو قع
لولا جوار حسان
مثل الجآذر أربع
لقلت للظاعن « اظعن
إذا بدا لك أو دع »

فتهتز ارجاء الجنة ..

ويقول لمن هذه الابيات يا أبا عبد الرحمن ؟ فيقول الخليل :لا اعلم ، فيقول: إنا في الدار العاجلة نروي هذه الابيات لك . فيقول الخليل : لا اذكر شيئاً منه.

### تجديد المنداوي

.. وعنّ لي ان أثير في هذا المجلس مشهداً من مشاهد الرقص تقوم به الحور، فذكرت ابياتاً تنسب الى الخليل بن أحمد، والخليل في جماعتنا جالس ، وهي تصلح لان نرقص عليها.. فاذا شجرة من الجوز، تونع لوقتها ، ثم تنفض عدداً لايحصيه الا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن اربع جوار يرقن الرائين ، يرقصن على الابيات المنسوبة الى الخليل وأولها :

ان الخليط تصـدع
فطر بدائك، أو قع!
لولا جوار حسان
مثل الجآذر ، أربع
لقلت للظاعن : اظعن
اذا بدا لك ، أو دع !

فاهتزت ارجاء الجنة ، لوقع هـذا اللحن المرقص،ولم يبق مستمع الا استخف لما سمع ، وطار الوقار، وخفت الرؤوس. التفتّ الى الخليل، وقلت له لمن هذه الابيات ؟ فقال : لا اعلم .فقلت :إنا كنا في الدار العاجلة نروي هذه الابيات لك.

ذلك . ويجوز ان يكون ماقيل حقاً . فيقول : أنسيت يا أبا عبد الرحمن وانت أذكى العرب في عصرك. فيقول الخليل : ان عبور الصراط ينفض الخلد (١) مما استودع ..

. . .

## الاصل

ويعبر طاووس من طواويس الجنة ، يروق من رآه حسناً ، فيشتهيه ابو عبيدة مصوصاً (٢)، فيتكون كذلك في صحفة من الذهب . فاذا قضى منه الوطر ، انضمت عظامه بعضها الى بعض ، ثم تصير طاووساً كما بدا . فتقول الجماعة : « سبحان من يحيي العظام وهي رميم ». هذا كما جاء في الكتاب الكريم : « واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أولَمْ تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ اربعة من الطير فصرهن (٣) اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم ان الله عزيز حكيم » .

ويفترق اهل المجلس وهم ناعمون ..

فقال الخليل : لا اذكر شيئاً من ذلك . ويجوز ان يكون ماقيل حقاً . فقلت : انسيت ، يا ابا عبد الرحمن ، وانت اذكى العرب في عصرنا . فقال الخليل : لا تلمني على النسيان ! ان عبور الصراط ينفض العقل مما فيه !

## التجديد

وبينا نحن على ذلك ، اذ طاووس من طواويس الجنة يعبر فيروق من رآه حسناً .. ويشتهيه ابو عبيدة طعاماً على مائدة الشراب ، فيتكون سريعاً في صفحة من الذهب ، ويقدم بين يديه ، وحين قضى منه الوطر ، انضمت عظامه بعضها الى بعض .. ثم صار طاووساً كما كان ، فقالت الجماعة « سبحان من يحيي العظام وهي رميم ! أليس الله بقادر على ذلك وهو الذي لبى ابراهيم حين سأله : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ فقال : أولَمْ تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي : قال : فخذ اربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ! واعلم ان الله عزيز حكيم .. »

وكان الطاووس لا يزال يخفق بجناحيه الذهبين . ويرسل صيحة الظفر بالعودة الى الحياة ، ساخراً من الجماعة ..

(١) الخلد : القلب او البال او النفس .
(٢) طعام من لحم الطير يطبخ وينقع في الخل .
(٣) احضرهن وقطعهن .

ويلاحظ القارىء ان الهنداوي لم يمسّ الاصل بل حافظ عليه كل المحافظة مع قليل من التحوير.. ولا اقول التجديد..

فالواقع، ان قراءة ابي العلاء ليست من السهولة كما يظن البعض، انه متعب.. وكثيراً مايصوغ شعره وأدبه وتلميحاته بالفاظ وجمل هي الى اللغز اقرب، وقد اشار الاستاذ كامل الكيلاني، رحمه الله، وهو أول من نشر الرسالة بشروح واسعة، اشار الى ذلك بقوله: «.. كثيراً ماتخفى اشاراته على الفطن اللبيب الذي لم يُرُض نفسه على طول مصاحبته والانتقال معه في اجوائه الفكرية، وسماواته الفلسفية، ومفازاته وجناته الأدبية، وما اكثر ماتخفى تلميحاته وتصريحاته على من قصروا في درس جغرافيته الذهنية ومراميه النفسية، وما أجدرهم ان يتعرفوا، الى ذلك، موقع كل كلمة قالها، فان الكلمة الواحدة، كما يعلم القارىء، تقال في مناسبتين مختلفتين، فتكون في احداهما شكراً وايماناً، وفي الاخرى جحوداً وكفراناً..»

وكأني بالاستاذ الهنداوي اراد ان يوجه تلاميذه والشباب المندفعين وراء تلاوة القصص الجنسية ذات الاساليب المفككة، اراد ان يجنّبهم هذه المزالق وان يثير خيالهم لقراءة ادب ابي العلاء الذي يرتفع بموضوعيته ومراميه عن هذه السفاسف.. فعمد الى صوغ الرسالة بهذا الاسلوب، فكتبها بلغة يسيرة، وحذف منها مواضع الحشو، واستغنى عن الاسئلة والمشاكل اللغوية، فاكتفى منها بما يتصل بالفكر والشعور، ودفعته ثقافته الادبية الى ان يسترسل احياناً في تفصيل ماورد في الحوار عن الشعراء الذين جاء ذكرهم، فعكس آراءهم ونزواتهم وجعل منهم نماذج حية بما أضفى عليهم من قصص حياتهم المأثورة وحوادثهم المشهورة.

أأصاب في عمله ام أخطأ؟

لقد طرح هذا السؤال على نفسه، وبدون ان ينظر الى رأي النقاد في عمله الذي قد يعتبر تشويهاً للأصل طمأن نفسه بقوله:

اني أترك الامر للقراء قبل النقـاد، لأنهم هم المقصودون بهذه التجربة. فاذا أرضيتهم كانت الغاية..

واذا كان الكثيرون من النقاد لن يقروه على عمله، فلا بأس من هذه التجربة التي تدفع بنا الى الاهتمام بأدبنا القديم وتمثل روائعه . وقديماً طالب عميد الادب الدكتور طه حسين بترجمة ادبنا القديم كما نترجم عن اللغات الاجنبية لتصل بينه وبين الناشئة برباط وثيق ..

فمن كلماته حين نثر بعض شعر اللزوميات قوله :

« .. أليس غريباً ان نترجم الى العربية شعراً هو من صميم العربية ؟ بلى.. ليس ذلك غريباً، وانما الغريب ان لا نترجم هذا الشعر ، فما دامت الثقافة تتسع وتنتشر ، وما دام جمهور المثقفين يعظم ويضخم من يوم الى يوم ، فلا بد من ان نقرب اليهم ادبنا القديم ، ونزينه في قلوبهم ، ونصله بأذواقهم ، فليس كل الناس قادراً على قراءة « اللزوميات » و« الفصول والغايات » و« رسالة الغفران » وفهمها ، ومع ذلك فيجب أن يعرف المثقفون جميعاً هذه الآثار وغيرها معرفة حسنة ، والا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم ، وأصبح مكان الأدب العربي القديم من المثقفين المعاصرين مكان الادب اللاتيني من الافرنسيين والايطاليين .. والله يعصم الادب العربي القديم من ان تقطع الصلة بينه وبين الاجيال العربية الى آخر الدهر ».

ولم يشذّ الاستاذ الهنداوي عما المع اليه عميد الادب، فوضع بين يدي القارىء العربي صورة جميلة للرسالة ، وكان يحسن ان تسمى « المدخل الى رسالة الغفران » بدلا من كلمة « التجديد » ، اذ ستظل الرسالة جديدة بروحها وفكرتها مهما قدم بها الزمن وكرّت عليها الايام .

## جولة ودية مع

### « الظل وحارس المقبرة »

**بقلم حسام الخطيب**

حارس المقبرة يتحدث الى الظل والصمت ينقل الحوار ، ويطل صباح جديد .

وحارس جبانة الحي مافتحت مقلتاه
لماذا ؟.. لماذا ؟...

بهذا التساؤل تنتهي رؤيا فايز خضور ومعها ينتهي كل أمل للقارىء في أن يستوعب مقاصد هذا الحوار المحفوف بأجواء عجيبة .... وفي الديوان كله ومن خلال قصائده المتاوية في الغموض تتراوح حركة القارىء الذهنية بين: ماذا؟ ولماذا ؟ بعد ان امتص منها طاقة الجواب رتل من آلاف الأيدي الشاعرة الشابة التي تحمل بعض ألوية شعرنا الحديث .

سيقول فايز : إنه مدخل خاطىء الى تذوق ديوان شعر حديث ، فمنذ أن استطاع مالارميه وفرلين ورامبو أن يخلبوا ألباب الناس برموزهم المتداخلة وأجوائهم الملفعة بملايين الاستفهامات الغامضة ، ومنذ أن بشر ت. س. اليوت ومن قبله إزرا باوند بالمعادل الموضوعي ، ومنذ أن اكتشف رواد الشعر في هذا العصر ، عصر المعجزات ، أن الشعر ليس الا شعراً وأن القصيدة ليست إلا معادلاً موضوعياً من صور والفاظ لأحاسيس الشاعر الأصلية وانفعالاته ، منذ أن تمت كل هذه المعجزات لم يبق في يد الناقد أن يسلط على النص أضواء ذهنية متشبثة بأهداب منطق الوضوح والغموض ، وانما حسبه أن يدرك أن الشعر الذي بين يديه شعر وأن عليه أن يتذوقه تذوقاً شعرياً مجرداً عن الشوائب المختلفة التي علقت بالشعر من عهد عاد .

### الطاقة الشعرية

ان فايز شاب عزيز علي قريب الى نفسي ، وأنا أرمق تجربته الشعرية بعين مشجعة متفائلة ، واعتقد أنه سيكون له شأن في مملكة (الميوز) الغارقة ببحور الموسيقى وامواج الخيال ، ومن هنا أردت أن أطرح معه مفهوم الشعر من الألف الى الياء كما يتبدى لي من ديوانه .

وأول ماأبدأ به هو التأكيد على أن الديوان **شعر** ، ومن عجب أن يحتاج مثل هذا الى تأكيد !...

في القديم كان من السهل على الناقد أن يميز الشعر ويدل عليه بالتحديد الواضح : كلام موزون مقفى ، وبعضهم زاد على ذلك شرط **افادة المعنى** ، على أنه شرط لم يبرهن على اصالة ولم يثبت وجوده سواء في الشعر الحديث او في الشعر القديم !

وفي العصر الحديث بعد أن اصبحت الأوزان والقوافي من الرخاوة بحيث لا تخدم مقياساً للشعر ، وبعد ان افتقرنا الى اي مقياس محدود لتمييز الشعر من اللاشعر ، ولا اقول من النثر ، لأن الكلام الذي يستحق ان يكون شعراً وقد صنع لغاية الشعر لا يصح ان يحول الى النثر كأنما النثر مرتبة دنيا تحال اليها البضاعة المفلسة . في العصر الحديث ، لنا أن نعتمد على احساسنا الداخلي ، على حدسنا بالدرجة الأولى ، تماماً كما تقودنا المعرفة الحدسية الى تمييز الموسيقى من الرسم من النحت ، على أن نؤكد ذلك بالعناصر الأربعة المعروفة : أصالة الفكرة والموسيقى والخيال والعاطفة . وما اكثر القصائد التي لم تصمد امام هذا المقياس غير الحنبلي رغم اصرار اصحابها على أنها من الشعر .

نعود الى (الظل وحارس المقبرة) وهو الاسم الذي اختاره فايز خضور لديوانه الأنيق الذي قصرت به انفاسه عن بلوغ الصفحة التسعين . حتى الآن اثبتنا حقيقتين: الأولى انه **شعر** والثانية انه **ملفع بالغموض** ، وعند هذه النقطة نستطيع ان نقف قليلاً لنقول اولاً انها «موضة» الشعر الحديث ، انني احاول دائماً ان التصق بالديوان فأراني منساقاً وراء تعميمات تتعلق بقضايا الشعر الحديث . لماذا ؟ لأنني لا استطيع ان اتحدث عن غموض فايز دون ان الاحظ ان عناصره الأساسية مشتركة ، او تكاد تكون كذلك ، بين معظم الانتاج الشعري الحديث العربي والغربي .

## عناصر الغموض

من هذه العناصر التي تؤلف ظاهرة الغموض عند الشاعر :

١ ـ الاتكاء على **الرمز** والتمادي في الارتياح اليه من جهة ، ثم استعماله من جهة اخرى مطية **لمغامرات فكرية** يغري الشاعر اتساع رقعتها وقلة تميز ألوانها بالانسياق وراء تهويمات جامحة لا أبالغ اذا قلت ان الزمام افلت منها :

تقول صفحة الغلاف الاخيرة :

**الرفض يهزهز عكازه**
**ألفارس رفض الرفض**
**يزرع بالتاريخ الأرض**
**والريح تَلْتَحِسُ مهازه**
**الريح تلحس مهازه**

انه فارس مغامر لا يدرك شأوه الا بركوب الريح في إثره ، ومن اين للقراء بساط الريح ؟

**٢ ـ المحاولة الدائمة للتعبير بالصور** أو بكلمة اوضح **ترجمة الانفعالات والافكار الى معادلات لفظية أو تصويرية**، وابقاء العلاقة بين الاصل وبين الصورة

سراً خاصاً بالشاعر ، اذ لايمكن لأي قارىء أن يجزم بما يريد الشاعر أن يقوله وان كانت هناك احتمالات كثـيرة ، ونحن نفترض هنا طبعا أن الشاعر يريد أن يقول شيئا ذا بال وان كنا نفتقر الى الدليل .

ان محاولة التعبير بالصور المشفوعة بعبارات رمزية متفاوتة المدى تتراوح بين القـدرة على ارهاق أعصاب القارىء من قطعة مثل ( ورقـة التين ) ص ١٠ وبين فرحته بالاهتداء الى شيء ما وراء تروس الكلام كما في ( قيص عثمان ص ٢٣ ).

**ومر الشتاء**

**غالاً غفونا ، عجزنا مدى الصيف عن**

**حمل حبة . .**

**برغم البيادر ، رغم ازدحام الحصاد..**

**فراحت صراصير حقل الزؤان**

**تغني ، وتشمت من جوعنا بامبالاة . . !**

. . .

**أتبقى تمر الفصول علينا ، ويافا حكايا سمر**

**أتبقى قميصا مدمى على أذرع الحاكمين ؟**

**ونحن نلولب دوداً لذكرى الفجيعة**

**أنخجل حين نلص من البحر حتى دموعه ؟**

٣ ـ احاطة كثير من القصائد **بجـو من الاساطير القديمة** ، ومعظم هذه الاساطير سورية المجال ، وهناك دائماً عشتار ، وبعل ، وتموز ، وبختنصر ، وبنـلوبي ، وجلقامش ، والورقاء . ومـع ايماني بأن الجو الاسطوري موات جدا للحركة النفسية في الشعر بوجه عام استطيـع ان أقول بكل أسف ان الاسطورة عند فايز لم تقدم الشيء الكثير بين يدي التجربة الشعرية وكذلك لم تستطع التجربة الشعرية أن تمنح الاسطورة لوناً من الجدة ، **وهكـــذا بقيت الاسطورة مادة خاما غير متمثلة** في القصيدة ، ولعل ( حبة قمح ) ص ٢٢ مثال واضح لذلك .

٤ ـ ويمكن ان نزيد على ما تقـدم السبب المألوف للغموض عند شعرائنا الشباب عامة ، وهو غموض الفكرة أصلا عند الشاعر ، أو بتعبير أدق عجز الشاعر عن التوصل الى رؤية واضحـــة لصبواته الفكرية والعاطفية .

**والخلاصة ان قصائـد فايز أتت أشبه بتمتمات وهمسات شخصية داخلية يصعب ان تمد استطالاتها لتغطي الهوة بين الشاعر والقارىء ، انها محراب مسور بالغيوم والجداول والبخور لاشك انه ينطوي على شيء ما ، ثمين أو غير ثمين ، شيء يستحق مغامرة الفضول .**

## ملامح لا أفكار

وهذا الشيء — كما يخيل الي على سبيل الظن — هو حكاية نفس شابة ظمأى طموح تصطدم أجنحتها دائماً بأطراف عالم يابس مبطن بالأشواك ، وفي خلال تجوالها في هذا العالم تنتابها حالات من التشاؤم والخيبة التي لا تولد روحاً انهزامية بل تخلف عند الشاعر نقمة على المثبطات والعوائق ، نقمة على التقاليد والانظمة القائمة ، لا الانظمة الاجتماعية والسياسية فحسب ، بل على طبيعة التركيب النفسي للانسان ، وعلى

حركة الزمن وعلى الموت . ان الشاعر يحمل على حراس المقابر ، وهو ليس مستخفاً اكثر مما ينبغي ولا هو منهزم أمام الأشباح ، ويخيل له بين حين وآخر أنه بلغ سدرة المنتهى ووصل الى مرحلة ( الكشف ) :

**لاتأمي قبّرة الواحات**
**ستسح ، تسح الغيمات**
**أنهاراً فوق الرمل الظامي**
**بحراً طامي ...**
**والرفض يهزهز عكازه**
**الفارس رفض الرفض**
**يزوع بالتاريخ الأرض .**

ولكنه ( كشف ) — كما أسلفنا — من قبيل المغامرة الوهمية الممسوحة القسمات ، بل لعلنا نستطيع ان نعمم ذلك على الديوان كله فنقول ان تجربة الشاعر في جوهرها تجربة نوعية لا تجربة خاصة ، وان كان — كما أعتقد — يصر على رفض ذلك بل يعتبره فاجعة شخصية ، وأخاله يصر — من خلال باخوسيته — أن تجربته وحيدة نسيجها بين التجارب .

## طريقة خاصة في التعبير

ولكن ماذا يبقى للشاعر اذا قلنا ان تجربته نوعية لا فردية ؟

ان ما يبقى كثير وجديد .

هناك تجربة الشاعر الشخصية في التعبير . ولقد بدأت بالحديث عنها في اول الكلام لأنها أظهر ما يميز الديوان ، واعتقد انها مبصرة ويمكن تطويرها الى افضل ، ولعله مما يساعدها على ذلك غنى التجربة اللغوية عند فايز . ومن زاوية النقد الكلاسيكي يمكن ان توصف مفرداته بالصفاء والايحاء والحركة ، ولكنه لا يكتفي بذلك بل يصطفي لنفسه صيغاً لفظية تدل على حرصه الدائم على شحن الكلمة بالحركة ، ولا أدري اذا كان اللغويون يوافقون على تصرف الشعراء الى هذا الحد ، من ذلك : ألملف ، ألصلص ، مزرزر ، يمرمرها ، ململم . وهناك كلمات يأخذها الشاعر من الحياة العامة لشعوره بانها تحمل ارتباطات لا غنى عنها مثل : الجفت ، شرّش ، ويلما ، بهدلتني ، بصارة . ولست مع هذا التصرف ولست ضده ، ولكنني أخشى ان يساء اليه بالاسراف وسوء الاختيار .

## متفرقات

بقيت بعض الملاحظات المتفرقة التي فاتني أن أدرجها في سياق الحديث رغم وجود المواضع المناسبة لها ، ولذلك أرجو أن تعتبر جزءاً لا يتجزأ من نظرتي الى الديوان .

١ — ليس في الديوان أي أثر لاحساس الشاعر بعروبته ، وقد أخذ بالجو الاسطوري الماضي ، وبالجو الحضاري المستقبلي الى حد غطى على احساسه بهويته القومية ، وهذه القضية تحتمل مناقشة طويلة لا يتسع لها المجال ، وكل ما أستطيع قوله لفايز هنا هو ان جميع الشعراء الذين اغنوا التجربة الحضارية الانسانية كانوا يكتشفون انهم يمثلون قومية معينة يستقون منها الزاد الذي يقدمونه على مائدة الحضارة الحافلة ، والشاعر بلا تراث قومي زهرة بلا لون في حديقة ذات ألف لون ولون .

٢ — الحزن والخيبة وسفر القطار . نعم . تجارب غنية ومؤثرة . ولكن ماذا تركت من احاسيس لأيام الكهولة . أين الدقة ؟ احياناً تتخذ رمزيتك لمسة رومانتيكية مبكرة .

٣ — القصائد الحزينة تكثر خلال فترة زمنية معينة ، وأسباب الحزن والخيبة مجهولة . هل هناك مواقف سياسية لا تحب الافصاح عنها ؟

# تحت سماء الاندلس

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ السلسلة المسرحية ــ ٦ ــ

**تأليف : زكي قنصل**
**عرض ونقد : عدنان ابن ذريل**

يظل ( الموضوع التاريخي ) بين الموضوعات المسرحية المفضلة ، التي تستهوي المؤلفين المسرحيين والجمهور على السواء ، للصلة الوثيقة والصميمية التي لها بـ (وجدان ) الأمة وتجربتها وعثراتها وزلاتها ، وانتصاراتها ، وامجادها ...

وان تجربة أدبنا المسرحي السوري ، على حداثتها ، وجدة الأسلوب المسرحي عندنا ، تضم نماذج قوية موفقة من ( المسرحيات التاريخية ) مثل : ــ فتح الاندلس ــ وهي مسرحية شعرية لفؤاد الخطيب ، و ــ احلام ودموع ــ أو ابو عبد الله الصغير لمعروف الأرناؤوط ، و ــ الحجاج ــ لعبدالرحمن عياش ، و ــ اليرموك ــ وهي مسرحية ذات فصل واحد كتبها نثراً خلدون الكناني وصاغها شعراً سلامة عبيد ، وغيرها ...

واذا استثنينا مسرحية ــ احلام ودموع ــ او ابو عبد الله الصغير لمعروف الأرناؤوط ، والتي ملأها صاحبها رومنطية وشاعرية ، غلبتا على ( الحس التاريخي ) فيها ، فان ( التقيد ) بالمعطيات التاريخية ديدن المؤلفين المسرحيين عندنا فيما يتعلق بالمسرحية التاريخية ، وذلك امر له محاسنه ، الا ان له محاذيره وعيوبه ايضاً ..

ومسرحية ــ تحت سماء الأندلس ــ محاولة مسرحية جديدة ، يضيفها الأستاذ (زكي قنصل) الى تجاربنا المسرحية ، فيها حقاً طرافة وابتكار ، وهي وان لم تبلغ الكمال ، الا ان ما فيها من جهـد فني مسرحي معقّل ومدروس ، يشفع لنجاحها . انها ( مسرحية تاريخية) ذات فصول ، تجمع الى ( الحس التاريخي ) التحليـل الجريء لمواقف أبطالها وشخوصها المختلفين . وان براعة ( التحليل ) و ( الوصف ) للواقفين فيها ، و ( التشويق ) فيها في (العرض) ، كفيلة بتفوقها وسبقها ، لو أن المؤلف فتن موضوعها الواسع المتشعب ؛ الا انه لم يفعل ، وظلت المسرحية ينقصها ( العمل المسرحي ) الموحد ، حتى و ( الفائدة المسرحية ) الموحدة ..

ذلك أن ( الموضوع ) فيها واسع ، متشعب الأحداث ، موزع المشاهد ، شمل عدة حوادث كبيرة ، جسام ، مثل فتح الاندلس ، وتنافس موسى بن نصير وطارق بن زياد على القيادة ، ثم استدعائهما الى دمشق ، وتولية عبد العزيز بن موسى قيادة العرب المسلمين في الأندلس ، ثم اغتيال عبد العزيز بايدي بعض أعوانه ..

في حين أن الملاحظ على مسرحية ـ فتح الاندلس ـ لفؤاد الخطيب ، قصر مؤلفها عمله المسرحي ، على عملية الفتح ، وقناعته بسرد قصتها ، وشرح أسبابها ، ووصف مشاهدها ، من مثل فساد الحال في ظل لزريق ، انقسام القوط على انفسهـم ، بطولة العرب المسلمين ، الغزو ، القتال ، موت لزريق ، الانتصار ..

ان القصص التاريخي الواسع ، الذي ساقه ( زكي قنصل ) في مسرحيـة ـ تحت سماء الأندلس ـ يضم الى جانب عملية الفتح ، مقتل عبد العزيز بن موسى ، اثر استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد الى دمشق ..

وكان الأولى أن يبدأ المؤلف العمل المسرحي في مسرحيته من الفترة اللاحقة للفتح مباشرة ، مع تضمين خيانة (خليان ) لسيده لزريق ، انتقاماً لشرفه ، وهي قصة متداولة في موضوع الفتح يقبتها معظم الكتاب والمؤلفين ؟ فيصور التنافس بين الساسة والقواد العرب المسلمين آنئذ ، ثم حالة القوط تحت الفتح ، ونزوعهم الى الثورة ، ثم تولية عبد العزيز بن موسى ، ثم مقتله ، ويربط ذلك كله بعمل مسرحي واحد ..

ان قوة ( المسرحية ) ، وطرافتها في محاولتها الكشف عن جوانب هـذه الفترة اللاحقة للفتح . ولكن المؤلف ، مع الأسف ، تقاعس عن ايفائها حقها من السرد او التفسير ..

ولذلك بدت بعض ( فصول ) المسرحيـة ، ومشاهدها ، محشوة حشوا ، بحيث كانت ، على طرافتها ، تقلل من حماسة القارىء للعمل المسرحي فيها ، او تبدد كثيرا من طاقات انتباهه ، لمتابعة أحداثها الهامة ، المثيرة ، والمشوقة ...

وأخيراً ، فقد لوحظ ، في المسرحية ، وهي أثر حديث رشيق العبارة ، سلس الاسلوب ، وجود ( أثر غنـائي ) ، وهو أثر متوارث في أدبنا المسرحي العربي ، والسوري ، وهو الشعر الغنائي الذي تنشده ( أخيلونا ) ، أرملة لزريق في سجنها :

**ويا قلبي لحاك الله كيف تهون في البلوى**

فيرق ( عبد العزيز ) لحالها ، ويعنفها ، ويقبل اليه ، ويضمها الى ازواجه ، وقد ظل هـذا الحب بين ( اخيلونا ) و ( عبد العزيز ) أيضا ثانويا ، لا أثر يذكر له ، في المسرحية ، أو العمل المسرحي فيها .. وظلت مشاهده الوصفية ، على طرافتها ، جامدة ، باهتة ..

أما الاعتماد على النصوص التاريخية ، مثـل ( خطبة ) طارق بن زياد ، او رسائل الخليفة

( الوليد بن عبد الملك ) ، والتي يثبتها بنصها الحرفي تقريبا ، او الاعتماد على المعطيات التاريخية ، فوقفة يسوقها المؤلف ببراعة وتشويق ، ومن أبرزها ، واكثرها طرافة ، تلك التي تتعلق بمعاملة ( عبد العزيز ) لشعبه ، او لأهل الذمة في الشعب ..

ولا يسعنا ، ونحن نكتفي بهذه الانتقادات الفنية والأدبية التي خطرت لنا لدى قراءتنا المسرحية ، الا أن نحيي مؤلفها الفاضل ، على جهده فيها ، وابتكاره ، سواء في جوانب موضوعها ، أو تحليلاتها .. آملين منه المزيد من هـــذا الأدب المسرحي الجريء ، المبتكر ، والرزين ..





## شمس في كانون

### مجموعة شعرية لزهدي خليل

عرض ونقد : ممدوح عدوان

« شمس في كانون » مجموعة جديدة لزهدي خليل ... مجموعة غريبة من نوعها، جمعت خليطاً من الشعر العمودي والشعر الحديث وقصيدة النثر والخاطرة والمقال .

اول مايلفت نظرنا في المجموعة هو غياب الوحدة الفنية . إلا ان مقطوعات المجموعة — شعرية ولا شعرية — تدور كلها ، حول موضوعات محددة ، هناك النضال السياسي والايمان بالغد العربي — كخط قومي — والحنين الى القرية والأم والحبيبة كخط ذاتي .

الا ان الذاتية تمتزج امتزاجاً جميلاً مع التزام زهدي خليل بحيث تبدو المشكلة الوطنية ، كلها ، وكأنها ازمة ذاتية حادة. كما وان المشكلة الذاتية تبدو وكأنها نتيجة لأزمة وطنية عاشها رفاقه في النضال .

آه ايتها الليالي المرصعة بحباب الدموع
ياليالي المسافرين بلا عودة
كم أنت عابقة بأحزان الجياع والمحبين!
من ينير حواشي ظلامك
ويدفع الناحبين
الى مدارج الايمان والرضا؟
لأن الأشرعة الممزقة ، على سبل
الياقوت والمرجان
كثيرة، كنجوم المجرة ، في ليالي أيار

الظاهرة الجلية الثانية في المجموعة، هي ان زهدي حين يكتب عن قضايا وطنية يحاول جاهداً ان لا « يهوبر » . انه لا يعتمد على المباشرة المطمئنة الى الصخب الجماهيري . هناك تفاؤل جيد بمستقبل الجماهير دون اطمئنان سطحي ودون صراخ وتنديد ، انه يعتمد الايحاءات والتقريرات الصامتة !

ترنيمة المجد على الشفاه المطبقة
وفي الثغور الصابرة
ميلاد حمحمة وارعاد
لنفتح اكمامنا للرياح

في القمة انجدلت اعصاب العار .
لنا القمة
محط أقدامنا
مطاعن خناجرنا.. انت باجناح الغواب

هناك خط قومي واضح في المجموعة، واضح بلا « هوبرة » ، واعتماد جيد على عواطف أخرى لزجها في القضية ، فحتى في قصيدة « في القيد » — وهي أكثر القصائد وضوحاً وصراخاً — نرى ان المناضل السجين يعتمد على ذكريات الحبيبة :

خصلة الشعر الـتي في القلب ، في
العينين ، تسهر
تخصب الرؤيا ، ترش الصدر عنبر
شعلة في وقد آمالي بان النصر أكبر

كما يعتمد على جرح وجداني من صراخ طفل قريب ساذج يطالبه بالعودة الى البيت :

ياوريث الكبر والقهات ، ياطفلا على
الباب تعالى
صوته الملتاع محروراً يناديني: «تعال»
لاتخف يا مقلتي ، ياواهباً قلبي رجاه
اخوتي في الساح ما زالوا، وما زال البناه
يزرعون الأفق من اعراقهم خصب الحياه

يهرقون الطيب والافراح من اجل الطفوله

زهدي خليل في الحقيقة ، حائر بين ان يهتف وان يهمس . فلديه رقة مشوبة بالقسوة ، وصراخ مبحوح . انـــه ينتقي ألفاظه انتقاء . يشذ بها فينجح ؛ ويقرب احداها من الاخرى فيفشل . انه يفسر الكلمة على مالم تخلق لاجله . أداته التعبيرية الدائمة كلمة مباشرة تلطأ الى جانب كلمة عادية اخرى ؛ فينشأ من تجاورهما تنافر عجيب ونشاز مؤذ . يقدم من تجاور الكلمات صورة ضخمة تتعملق وتصبح نقطة مميزة في السطر إلا أنها دون ظلال .

هنا لا بد من تقرير مهمة الصورة في الشعر . ان آخر ما يجب ان تفعله الصورة ، في الشعر الحـــديث بشكل خاص ، هو التزويق . وزهدي ، رغم انه لا يريد ، الا انه لايستطيع الا ان يزوق ، تقسره القافيـة أو ضرورة التفعيلة ، حتى في الغالب الحديث من شعره ، فيبدو لك ان الكلمات الهامسة « تفرقع » . فالأم (موجة الحنان في خواطر الشريد )
تشده
وتوقظ الحنين في ضلوعه الى مدارج القمر

توسد الجبين، لاتله، مثلاً بحربة السهو

فالصورة على غير ماجاءت في (مدارج القمر) و (مثلاً بحربة السهر) يجب ان تبقى جزءاً من الرؤية الفنية وجزءاً من حسن التعبير عن التجربة، انها في الحقيقة تلخيص لانفعال ممزوج بفكرة.

ولا أنكر انني منذ ان سمعت لهذا الشاعر قصائده الاولى — وكانت موزونة في جمعها — ولاول مرة داخلني شك كبير في امكانياته. إلا انني، بعد ان أمسكت الديوان وقرأته، فوجئت بجمال وروعة لم اكن أتوقعهما في مقطوعاته النثرية. مما يدلنا على ان الوزن والقافية يعيقان الشاعر زهدي خليل عن ان يفسح كل ما في نفسه بصدق وعفوية. هذا الصدق وتلك العفوية لم يتوفرا له إلا عندما كتب نثراً (أستثني، طبعاً، مقطوعة «سادة الارض») مما يشجعنا ان نقول له — بناء على طلبه في المقدمة — انه يستطيع الاستمرار، وسيوفق الى حد بعيد إن كتب مقطوعات نثرية. أقول هذا، وان كنت (ربما كان هذا رأياً شخصياً) لا اعتبر قصيدة النثر شعراً.

زهدي يكتب دائماً بعبارات محلكة، عندما يريد ان يزن ويقفي. لذلك فمن الخير ان لا يزن وان يكتب على هواه. لأن ما يريده هو العطاء الصادق. وأما تسمية الكتابة (شعراً ام قصيدة نثر، أم نثراً) فهذا أمر متروك للمستقبل. وليسمه الناس كما يريدون.

زهدي في المجموعة، معبأ حتى شفتيه بالحنين والحب، وكلما اعتمد البساطة أجاد. وكلما اعتمد الاسطورة أو الرمز فشل وأسف وهوى. استخدامه لأسطورة شمشون، مثلاً، استخدام سيء الى حد بعيد، انه يفتقد الصحة التاريخية — وهذا جيد — فيتخذ من دليلة رمزاً للبطولة العربية، لأن دليلة كنعانية وشمشون يهودي. لكن بطلته، تلك، على هذه الطريقة:

**وتنام يحضن صدرها الجوري**
**ورب الغانيات، يصب في شريانها**
**المرعوف نار**
**تسقيه من عهر المهانة حقدها سماً وقار**
**تهديه أصفاد الرذيلة، والخطايا الفاجرة**
**بالعطر والحناء،**

تخضب شعره المنثور أعلام انتصار
وتبث فيه الوهن ..

يكفي !! بربك ، يازهدي ، أهكذا نقدم بطلة قومية ؟ أهكذا تريد لها ان تثأر لشعبها ؟ ولاتجد لهـا مجالا للانتقام إلا في انها « تهدبه الخطيئة والرذيلة » ، وترتمي في احضانه « لتبث فيه الوهن » !

ان الامر ـ هنا ـ لا يتوقف إلا على الزاوية التي ننظر من خلالها الى الامر ، والتي من خلالهـا ايضاً نستطيع استخدام الاسطورة . كنت تستطيع اعتبار دليلة ضحية او الكبش فداء ، وكنت تستطيع ان تزودها بأسلحة اخرى غير مازودتها به :

صالت على وحش الغزاة ، سلاحها
ساق بلون الخمر محموم الشبق

كما وانك كنت تستطيع الاستغناء فنياً عن هذا التقرير الاخير او التعليق التقييمي :

أنثى بجد عمرها التاريخ من أقصى الدهور
ترن في عمق الحياة صدى افتخار
سمراء من كنعان يبهو ذكرها مثـل النجوم
هدت شموخ العار ، حطمت الصنم
كي يورق الميمون ، كي تبرا جراحات المصيبة
في تربة الوطن السليب
وخطت على هام العصور
شمس يقال لها دليلة

كان من الممكن ان تعتبر ماقدمتـه دليلة لشمشون هو بالضبط كالذي قدمته شهرزاد لشهريار كتلهية واغواء لكي تفتدي جيلها . قدمت له (حكايا اوجسداً) ربما كان هذا ماتعنيه . إلا انك لم تقدم دليلة بشكل يمتنا على الافتخار بهـا .

زهدي يتخبط عندما يرمز وعندما يستخدم اسطورة ( شمشون أو الحوت والقمر ) . الا انه يعرف كيف يهمس للقارىء ـ بغض النظر عن المنطقية النثرية ـ عندما يكتب قصائد نثرية . فهو يكتب نثراً مترعاً بالحنين والحب والصفاء . انه في الحقيقة يعيش صفاءه مع النثر :

أيها القمر الأشقر ، ياشعرها
ياحكاية نسيتها في قوبتي

وفي قصيدة : « ذوائب من حزن » ،
لولاك ماانقدت نجمة في السماء
شوقاً لعتمة الليالي .. أيها الحزن

... أقلع أيها الشراع الباسم للغيوم
باومضة على شفاه البروق
أنت أيها الحزن الخلاق في بلادي

وهو في نثره قادر على التقمص والغموض دون جهد، وعلى الايحاء والغناء، اكثر بكثير مما يفعله في قصائده الموزونة:

غداً يسقط المطر
ونحن في السهول بلا أغنيات
نشك أحقادنا في التراب
وبذارنا حصى وصوان
أحشاء البغايا خنادق وحل وقذارة
وثغورهن الباردة خواتم ياقوت
آباؤنا في قوافل العبيد
يزحون الهواء بأنفاس ليرون آخر

في «قصيدة» كهذه يبرز خط قومي (استغرب كيف خفي على بعض القيمين) بأسلوب معقول ومعتدل وبعيد عن المباشرة.

وأخيراً فقصيدة «مشاعل العذاب» نموذج جيد للمجموعة. فهي تحتوي على رقته وهمسه وبساطته وحنينه، كما تحتوي على المنطقية النثرية التي يشكو منهـــا في قصائده النثرية:

واحدة واحدة
عددتها.. مشاعل العذاب يا أمي
تلك التي سنلوح بها غداً
عندما نبحر في التراب الى حيث لاندري
بالمناديل المحبوكة بالدموع
خيوطها منسوجة من قلوبنا
خيطاً.. خيطاً
تصبغها ألوان بركان أزلي في عماقنا
يفجره الخوف من الرحيل.
لاأقدر أن أكره عمري ياأمي
وأحقد بلؤم على وجودي
كلما تذكرت أحزانك الضاحكة للزمن
بل أخذ نيران شؤمي
لأحيا رغباتك الطيبة
مقدساً يومي
الذي أتعذب فيه من أجل صلواتك
كي أرفع قناديلي المناره
على سبل التائهين في الكون
أنت في حنايا حياتي تذوبين
وأنا في مجامر حبك العظيم أحترق
وبين ذوبانك واحتراقي
مشاعل أبدية العطاء
تمد الضياء والسلام
على ملاعب البشر
فطوبى لآ لامنا مع الحب ياأمي.

- مدرسة الالهات .. ترجمة الدكتور عادل العوا
- الفن والأدب .. ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم
- المحمومون .. رواية لمحمد الراشد



## مدرسة الالهات

أصدرت الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر كتاب ( مدرسة الالهات ) تأليف عضو المجمع الفرنسي اتين جلسون وترجمة الدكتور عادل العوا عميد كلية الآداب بجامعة دمشق .

انطلق المؤلف من تحديد مشكلة إلهات الفن ، ورأى أن لهذه المشكلة حياة هي حياة تاريخ الخلق والابداع ، وأشار الى الفارق بين حياة التاريخ ، وبين رواية التاريخ ، ورسم تخوم بحثه ومنزلة هذا البحث في دنيا معرفة الحقيقة في مجال من أعقد مجالات الفكر والتنقيب . وقد وقف عند مفهوم « الالهات » في الأساطير اليونانية ، وألمع الى تفسير أفلاطون للوحي والجمال ، ومضى في فصول الكتاب الى ذكر وقائع وأمثلة منتقاة من الأمثلة التاريخية التي تنير جوانب هذه المشكلة المعضلة ، فتحدث عن الشاعر الايطالي دانتي وحبيبته بياتريس وعن الشاعر الايطالي بترارك وحبيبته لور وعن الشاعر الفرنسي بودلير وعشيقته ساباتيه وعن الموسيقار الألماني فاغنر وحبيبته ماتيلد وزندونك وعن الأديب البلجيكي مترلينك وملهمته جورجيت لوبلان وعن الشاعر الألماني غوته وملهمته أوليك وعن غيرهم ممن يصح الاستشهاد بهم في جلاء مشكلة الالهام. ويذهب المؤلف الى أن العبقري يصطفي امرأة ويحيلها ربة وحي ، وإلهة فن أو فكر . ويرى أن اخصاب الفن أو النبوغ بجمال الكائن المحبوب يلازم ـ على مايبدو ـ الطهر والعفاف ، كما أن

الموت – فيما يظهر – هو المصير الذي يترقب على نحو مثالي هذه المغامرات الرفيعة. فالشاعر، أو الموسيقار، أو الأديب أو الفيلسوف، إنما يطلب من المرأة المصطفاة أن تخلد في نظره سحر اللقاء الأول، والتماس الوحي العظيم. ويذهب المؤلف في الفصلين الأخيرين الى تبيان علاقة الفن بالحب، وصلة الفنان بالقديس، ويرى أن الفن يتغذى بالحب عندما يقتل الفن حب الجسد ويرقى الى نشوة الارتعاش بالمطلق الجميل، وأن الفن من حيث هو فن، لايمكن أن يبلغ هدفه الا فيما يجاوز الواقع فيدرك الالهي الذي يجاوزه والذي لايدركه الا بالاقلاع عن ذاته في سبيل بلوغه، وتلك هي قداسته.

قدم الدكتور عادل العواء هذا الكتاب بتصدير ربط فيه سر النبوغ بوقر وشياطين الشعر عند العرب.

## الفن والأدب

أصدرت وزارة الثقافة كتاب (الفن والأدب) لعضو أكاديمية الفنون الجميلة بفرنسة (لويس هورتيك) ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم الرفاعي أستاذ الأدب الفرنسي في جامعة دمشق.. راجع الترجمة الدكتور عمر شخاشيرو رئيس قسم اللغات الأجنبية في كلية الآداب..

يقارن المؤلف بين الألفاظ والصور، ويتحدث عن العلاقة بين علم الآثار والملحمة والعلاقة بين الفنون التشكيلية والأدب .. كيف يتبادلان التأثير، وما هي اقتباسات الشعر عن التشكيل في العصرين الاغريقي والمسيحي. ثم يستطرد المؤلف الى عصور متقدمة، متبعاً نفس العلاقة، فيرصد الواقعية والانطباعية، ليصل الى محاولة دمج جميع الألوان الأدبية والفنية ... والكتاب ذو قيمة كبيرة بالنسبة للدراسات النقدية والتاريخية معاً ...

## المحمومون

(المحمومون) رواية في ٣١٨ صفحة، حاول فيها الأستاذ محمد الراشد تحليل أزمة الجيل العربي إزاء إشكالاته النفسية والعاطفية والحضارية في صور بديعة تحدث القارىء عما في نفس المؤلف من مشاعر وما في المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه من محمومين وحيات تناولها وصفاً وتشريحاً ونقداً بأسلوب أدب نثري يحتاج إلى إمعان وتدقيق لفهم مراميه واظهار مضمون كثير من جمله التي تشكل لوناً غير مألوف من ألوان التراكيب النثرية العربية المبهمة. فالرواية تصوير لمأساة الواقع العربي والانساني حيال دوامات التأزم الحضاري في حالة من إشراقات الحب والفكر والوجدان، عن طريق لوحة حسناء عراقية مريضة يحبها أحد الاطباء.

قال الدكتور محمد يحيى الهاشمي في هذه الرواية:

«ابتلي العالم العربي اليوم بثلاثة أنواع من الشباب: شاب قلق يتأرجح بين قديم لايتفاعل معه وحاضر لايجيد الاقتباس منه، وآخر مجامل متملق أضاع شخصيته، وثالث هاجر أو هو في طريق الهجرة، وسواء كان هذا او ذاك فقد أدار ظهره لوطنه وتنكر له فخسرته الامة، من أجل ذلك نرحب بصديقنا الاستاذ الراشد الذي يعالج مشاكل الجيل بضرب من التوتر السامي في (المحمومون)».

## اخبار ثقافية

● أقامت وزارة الثقافة أسبوعاً لانقاذ آثار النوبة .

● فازت رواية ( حسن جبل ) لفارس زرزور بالجائزة الاولى في المسابقة التي نظمها المجلس الاعلى لرعاية الآداب ، وفازت رواية ( ابو صابر ) لسلامة عبيد بالجائزة الثانية، وفازت رواية ( ذات الساق المبتورة ) لفازي عرابي بالجائزة الثالثة .

● أقامت وزارة الثقافة معرضا للتصوير السوري المعاصر ، في متحف سرسق ببيروت .

● أقامت وزارة الثقافة مهرجانا سينمائيا للافلام الفرنسية والسوفيتية والمجرية والبلغارية والصينية وأفلام مؤسسة السينما ، يستمر حتى منتصف أيار المقبل .

● افتتحت وزارة الثقافة معرض فن التصوير الأذربيجاني السوفييتي في المتحف الوطني بدمشق .

● ألقت المستشرقة الألمانية مومسن محاضرة باللغة الفرنسية عن تأثر الشاعر الالماني غوته بالثقافة العربية ، وذلك في المتحف الوطني بدمشق .

● ألقى الدكتور عبد الوهاب خياطة محاضرة عن التخطيط في سورية ، في المركز الثقافي العربي بدمشق . وألقى الدكتور بديع حقي محاضرة عن الشاعر الفرنسي مالارميه. وألقى الدكتور خالد الصوفي محاضرة عنوانها (نحن والمغتربون وأمريكة اللاتينية ) . وألقى الناقد الفني عبد العزيز علون محاضرة عن أثر طفولة ليوناردو دافنشي في لوحاته . وألقى الدكتور

عدنان شومان محاضرة عن تطور الحركة التعاونية في سورية ومستقبلها . واقيمت أمسيتان أدبيتان اشترك في الأولى القاصة أم عصام والشعراء منذر لطفي وعلي كنعان وفايز خضور ، وفي الثانية القاصة ملاحة الخاني والشاعران محمد الحريري ويوسف الخطيب . وأحيا الفنانة سنثيا الوادي والفنان جون كيوركيان حفلة من الموسيقى العالمية . وعرضت ٥ افلام اسبانية باللغة العربية وأقيم معرض للوحات الفنان جورج جنورة . ودارت ندوة حول الخدمة الاجتماعية .

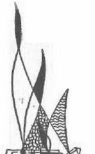
● افتتح الفنان ناظم الجعفري معرضه التاسع في متحف دمشق الوطني .

● أحيت الندوة الثقافية النسائية أمسية أدبية اشترك فيها الشاعرة عزيزة هارون والدكتور كاظم الداغستاني .

● القى الاستاذ أحمد القتيبي محاضرة عن الأدب بين التحول والتحويل في المنتدى الاجتماعي وألقى الدكتور غسان الرفاعي في المنتدى محاضرة عن الاتجاهات اللامعقولة في الفكر السياسي . واختتم محاضرات آذار في المنتدى الاستاذ محيي الدين صبحي بمحاضرته عن الضمير والمصير .

● أصدرت مجلة صوت الفرات في شباط الماضي كراساً تضمن تحقيقين للباحث الفولكلوري عبد القادر عياش : الأول عن الحصى في حياة العرب قديماً وحديثاً ، والثاني عن مؤونة البيت في دير الزور .





سلسلة

# التراث القديم

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة التراث القديم ، لنشر الكتب المخطوطة التي لم يسبق نشرها ، والتي تكشف عن غنى حضارتنا العربية في مختلف الميادين ، وذلك بعد تحقيق هذه المخطوطات تحقيقاً علمياً وافياً .

**يطبع في هذه السلسلة الجزء الرابع من مخطوطة ( مجمع الآداب في معجم الألقاب ) لعبد الرزاق بن الفوطي . قام بتحقيق هذا الجزء العلامة المعروف الدكتور مصطفى جواد . صدرت حتى الآن الأقسام الثلاثة الأولى من هذا الجزء الرابع كل منها يجاوز ستمائة صفحة . ويباع في جميع المكتبات المشهورة . ثمن القسم الواحد ٦٠٠ قرش سوري .**

**اعتمد الفوطي ألقاب الرجال ورتبها ترتيباً معجمياً وقد جعل فيه اسم العلم مقسماً الى ستة أقسام : أولها للقب وثانيها للكنية والثالث للاسم والرابع لاسم الأب والخامس للنسبة والسادس لاختصاص العلم المترجم بفن أو بمهنة . ثم يترجم للعلم ترجمة مكثفة لاتعدو أحياناً ثلاثة أو أربعة أسطر يوفي بها الغرض من التعريف بالعلم .**

**وتضم هذه التراجم أعلام الأدب والفكر في التاريخ العربي في عصر ازدهار النهضة العربية حتى أواخر القرن السابع الهجري .**

الفنان : اسعد عرابي

خريج كلية الفنون الجميلة عام ١٩٦٥

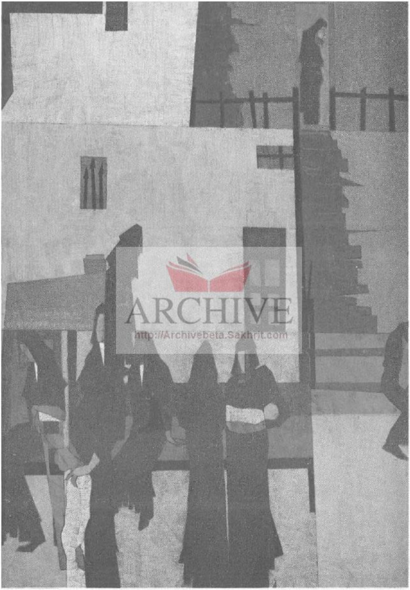
مشروع البكالوريوس : الاساطير الشعبية الشامية وحكايا الحواري الضيقة !



اللوحة : زيارة الولي

احدى اللوحات الرئيسية في مشروع البكالوريوس .. وفيها يعالج الفنان زاوية من حياتنا اليومية المألوفة في الحواري والازقة القديمة حيث لاتزال بعض الاساطير والخرافات الطريفة تعيش في قلوب العجائز ..

حلول اللوحة التشكيلية مبسطة جداً وذات ابعاد صريحة وواضحة ، والمساحات محددة بأطر متشابهة بين المهارة والاتساق وهو التكامل النفسي الذي يرمي اليه الفنان بين ماهو عليه وبين الذي يراه ويعتقد به .




اسعد عرابي — ديـارة الولي — 

- معرض التصوير السوري المعاصر في بيروت
- المعرض الاذربيجاني في دمشق

عرض
وتحليل
غازي
الخالدي





دمشق في المعرض الاذربيجاني

## معرض التصوير السوري المعاصر في بيروت :

سؤالان لابد من طرحهما أمام معرض التصوير السوري المعاصر الذي يقام حالياً في متحف سرسق في بيروت :

**السؤال الأول : ماهي مدى أهمية هذا المعرض وماهي النتائج المتوقعة له؟**

**السؤال الثاني: هل يمثل هذا المعرض الفن العربي السوري تمثيلاً كاملاً ؟**

**أولاً : إن أهمية هذا المعرض هو أنه يقام لأول مرة في متحف تعود أن يعرض أعمالاً عالمية مختارة وفي بلد عربي شقيق لم يسبق له أن تعرف على الفن العربي السوري المعاصر إلا من خلال فنان أو فنانين ، أو من خلال قصاصات الصحف والمجلات التي تصل اليه وهي لاتعطي إلا صورة مشوشة غير واضحة عن واقع الحركة الفنية في بلادنا !**

ومن ناحية اخرى ... سيوضح للجمهور اللبناني الى أي مدى تبلورت الحركة الفنية عندنا خاصة وأن أجواء الفن هناك تسيطر عليها النزعات الفردية المترفة التي تعتمد على الآثار الموقتة طلباً للربح المادي الذي بدأ يغزو البيوتات الفنية وأوشكت هذه النزعات ان تضيع شخصية الفنان اللبناني .. جرياً وراء تنفيذ رغبات جمهور الفنادق الفخمة والعمارات العالية ...

وبالتالي كشف معرضنا هناك للجمهور اللبناني المثقف ان الدولة عندنا تحاول بحدود امكاناتها ان تقدم شيئاً ولو ضئيلاً للفنان السوري وتحاول ان تحمل انتاجه بكل اعتزاز وتقدمه الى العالم ليتلمس هذا العالم بداية نهضة فنية حقيقية في بلدنا !

وليس في كلامي هذا أي مجاملة للدولة ... ولكنه أمر لابد من الاعتراف به .. خاصة وأن معرضاً اخراً مماثلاً سيقام قريباً في الاردن ... وربما سينتقل الى دول عربية وغير عربية في المستقبل القريب .. ولم يسبق لنا أن رأينا مثل هذا من قبل المسؤولين في أي دولة عربية أخرى !

وأما النتائج المرجوة من هذا المعرض فهي كثيرة أهمها أن وضع البلاد الحضاري سيتوضح تماماً عند الكثيرين ممن لايعرفون سورية العربية الا من خلال الاذاعة والصحافة وان اسماء الفنانين السوريين ستصبح بعد اليوم أسماء مألوفة لدى المواطن العربي المثقف .. وان مستقبل سورية الفني لابد أن ينطلق من المسؤولية التي سيتحملها الفنان العربي السوري عندما يعرف ان انتاجه خرج من نطاق المعارض المحلية الى نطاق عالمي .

**ثانياً : هل يمثل هذا المعرض الفن العربي السوري تمثيلاً كاملاً ؟**

الاجابة على هذا السؤال لابد من العودة

قليلاً الى الاعمال المعروضة .. ومحاولة تصنيفها على أساس التجارب والخبرات التي توصل اليها كل فنان عندنا بجهده الشخصي وباجتهاده الخاص .. ان الأسماء التي اشتركت في هذا المعرض اسماء لهـــا تاريخ طويل في ميدان التجربة الفنيـــة الجـــادة .. وهذا يعني أن مساهمة هؤلاء انما تعني الايمان برسالة هذا المعرض وأمثاله من المعارض المتجولة .. وان وجودهم على اختلاف طرقهم وأساليبهم في معرض واحد مشترك يوضح الى أي مدى يتعاون الفنان السوري مع الفنان السوري لتوضيح جميع الأبعاد التي وصلت اليها حركتنا الفنية .. ان الاعمال المعروضة تمثل نتاج ثلاثة أجيال من الفنانين السوريين .

الجيل الأول وهو الجيل الضحية .. الذي وضع اللبنة الاولى للنهضة الفنية عندنا .. وقدم الغالي والرخيص ليمهد الطريق للأجيال المقبلة .. امثال اعمال محمود جلال ، والجيل الثاني وهو الذي بلور مفاهيم كثيرة في الفن ووضع بين ايدي الجيل الثالث خبراته وتجاربه وحياته .. أمثال محمود حماد ، وفاتح المدرس ، والجيل الثالث الذي وجد الثمرة ناضجة أمامه وفتح عينيه ليرى هدية النضال الفني الطويل كلية الفنون الجميلة ! أمثال نشأت زعبي وأسعد عرابي ...

أما بالنسبة للأساليب والتجارب الفنيـــة المعروضة فهي متعددة وتشمل اكثر الاتجاهات الفنية المعاصرة في سورية العربية .. وان كانت لاتضمها كلها .. الا أنها تلقي ضوءاً واضحاً على أهم الاعمال التي أنتجت في سورية في الأعوام الاخيرة .. ولعدد غير قليل من الفنانين السوريين المنتجين :

محمود حماد ، نصير شورى ، الياس زيات ، عبد القادر ارناؤوط ، نشأت زعبي ، يمثل هؤلاء مرحلة متقدمـــة من مراحل التصوير السوري المعاصر ، بحيث رسم كل واحد منهم خطاً معيناً لنفسه وسار به خلال تجارب عديدة يترجم فيها احساسه بالشكل واللون والخط . والمهم في تجارب هؤلاء ان المنطلقات النظرية لاعمالهم تكاد تكون واحدة الا ان الاساليب اختلفت والمعالجة تنوعت بحيث صار لكل منهم اسلوبه الخاص به تماماً .

● محمود حماد : تجربته انطلقت من مفاهيم نظرية بحتة ارتبطت في البداية بالاستفادة من الامكانية الشكلية الكامنة والحرف العربي ثم تطورت الى علاقات جمالية خالصة .

● نصير شورى : انتقل هذا الفنان من المرحلة التأثيرية الى مرحلة جديدة تعتمد على حساسية الشكل المطلق وجماليته الرياضية . وهو يحاول الآن ان يطور تجربته الجديدة حتى تأخذ ابعادها كاملة .

● فاتح المدرس : يستوحي من تراب الارض والوطن احساساً خاصاً به يعـــبر عنه بالالوان الترابية احياناً والفضية احياناً اخرى . ويوزع على هذه الارضية مجموعة اشكال انسانية .

● اليـــاس زيات : انطلق الى مرحلة واحدة نحو المساحة اللاتشبيهية ، يعتمد على الزخرفة الشرقية وطبيعة الحياة فيها ، ويصر على ان التصوير الحديث هو عودة الى التصوير الشرقي العربي القديم .

● عبد القادر ارناؤوط : الساحة محدودة امامه الا انه جزأها بين المربع والدائرة بجد ضبابي مع هارموني مؤكد بالالوان الصفراء والخضراء توحي بجو الليل .

● نشأت زعبي : في اول الطريق نحو بحث شكلي هندسي جديد بأسلوب مبسط للغاية .

والمجموعة الثانية : اسعد عرابي ، جوليان قطيني ، عبد الظاهر مراد ، لؤي كيالي ، غازي الخالدي ، خزيمة علواني ، احمد دراق السباعي ، خالد المز ، نذير نبعة ، ليلى نصير يمكن ان تجمع هؤلاء فكرة التشخيص على اختلاف رؤيتهم وتفسيرهم لهذا المفهوم ، منهم التعبيري ومنهم الواقعي ، ومنهم التأثيري الا انهم جميعاً يحرصون على الشكل التشخيصي المفهوم .

والمجموعة الثالثة : محمود دعدوش ، كمال حسين عبد المنان شما ، غياث الاخرس ، هشام شيشكلي نعيم اسماعيل ، نوبار صباغ . لكل من هؤلاء اسلوبه المميز ، الا ان المعالجة تختلف بين السيريالية والزخرفية ، والشوائية اذا صح التعبير .

**ان هذا المعرض كمستوى ، يختلف تماماً عن كل ماقدم في سورية العربية من معارض محلية ، ربما سبب ذلك هو خروج الفنان السوري الى خارج بلاده . بحيث شعر بمزيد من المسؤولية . ولعل اختيار هذه المجموعة من اللوحات قد أعطت الشعب اللبناني الشقيق فكرة واضحة الى حد ما عن مدى تطور حركة الفنون في بلدنا .**

## معرض الفن الاذربيجاني في المتحف الوطني بدمشق :

اننا عندما نناقش عملاً فنياً معيناً لا يهمنا اسم أي مدرسة أو اتجاه بقدر ما يهمنا جودته وأصالته ومدى نجاحه .

ورغم أن الجو العام المسيطر على اعمال الفنانين الأذربيجان هو الجو الواقعي والتأثيري الا أن هناك أعمالاً تسجيلية واعلانية بحتة ، وهذا يعود الى أن الفنان هناك ينظر الى الواقع بقلبه وعينه ولا يحاول أن يعيشه بفكره وفلسفته على ضوء التطور الكبير الذي طرأ على مفهوم الرؤية للأشكال في الطبيعة في العالم اليوم .

ونتيجة لذلك نجد التشابه الكبير في أساليب الفنانين حتى ليظن الانسان أن رساماً واحداً رسم معظم هذه اللوحات ، حتى أن نفس الزوايا التي يختارها الفنان الاذربيجاني زوايا تعتمد على اللحظة الموقوتة التي تتغير بعد ثوان معدودة ، مثل لوحة الفلاحات لسلام سلام زادة . حيث رسم جزءاً من جسم الحيوان يسير في طرف اللوحة قاصداً بذلك التأكيد على واقعية البيئة .

وهذا لايمنع من وجود اعمال جيدة بالفعل وتمتاز بطابع شخصي مثل لوحة « هيروشيما » لصادق زادة ، ولوحة « جسر » لقاسموف ، ولوحة « دمشق القديمة » لرضا ميرزا ، ولوحة « طبيعة صادقة » لشيخ طلعة ، ولوحة « منظر » لصلاحوف تيمور .

ان العمل الفني الجيد يفرض نفسه على الزائر مهما كان اتجاهه واسلوبه ، والفلسفة التي يعبر عنها ، اما العمل السريع الذي يمثل دعاية او اعلاناً او معالجة باسلوب سطحي لم يصل فيه الى جذور المشكلة الاجتماعية التي يعبر عنها ، يبقى عملاً عادياً وعابراً .

# مع الادب والفن في افريقيا

بمناسبة انعقاد مؤتمر الفن الزنجي

### بقلم جروان السابق

استعمر الاوربيون شعب افريقيا ،واقتسمت الدول الاستعمارية هذه القارة الغنية ، بمؤتمرات ازدوجت غاياتها في القرن التاسع عشر ، وبغزوات تنازعت على غنائمها ، ثم تفاهمت عندما تكاثرت الوان ، واشكال تلك الغنائم .

وعرف الاوربيون افريقيا في القرنين السادس عشر ، والسابع عشر يوم كانت لأفريقيا ممالك ودول كمملكة لوندا ، وواربو ، والمانيكونغو ، وآكان وغيرها ، ويوم كانوا يستوردون منها باسم التجارة العاج ، وجوز الهند ، والاكاجو.

لذ الأوربي طعم الغنيمة فاستزادمنها، واستعمر الشعب : يسلب خيراته ويذله ، ويستعبده. واراد فوق ذلك طمس عقائده الفلسفية والدينيـــة ، وتمزيق بنيانه الاجتماعي ، وتحطيم بنيانه النفسي .

ارادالاوروبي ان يجعل من الاسود الافريقي العبد الذي لايقتدي الا بسيده . وانكر عليه مقومات حياته ، ولم ينظر الى افكاره الا كماينظر للبدائي المتوحش . وظل هكذا حتى فاض نور الحرية على شعوب العالم ، وعرف القرن العشرين استقلال معظم الشعوب المستعمرة ، ومنها شعوب افريقيا . وغزت العـــالم الافكار الحضارية والتطورات العلمية ، والمبادىء الانسانية . فاستيقظ المفكرون والادباء في جميع انحاء العالم ، وبلغ الزنوج نصيبهم من ذلك .

وكانت الروايات الزنجية الاولى بداية فتح جديد في القرن التاسع عشر ، وان جاءت تقليداً لأنماط الفكر الاوربي . الا انها سرعان ماخرجت عنه وسرعان ما الـــتزم الادب الزنجي غايته الاساسية وهي النهوض بشعبه .

فانطلق يستقي من تاريخه المرير افكاره . ألم يشعر الزنجي بالغزو الاستعماري الذي استعبده ، وجعله دونه مرتبة ، وحرمه من حقوق الحياة الاساسية ؟ الم يشعر الزنجي باساليب واشكال التمييز العنصري حتى في هذا القرن ؟ ألم ير كيف حاول المستعمر الابيض هدم كيانه الاجتماعي والاخلاقي والعقائدي ، بقوة السلطة وسيطرة المادة ؟ ألم يبصر الزنجي نظرة الاحتقار التي يرشقه

يهـا الابيض المستعمر ، وهو يستخف بسحره واساطيره وفلسفته ؟

اجل لقد احس هذا الانسان المظلوم بكل هذه الظلمات التي اغرقه فيها الابيض . والادب منارة المجتمع . والاديب الحق هو الذي لا يكتب الا ليفيد ، فكيف بالاديب الملتزم بطبيعته لانه عاش مشكلات مجتمعـــه ، وعانى آلام وقضايا شعبه ؟

فقال كونتي كولن :

**افريقيا في نظري :**
**شمس نحاسية ، وبحر قرمزي**
**ونجم ، وغرفة دغل**
**ورجال برونزيون اقوياء**
**وزنجيات يلدن امثالي .**

ولد الأدب الزنجي في امريكا اولا ، وفي افريقيا ثانياً . فانشد بروارد في عام ١٩٢٧

**حينما تدق ايها الطمبور**
**تهيم نفسي بأفريقيا**
**فاحلم بادغال رحبة**
**تستحم بانوار القمر ...**

انطلق هـذا الادب يعيد الروح الاجتماعية الافريقية جمالها وانسانيتها ، ويزيح عنها البرقع الذي اراده لها الابيض لئلا تبصر من تاريخها غير الهمجية ، والبدائية ، والاستخفاف بها : انطلق هذا الادب ليحارب الاستعمار بمختلف انواعه ، وحضارة الاستعباد الاوربية ، وليحقق مساواة انسانه بالانسان الابيض في جميع المجالات الحيوية.

فقال لنفستون هيوز الشاعر الامريكي : « اليس من الجنون المطبق ان ينطق البيض بالديموقراطية من الافواه التي يقدحون بها الزنجي قائلين : الزم حدك ايها الزنجي القذر ! »

والفن الزنجي اصيل في القدم فكتب بورتوندو الكوبي : « ان الفن الزنجي هو تعبد تصويري نقي يستند على عنصرين اساسيين من الفولكلور الشعبي هما الايقاع واللون » .

وليس مايعيب الاسطورة الزنجية الافريقية وان تنوعت فقال بالس ماتوس :

**آسيا تحلم بشرفاتها**
**وامريكا ترقص جازها**
**واوربا تلهو وتتفلسف**
**وافريقيا تدمدم ينام ينام**

وكم يتألم الاديب الزنجي الذي قست عليه حضارة الابيض ففاتت بافكاره البدائية التي يحن اليها على الرغم من ازدراء الابيض لهـــا فيقول الشاعر هيوز : « لا اشعر في ذاتي بالانغام البدائية، ولا استطيع بالتـــالي ان اعيشها ، وا كتبها كما احسها . ولذا فلست كما اريد ان اكون » .

ومن هذه الحسرة تولد الحس الاجتماعي لدى الأدباء والمفكرين الزنوج بوحدة الثقافة الافريقية، وتنهج هذه الثقافة . وانعقـــدت على اثر ذلك مؤتمرات للادباء الافريقيين اشهرها مؤتمر باريس في ايـــلول ١٩٥٦ وروما في عام ١٩٥٩ ، وفيلادلفيا ١٩٦٠ وخرجت هـــذه المؤتمرات بنتائج ايجابية في معظمها : اهمها التخلص من نفوذ

الثقافة الاوربية المادية سواء كانت انكليزية او فرنسية والعودة الى مصادر الأدب الزنجي الأصيل المفعم بالميثولوجيا ، والسحر ، والفن الشعبي ، والنحت الاسطوري ، وتمجيد الاجداد على مر العصور ، والانطلاق من هذه المصادر نحو حضارة ليس المادة عليها الا الاعتبار الضروري ، وافهام العالم أجمع — ولا سيما الاستعمار الاوربي — بأن أصالة الأساطير الافريقية والعقائد الفلسفية الزنجية تضاهي غيرها من التراث الفكري العالمي ، وان نظرة الأبيض اليها ليست صالحة للبقاء ، وما كانت الا وليدة الترفع الاستعماري . وان هذه الثقافة الافريقية لاتنزع لباسها المستعار الاوربي الا لتلبس ثوبها الوطني القومي ، ثوبها الاصيل ، أليس هو الذي يحفظ لها سعادة الديمومة ويثبت قيمتها في موازين القيم العالمية .

وتاريخ الفكر هو الذي سيقول الكلمة الفصل في هذا الميدان ، وليست نظرة بعض الاوربيين الذين مازالوا ينظرون الى الادب الافريقي نظرتهم الى الادب البدائي ، حتى أن بعض هؤلاء المفكرين الاوربيين لايعترفون بوجود فن زنجي على اختلاف أنواعه .

ولكن أنى للسلطة الاستعمارية ، وحضارة المادة ، قوة قادرة على أن تجتث المفاهيم الاسطورية والروحية لدى انسان الادغال الذي تمرد على كل العقائد المنقولة اليه مع السلطة الاستعمارية فبقي هيوز يهتف :

**كل طبول الادغال تجري في دمي**

**وكل انوار الغابات الموحشة**

**تلتمع في نفسي**

**فاخشى هذه الحضارة القاسية ،**

**القوية ، الباردة .**

ولعل مؤتمر الفن الزنجي الذي سيعقد في نيسان القادم بمدينة دكر ، سيكون اول تظاهرة احتفائية للرسم ، والنحت والادب الزنجي وبداية تاريخ جديد لاستقلال الثقافة الافريقية. وربما احتل الفن الزنجي المكان اللائق به بعد عصور الظلام الكثيفة التي ارادها له الاستعمار اولاً ، والعنصرية المستفحلة ثانياً . وعسى ان يستجيب هذا المؤتمر لصدى تصريح ماركوس غارفي : « عندما كانت اوربا مسكونة بعنصر آكلي لحوم البشر والمتوحشين والعراة كان سكان افريقيا آنذاك متفوقين عليهم بالثقاوة والثقافة .. »





# مع تيارات الفكر العالمي

بقلم: فؤاد الشايب

**الحلقة الثانية من بحث التخطيط في الدولة الديموقراطية — تتناول الحلقة حوافز التخطيط، ومبررات تدخل الدولة في تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية — ضرورة تدخل الدولة، وحدود تدخل الدولة — تبدل كبير في افكار الليبرالية الكلاسيكية — الاهداف الاقتصادية والاجتماعية في التخطيط وتشابك جذورها — ملامح الاهداف الاقتصادية ومنطلقاتها —**



بالاضافة الى ماتقدم ذكره * من الحوافز السياسية وراء التخطيط الديموقراطي، التي يمكن تجميعها في اثنين رئيسيين الأول: الشعور العام بضرورة تنظيم البيت الداخلي، وتحكيم خلقية جديدة فيه تلائم عصر التقنية العلمية والجماهير. والثاني: الدفاع عن بقاء النظام الديموقراطي، بتوسيع محوره، والاجتهاد في دينه. ثمة حافز ثالث، يمكن تصنيفه في زاوية الحوافز السياسية الفرنسية — بوجه خاص — وهو الخروج بفرنسا من عزلتها التقليدية التي حكمت عليها في أقل

(*) يرجى الرجوع الى الحلقة السابقة من البحث — جولة الشهر — المعرفة العدد ٤٧ — .

ماحكمت أن تحصرها في حدود كتلة سياسية عسكرية دفاعية أو هجومية، مع ألمانياجارتها، خلال مئة عام أوأكثر، كأنها تكرر نفسها في عصف دائري، ليس فيه بدء، وليس له نهاية. وبهذا الخروج لاتنجو من التهالك في الدائرة السحرية فحسب، بل تنطلق نحو عالمية جديدة، تشعر بها أنها لم تفقد دورها، كأمة تعتز بتراثها الثوري الثقافي من جهة، ولا يهون عليها، أن ترتد الى تبعية الدول الكبرى، وهي شريكة الاتحاد الاوروبية البائدة في السيطرة على القارات، والتحكم بمصاير الشعوب.

ولا ريب أن دور الرئيس دوغول، هو دور أساسي في تمثيل هذا الطموح الفرنسي.

ومها يكن موقف الدول الاستعمارية العتيقة من تحرر مستعمراتها وولايات نفوذها، أهو موقف انساني ويجب أن يكون هكذا، كما يقول المثقفون بسبب تواصل العصر، ووحدة مصالح الشعوب. أم هو موقف استراتيجي اقتصادي — استعمار جديد — كما يقول الحذرون من انكفاء الموجة الاستعمارية. فما لاريب فيه أن الدول ذات التاريخ الاستعماري، انما يحفزها طموح عارم الى استرجاع مكانتها في الصف الأول من القيادة الدولية، بجانب الكتلتين الكبيرتين: الأمريكية والسوفييتية، من جهة. ومن جهة ثانية فهي تزعم أنها بما توافر لهـا من مراس ودراية في شؤون العالم الثالث، **لايمكن أن تتخلى عن دور لهارئيسي في العودة الى هذا العالم، قوة سياسية اقتصادية جديدة، بعد أن نزحت عنه كقوة** استعمارية عسكرية. من أجل هذا رأينا — مثلاً — في الخطط الفرنسية المتعاقبة منذ ١٩٤٥ ان أرقام المساعدات المقترحة للعالم الثالث، انمايصنفهاالخططون بين أولويات الانفاق في برامج التخطيط واصلاب الموازنات. **وهي ترد في الترتيب بعد نفقات الدفاع الوطني مباشرة.** ومن أجل هذا — مثلاً ثانياً — رأينـا بريطانيا تتمرد بجهد سافر أو متخف على تسلط السياسة الأمريكية ذات القيادة الأولى في معسكر (العالم الحر). كما رأينا فرنسا تذهب بعيداً في حركة التمرد،

حتى لتهدد وحدة الحلف الأطلسي سياسيا وعسكريا .

في ضوء هذه الحوافز السياسية كلها، يتيسر لنا أن نحيط بمشهد عام للحوافز والأهداف الاقتصادية والاجتماعية وراء التخطيط في الدول الديموقراطية ـ ماعدا الولايات المتحدة الأمريكية ـ

**القاعدة الفكرية الليبرالية**

علينا أن نلم أولا بالتحول الفكري في القاعدة الليبرالية للاقتصاد الحر ، الذي طرأ على النظام الديموقراطي ، بصفة خاصة ، بعد الحرب العالمية الثانية . ويتناول هذا التحول نظرية ( تدخل الدولة ) في ادارة الفعالية الاقتصادية ، وحدود هذا التدخل .

يعترف فلاسفة الليبرالية اليوم ، أن التجربة الاقتصادية الحرة بركنيها : **عفوية السوق ، وشرعية المنافسة ،** قد أدت خلال مئة العام الاخيرة ، الى كثير من الانحرافات ، والاضطرابات ، والمظالم ، مما كان من شأنه أن ينزع الثقة بطبيعة التوازن الاقتصادي وبحتمية الرخاء العام في ظل العفوية والشرعية ، كما تمثلها الليبراليون . وبذلك فقد برزت وقائع التجربة تدخل الدولة التي أعلنت أنها ذات مسؤولية ، وانه حري بها أن تختار وسائل ممارستها .

**ويمكن حصر شرعية التدخل ضمن ثلاثة اهتمامات رئيسية :** الاول لمنع حدوث الهزات الاقتصادية ، او لمعالجتها وتصحيحها عند حدوثها . والثاني لتدارك عجز المبادهة الفردية التام ، أو قصورها الجزئي ، في مجالات انتاج الثروة وتوزيعها . والثالث لتوجيه الفعاليات الاقتصـــادية الاجتماعية توجيهاً تتفاوت درجات دقته وتفاصيله ، بحسب حاجة الدولة ازاء ظروف ملحة تجابهها .

ان هذه الاهتمامات في خطوطها العامة تتناول شؤونا كثيرة ، استدت اليها التجربة الليبرالية . ففي نطاق الاهتمام الاول ، تتدخل الدولة لحماية النقد الذي يتهدد استقراره وسلامته تدهور ميزان المدفوعات ، او ميزان التجارة او تزعزعه تبدلات غير عادية في الأجور والاسعار الداخلية ، ممـــا يجر الى عجز المبادلات الخارجية نفسها .

كذلك تتدخل الدولة في هذا المجال، ازاء موجات الموز العام، التي تهدد حياة الجمهور وسلامتـه. وفي تقرير استخدام الموارد القوميـة، لتدارك الحاجات والاولويات. وتتدخل الدولة إبان الهزات الاقتصـادية الناجمة من اسباب لا تنضبط وغير ممكن توقعها، كالتي تلازم المواسم الزراعية وكوارثها بصفة خاصـة، أو كالتي ترافق المنافسات الشديدة وتدهور الاسعار في الاسواق المالية. وبالاجمال فانه مبرر للدولة أن تتدخل حيثما تؤدي حرية العلاقات الاقتصـادية والاجتماعية الى نتائج غير انسانية.

وفي مجال الاهتمام الثاني - تدارك عجز المبادهة الفردية - شؤون لا تقل اهمية عن مثلها في المجال الاول، كتشغيل كامل لليد العاملة، وكقيام الدولة بتغطية انواع من الصناعة والخدمات اهملها أو تجنبها رأس المال الخاص لضخامة تكاليفها، أو لعدم ضمان سهم وافر من ربحها، أو بسبب خضوعها لنسبة مرتفعة من الضرائب.الخ.. أما تشغيل اليد العاملة، فهدف لا تزال ترتد دونه محاولات النظام الاقتصادي الحر، وما تزال البطـالة، تؤلف عاهة مرضية مخجلة في جسد الانظمة الليبرالية. وأما انصراف الفعاليات الخاصـة عن ممارسة بعض الاعمال غير الفاحشة الربح، او المعقدة، أو قصورها في أدائها، لاسيما من حيث حاجات الجمهور، فشؤون غدا من المسلّم به أن تتدخل الدولة لتخرجها من ادارة المبادهة الفردية فتتولى انشاءها بنفسها أو تؤممها اذا كانت قائمة، كالصناعات الضخمة والمرافق الشعبية الرئيسية.

يبقى ان النظرية الليبرالية المتقهقرة باستمرار أمام التبعـات الاقتصادية والاجتماعيـة الكبرى بسبب ماوصفناه بضخامة التقنية العلمية، وبحاجات الجماهير الواسعة، تصر على التمسك بمبدأ عدم احلال الدولة محل الجهد الفردي الحر، حيثما يعجز ويقصر ويراوغ، بل لا بد أن تقصر تدخلها على بذل المعونات والحوافز للفعاليات الفردية، بما يضمن لها مباشرة العمل، بعيداً كثيراً او قليلا من رقابة السلطات العامة وادارتها.

وفي مجال الاهتمام الثالث ـ توجيه

الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية - شؤون تتناول الخطوط العامة، ونقاط الانطلاق في هذه الفعاليات، بحيث لا تتحرك المجهودات الفردية الا في حدود مارسم لها من خطوط سير. وانه لمن المألوف أن يكون من حق الدولة، ومسؤوليتها، توجيه الفعاليات نحو اهداف تخدم الصالح العام. وبالأخص عندما تشرد الطاقات الفردية عن هذه الاهداف، او تقصر دونها.

مثال ذلك ان تتدخل الدولة في ترجيح توظيف الاموال الانتاجية على الترف الاستهلاكي. أو في انفاق الادخار القائم حيثما تجد الدولة ضرورة لصيانة استقلالها الاقتصادي. أو لتوسيع مناطق الاعناق الضيقة التي تعرقل سيولة الاقتصاد ونمو حجمه، مما لا يعنى به الجهد الفردي، او هو يتجنبه عندما يصل الى نقاط اختناق لا طاقة له ولا مصلحة في توسيعها. كذلك تتدخل الدولة في توجيه حجم كبير او صغير من الانتاج القومي نحو الأسواق الخارجية، لغاية تأمين التعادل في ميزان المدفوعات، ومن ثم، لغاية تتصل بما قبلها وهي صيانة النقد.

وفي الحقل الاجتماعي، يحق للدولة، بل من واجبها أن تتدخل في تطبيق سياسة اقتصادية مدروسة، ترمي الى اعادة توزيع الدخل القومي في نطاق الأجور، والارباح والمرتبات، ودخول رأس المال، او في نطاق تحسين شروط العمل والعيش. كذلك من شأن الدولة ان تقيم التعادل والتوازن بين مختلف المناطق الجغرافية في الدولة، بحيث تصلح شذوذات العفوية الفردية، التي لا تزدحم الا حيث تنشد الربح الأكبر، على حساب المناطق التي تزداد فقراً لبعدها عن خطوط المغامرة.

### شرعية التدخل ومداه

فاذا ألقينا نظرة شاملة على مجموعة الشبكة حيث يباح للدولة او يجب عليها ان تتدخل، تحت ظروف الحالات الثلاث الموصوفة، تأكد لدينا ان النظرية الليبرالية قد توسعت كثيرا، عبر ممارسة تجاربها الحديثة، في منح السلطات العامة، صلاحيات زجرية وتأديبية معاً. وسواء أتم هذا التوسع باختيار النظام الليبرالي، تحت طائلة تمزقه وتهافته، أو بدفع المنظمات العمالية، والتيارات الاشتراكية التي

استجابت لها الجماهير ، فما لاريب فيه أن استراتيجية الليبرالية الجديدة ، هي مجموعة أحكام من كر وفر دفاعاً عن القاعدة الفردية ، ضد القاعدة الجماعية.

وان تكن شرعية التدخل في القرن التاسع عشر ، نظرية جدلية ، فهي اليوم واقع تؤكده النظرية بالتبرير وتتداركه بالتحديد . فلا خلاف اليوم ، بين فلاسفة الليبرالية حول شرعية التدخل ، بل حول حدوده ، على الأرجح . وتختلف ديموقراطية ليبرالية عن أخرى في مدى ماتبيحه وما تحرمه من : مدى التدخل ، واساليب التدخل .

وقد عبر باحث فرنسي بين آخرين ، نرجع اليهم في بحثنا هذا * عن أفكار ليبرالية اساسية في تحديد مدى التدخل وأساليبه ، فقال ماجماعه ان تدخل الدولة في الاقتصاد المقررة حريته ليس قاعدة مطردة بل تدبيراً عارضاً ، اذكى مافيه أنه ينزع الى انهاء نفسه ، عندما تنتهي مبرراته . فاذا شرع التدخل زاجراً او واقياً ، وكان في حسابه ، اصلاً ، أن يصحح انحراف الفعالية الفردية أويعالج قصورها ، لا أن يحل محلها ، ثم اذا كان هدفه الأول والأساسي النفاذ الى اسباب الأزمات ، لا الوقوف عند ظواهرها ، فمن اللازم بالتالي أن يكون للتدخل حدود، واكثر ، نهاية . وبهذا فان تدخل الدولة ، يتصل باقوى معانيه ، وهو أنه ليس تنظيماً فحسب ، بل تهذيباً وتربية: « وإن من شأن النجاح الذي تبلغه التربيــة ، أنه يمكنها من ازالة المربي . . »

ان زوال المربي ببلوغ التربية اهدافها، قاعدة ليبرالية جديدة ، تفرض في رجل الدولة ، صاحب السلطة ، طاقة خلقية قوامها الشجاعة وانكار الذات ، مما هو منشود دائماً ، ولكنه مفتقد في احيان كثيرة ، امام الاغراءات اللازمة عادة لممارسة السلطة . لهذا فان الليبرالية ، انما تنشد الاتكاء على تحديد السلطة ، اكثر من اتكائها على كرم الخلق .

---

* بياردوكالان P. de. Calan في كتابه Renaissance dse libertés éonomiques et Sociales

فليست معضلة الممارسة الليبرالية الجديدة أنها تجابه ضخامة جهاز الدولة، وضرورات التدخل. بل في أنها تحاول أن تجعل منه تدبيراً علاجياً، لا وظيفة عضوية، خوفاً من أن يتحول من تدخل محسن الى تدخل مسيء. «ان الرياضيين والفيزيائيين يعلمون منذ زمن بعيد، أن بعض الظواهر، عندما تتجاوز بعض الحدود، لا تتغير بالدرجة، بل بالطبيعة..»

لذلك فان التدخل كتدبير علاجي، او وقائي، إنما تحده بعض الضوابط، أهمها:

أ ـ انه ليس غاية، ولا نظاماً، إنه وسيلة بين الوسائل وليس أهمها، وهو مساعد للنظام السائد، وليس بديلاً عنه.

ب ـ شرعية التدخل إنما يصونها نفاذه الى عمق المعضلة وقلب الداء، لا طوافه حول ظواهر الأزمة وأعراضها. فهو علاج غير مخدر او مسكن. ولا يركن اليه إلا لأنه قادر أن يصمد الى اعلى منابع الأزمة، بينما لا تكاف الفعاليات الخاصة نفسها هذا العناء.

ج ـ التدخل، إجراء شرعي تضبطه القوانين والأنظمة واصول الحكم السائدة التي يبلغ اهدافه عبرها، لا بتجاهلها أو بتجاوزها.

فمن امثلة هذه الضوابط: أن تقهقر الفعاليات الفردية عن مشروع من مشاريع الانتاج، تفترض الدولة أنه ذو نفع عام وذو اولوية، قد لا يعني ان هذه الفعاليات لا تعترف باولويته، أو تشيح عنه دون سبب. وقبل أن تقدم الدولة على نزع حق الاستثمار من يد الأفراد، عليها أن تتعمق في تفهم اسباب الاعراض او التقصير، فقد يحل العقدة اقدام الدولة على تيسير بعض القروض، أو التلويح ببعض الضمانات، لذلك تلعب (الحوافز الفردية) دورها في معالجة الأزمة معالجة جوهرية، غير عرضية بالنفاذ الى ماوراء ظواهر الأزمة. وعندها تغدو الحوافز، أرجح من الزواجر، أو الحوائل.

كذلك من الأمثلة: ان الدولة اذا روعها ارتفاع أسعار انتاج ما، فليس سلاحها الوحيد أن تمد الى تجميد الاسعار

بل ان سلاح تشجيع الانتـــاج ، هو الافضل . كذلك فان نفاذها الى دراسة سعر الكلفة ، يجب أن يسبق معالجتها سعر المبيع .

واذا كانت الاجور منخفضة نسبياً في منطقة من مناطق الانتاج ، عن مثلها في مناطق أخرى ، فليس سبيل الدولة أن ترفع الاجور أو تخفضها اعتباطاً . بل أن تنفذ الى ماوراء أزمة التدني ، بتوسيع نطاق الفعالية الاقتصادية في المنطقة المصابة بالاجور المتدنية .

وعلى الدولة التي تتدخل لمعالجة أزمة السكن ـ مثلاً ـ ألا تمضي مباشرة الى ممارسة البناء والاسكان ، قبل أن تدرس اثر تدابيرها الزجرية في ايقاع الازمة . وكثيراً ماقيل في فرنسا أن أزمة السكن صنعت بعضها السلطات العامة نفسها عندما حددت أجور المساكن . وهكذا دواليك !

وأخيراً فان جملة تدابير التدخل ، تشريعاً وتنظيماً ، يجب أن تؤلف كلاً منسجماً لايخل أحدها بالآخر ، ولا يعطل فعالية ما لحساب أخرى ، فالتدبير الواقي أو الزاجر في حقل زراعي ، لن يكتسب عقلانيته اذا لم تراع علاقاته بالحقل الصناعي . وما يقال في هذه العلاقة ، يقال في علاقة الاجور بالاسعار ، وهذه بالسوق ، وهذه بنشاط الفعاليات الفردية ، بمعنى أن ما من تدبير يبلغ غايته ، في نظام الاقتصاد الحر ، سواء أكان صادراً عن سلطة واحدة ذات اختصاصات متنوعة ، أو عن عدة سلطات مختلفة ، الا اذا صدر عن قاعدة مقررة ، توزع الانسجام ، فلا تفقـــد التوازن ، شرعية الاصول ، غير مجهولة لدى المواطنين ، بل اكثر ، غير معرّفي بها تعريفاً دعائياً خادعاً ، لغرض تحسب السلطات العامة انه سرها وحدها .

## جذور الأهداف الاقتصادية والاجتماعية

تكاد تبدو للعيان ملامح الاهداف الاقتصادية والاجتماعية في جماع الحوافز الرئيسية وراء تدخل الدولة . لأن الحوافز ، هي بدورها الفكري الصرف مبررات . والمبررات ، كما رأينا ، انما تدور حول مجموعة قواعد وحدود لاتتعداها ، تحت طائلة انسياحها خارج النطاق الليبرالي .

فلنلق نظرة من قرب على هـــذه الاهداف الاقتصادية والاجتماعية في فلكها

العام اولاً . ثم في نطاق التخطيط الفرنسي، عبر أربع خطط ، رسمت ونفذت منذ عام ١٩٤٤ .

في البدء يجب التأكيد على اشتباك الجذور الاقتصادية والاجتماعية ، تحت قاعدة الهدف ، سواء أكان اقتصادياً صرفاً أم اجتماعياً صرفاً . ان منطلق الاقتصاد الحر المخطط ، أصبح الآن مماثلاً للتخطيط الاقتصادي الاشتراكي في اتجاهه نحو الهدفين المباشرين : زيادة الانتاج وتشغيل اليد العاملة الكامل . يبقى أن الفارق بين المنهجين الاقتصاديين ان الاقتصاد الليبرالي ، تحت حكم السوق ، لايستطيع ان يفصل بمنف حاجات الاستهلاك عن حاجات الانتاج ، تحت طائلة تدهوره وافلاسه . بينما يستطيع الاقتصاد الاشتراكي ، بالتخطيط الحاد ان يفصل بين الانتاج والاستهلاك لمصلحة الاول ، او ان يجمع بينهما على مراحل دقيقة الحساب.

وبهذا فان (دينامية الصناعي) الحديث — كما يقول الليبراليون الجدد — جديرة بان تنفتح على قبضة الضغط العمالي المتزايد ضد الافقار وانخفاض الاجور . بل ان هذا الصناعي ليعي بكل حماس ، ترابط الاقتصاد وتضامن اطرافه ، ويدرك أن مأجوره هو زبونه في الوقت نفسه . أما طرق السلامة الاجتماعية ، فقد غدت تؤدي مباشرة الى تثبيت قوة الشراء وتأمين اطرادها في منأى عن الارتجاجات التي كانت تتقاذفها . فالفرنسيون — كما يقول بيير بوشيه — المحرومون من العناية والفقراء ، هم منتجون ومستهلكون هزيلون (*). انما التخطيط الاقتصادي في اهدافه القريبة والبعيدة ، دعوة الى سلامة المجتمع الديموقراطي ، بقوة شرائية منتظمة ذات مردود اقتصادي. ولما كان (الصناعي الديناني ) باصطلاح ( بوشيه )، لا يمكن ان يقبل على هذه الدعوة ، دون تشويق اليها ، فقد غدا التخطيط الديموقراطي أداة مادية ، لدعوته الى بيت التضامن الاقتصادي الاجتماعي حول دفتر حساب مكشوف ، وضعه اخصائيون ، وخبراء ، وعلماء اجتماع واقتصاد ، وممثلو عمل ومال وسلطات عامة. ويبدو ان الجانب الاقتصادي

(*) P. Bauchet - la planification Française

من الليبرالية ، لا يضيره أن ينظر الى المواطن كزبون ذي قدرة شرائية . وألا يفصل بين اعتباره الانساني واعتباره الاستهلاكي.

ولكن بصرف النظر عن هـــذا الاشتباك في الجذور بين الاقتصاد وارتفاع مستوى الفرد المواطن في النظام الديموقراطي فان القضية الاجتماعية تطرح نفسها في الساحة الاقتصادية كقوة قارعة ، لا قبل لاصحاب الأعمال بردها ، أو بالنظر اليها دائما في حساب الدفتر المكشوف . بل ان هذه القضية تطرح نفسها في الساحـــة السياسية كجزء لا يتجزأ من سياسة الدولة العليا . وهنا ، لا تشتبك الجذور الاقتصادية والاجتماعية ، بل تلتقي بالسياسة ايضا وتؤالف بمجموعها ، تلك الحصيلة التي تسمى ( تقدما ) او ( ازدهارا ) او ( رخاء عاما )

ان هـذا التشابك الذي ادت اليه ضرورات التقـدم التكنولوجي ووعي الجماهير لدورها الاقتصادي والاجتماعي ، وما رافقه من توسع الاقتصاد وتعقده ، توسعا وتعقدا كبـــيرين ، يوازي اليوم عشرة اضعاف ما كان عليه منذ خمسين سنة

— لا ينحصر في نطـاقه الواقع المادي ، بل قـــد حفز افكار الاصلاحيين ، والاخلاقيين ، وعلماء الاجتماع ، الى توهين الليبرالية الكلاسيكية ، وانتقاصها على ماتسميه حياد الاقتصاد ازاء الواجب الاخلاقي بمعنى ان العلاقات الاقتصادية ، لا تتصل الا بقوانينهـــا التقنية المستقلة عن فروض اجتماعيـــة انسانيـــة . ويقرر هؤلاء الاصلاحيين والاجتماعيين أن السلوك الاقتصادي ، يجب أن يلتزم ، سواء في تحديد اهدافه ، او اختيار وسائله ، أو تقييم نتاجه ، بقيم اخلاقية ، مرتبطة بمفاهيم العدل ، والخير العـــام ، والا فالليبرالية تقضي عليها بأنها نظام لا اخلاقي.

سنعود الى تحليل الأهداف الاقتصادية والاجتماعية وما يتصل بها من حوافز ، لدى تقديم هذه الاهداف في التخطيط الفرنسي بالذات . ونتابع الآن النظر في الاهداف الاقتصادية الاولية ، في اطارها العـام .

## الاهـداف الاقتصادية

اذا قصرنا النظر على الجانب الاقتصادي المادي من بناء الخطة في النظام الديموقراطي ،

الليبرالي ، أمكن زج اهدافه القريبة والبعيدة في هدفين او في منطلقين هدفين: التقدم . والتنظيم . فالمنطلق الأول مزيد من الانتاج ومزيد من تعزيز القوى الانتاجية وتخصيصها . وفي المنطلق الثاني مزيد من الخبرة التقنية والكفاءة الادارية، مع ضبط الحركة الاقتصادية وتوزيعها في حياة المجتمع . ويرتبط المنطلقان في قاعدتين ثقافيتين اجتماعيتين: المسؤولية ، والرخاء . مسؤولية كل فرد ؛ وكل جماعة ، احدهما تجاه الآخر . ورخاء عام يشعر معه كل مواطن، وكل هيئة منتجة ، أنها مشاركان فيه ، ومنتفعان منه.

ان مفهوم التقدم الاوروبي ، قد اغتنته تطورات الطاقات الجديدة المتدرجة من الفحم الى الذرة ومن الكهرباء الى الالكترون، ومن الآلية البسيطة الى الآلية المعقدة . ثم الحجوم البشرية بالالوف الى الحجوم البشرية بالملايين . ومن الطاقة الانتاجية والتوظيفية المحدودة ، الى الطاقة المتوسعة ، على نطاق وطني شامل ، بل على نطاق عالمي ايضاً . فليست السوق المحلية وحدها هي . وليمة العرض والطلب بعد اليوم ، بل الاسواق العالمية ، التي اذا لم يحسب حسابها ، أصبح الاقدام على الانتاج مغامرة محكوماً عليها بالبوار ، وبهذا يتوضح جوهر التقدم في طاقات هائلة ، قادرة على تطبيق تقنيات العلم — من جهة ـ وقادرة على توسيع اسواقها على المدى العالمي من جهة ثانية ـ بحيث غدا التقدم ممارسة اقتصادية تفوق قدرة الافراد ، أو الهيئات الصغيرة ، او الانحصارات الكبيرة ـ التقليدية ـ نفسها. يضاف الى ضخامة الاجهزة التقنية، ضخامة الاجهزة العلمية الدراسية ، التي تؤلف بوحدة الانتاج والتوزيع ، لمستقبل قريب او بعيد ، مما تعجز عنه مشاريع الاقتصاد الليبرالي ، وبدونه ، تضل في مغامرات بدائية ، ترفضها شروط الثورة الصناعية الثانية ، التي بدأت في منتصف القرن العشرين ، اثر حربين عالميتين .

إن التقدم في المجتمعات الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، لا يعني الخروج السريع من حالة التخلف التي سادت اقتصادها ، وعقلية اقتصاديها فحسب . بل قد غدا ، الى ذلك ، مرتبطاً بقدرته

على تسليم مقدراته الى تشكيلة( جماعية ) ما ، اذا كانت تأبى على نفسها الانهيار في احضان دكتاتورية الدولة ، فعليها أن تخلق صيغة حوار جديدة مع ( الفردية ) الجامحة ، المتمردة على اي تنظيم جماعي .

وهنا يقترن معنى التقدم بمعنى التنظيم ويتلازمان ، على طول الطريق ، وليست حصيلة التقدم ، بعد الآن منوطة بمغامرات فردية غير مسؤولة ، تنتج عندما تشاء ، وتمسك عن الانتاج عندما تشاء، بل غدا التنظيم الاقتصادي ، يحدد منذ البدء اهداف الانتاج ضمن حدود سؤالين كبيرين : ماذا يجب ان ننتج ؟! ولمن يجب ان ننتج ؟!

وفي الجواب على هذين السؤالين تدخل الاهداف الاجتماعية في نطاق التنظيم الاقتصادي - وتسهم في تحديد وظائفه ومسؤولياته - كما سنرى - في عرض الأهداف الاجتماعية للتوسع الاقتصادي .



